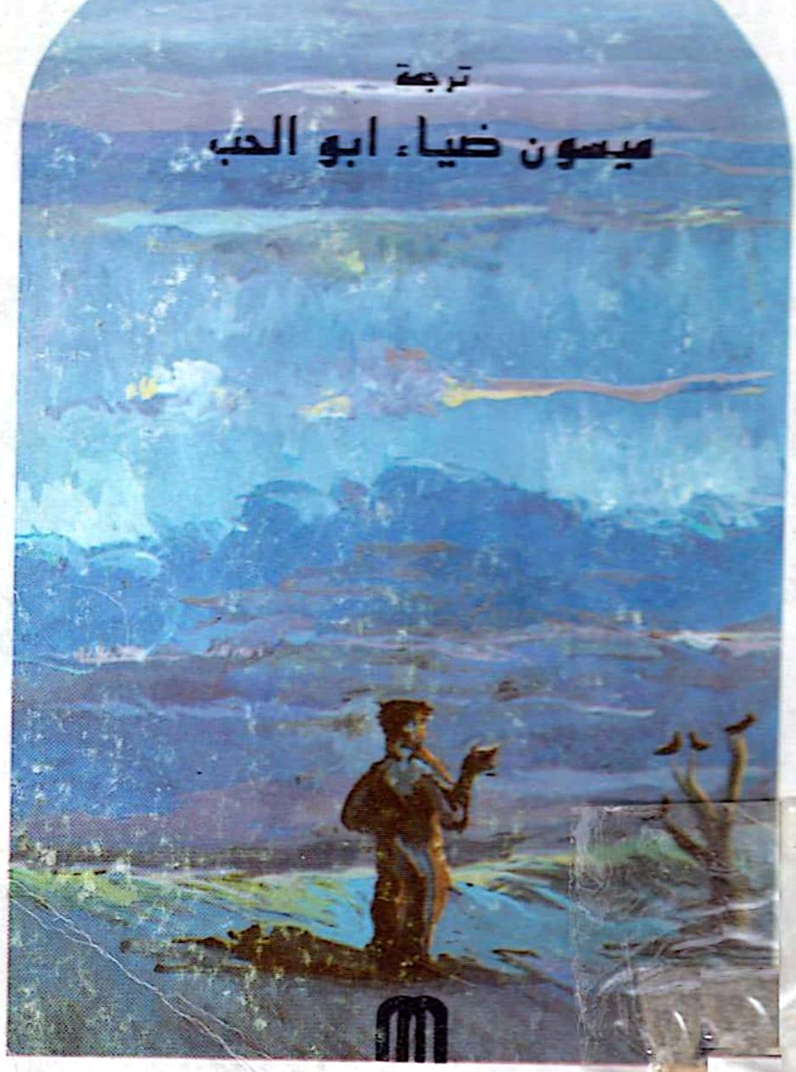
يان كيفيليك

العرس الوحشي



حائز على جائزة غونكور لعام ١٩٨٥

ترجمة

ميسون ضياء ابو الحب

دار المأمون

العرس الوحشي



يان كيفيليك

العرس الوحشي

حائز على جائزة غونكور لعام ١٩٨٥

ترجمة

ميسون ضياء ابو الحب

دار المأمون للترجمة والنشر

بغداد - ١٩٩٠

ـ العرس الوحشي

ـ يان كيفيليك

Yann Queffelec

دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
الطبعة الاولى

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٠) لسنة ١٩٩٠

توجه المراسلات الى:
دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد ـ الجمهورية العراقية
ص. ب ٨٠١٨
تلكس: ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد
مترجم عن الفرنسية
حائز على جائزة غونكور لعام ١٩٨٥

الاهداء

الى فرانسواز ڤيرني
الى ماري - روز
والى أدغار.

مقدمة:

في هذا العصر الـذي يتميـز بغـزارة الانتـاج في جميـع المجالات وبضمنها مجالا الكتابة والنشر، يندر ان يتمكن كاتب ما من احتلال موقع الصدارة إلاّ بعد جهود مضنية ودؤوبة. الا ان هذا هو ماحدث بالتحديد للكاتب الفرنسي الشاب «يان كيفيليك»، فعندما نشر روايته الاولى «الفتنة السوداء» عام ١٩٨٣ أصيبت الاوساط الادبية الفرنسية بالدهشة وتساءلت عن ماهية تلك المقدرة المباغتة التي اظهرها ذلك الصحفي والنـاقـد الادبي الشـاب الـذي يعمـل في مجلة نوفيـل اوبزرفاتور. الا ان تلك الرواية الاولى في الحقيقة لم تكن غير حجر اساس لصرح ادبي كبير لن يلبث ان يعلو مع روايته الثانية «العرس الـوحشي» عام ١٩٨٥ ليحصل بفضلها على جائزة غونكور للادب، وهي اكبر جائزة ادبية في فرنسا.

يتميز كيفيليك باهتمامه بالمرضى النفسانيين وبالمجانين والمدمنين على الكحول والمخدرات وبالاطفال وبالعجزة والمعوقين مما جعل بعضهم يطلق عليـه لقب «فـوكنر الفرنسي» تشبيهاً له بوليم فوكنر صاحب الرواية العظيمة «الصخب والعنف». فهو يبدع في وصفهم، والاهم من ذلك انه يبدع في ابراز اختلافهم، والاختلاف هنا، هي الكلمة السر، اذ نرى العـالم يسـير في اتجاه بينما يسير بطل روايته او ابطال روايـاتـه في اتجـاه معاكس. الاخرون هم العالم وهم الحياة بمعناها الواقعي والمجرد، مجموعة من تفاصيل صغيرة تتداخل وتتشابك، بل

تحيـا، كي تملأ الزمن، أما بطل الرواية فهو مجرد حادث، شاءت الصدف ان يكون وان ينموكي يلتقي ذات يوم بالواقع وبالحقيقة ومن ثم بمصيره. وكيفيليك عندما يسرد احداث روايته هذه يحرص على اتخـاذ موقف محايد تماماً فهو لايعمد الى استخدام ماهو عاطفي من الكلمات كما لايصدر حكماً على مجرى الامور بل يكتفي بالوصف، وصف الاشياء والاحداث وبواطن النفوس باسلوب يتميز باللامبالاة، واللامبالاة القاتلة احيانا. الا ان لغة كيفيليك من جانب اخر، هي لغة غنية على صعيد المفردات والدلالات والمعاني، لغة مفعمة بالرموز التي يستدل منها القارىء على ماستؤول اليه الاحداث دون ان يصل الى تكهن كامل بها. كما انها لغة يثبت الكاتب قدرة كبيرة على تطويعها حين يضعها على لسان ابطاله كلٌ حسب طبيعته والمكانة التي يشغلها في مجتمعه.

تبدأ الرواية بمشهد اعتداء تتعرض له فتاة صغ ة الا انها تحمل في داخلهـا احـاسيس امـرأة ناضجة. وينتج عن هذا الحادث طفل يُمنح اسم لودوفيك. تتوالى الاحداث بعد ذلك فيكبر الطفل وينمو، وينمو معـه احساسه بالاضطهاد وبالاهانة وعلى الاخص بكراهية امه وجميع المحيطين به. فيقضي حيـاتـه د حـروماً من ابسط كلمة حب ومحروماً ايضـاً من التعبيـر عن احـاسيسـه ومشـاعره. وفي النهاية، تحل لحظة اللقاء، اللقاء الحقيقي الوحيد مع امه الا انه اللقاء الاخير ايضاً.

سيتعـرف القـارىء من خلال هذه الـروايـة الى واحـد من افضـل الكتّـاب الفـرنسيين الشبـاب كمـا سيتعـرف اسلوبـاً حديثاً في الرواية الفرنسية يختلف عما الفناه في العقود السابقة. واخيراً اتمنى ان اكون

قد وفقت في نقـل هذه الـروايـة الى اللغة العربية وفي تمكين القارىء من التعرف على بعض من جوانب الادب الفرنسي الحديث.

«المترجمة»

الجزء الاول

الفصل الاول

برد ماء الحمـام فخـرجت نيكول من المغطس وقطرات الماء تلتمع على جسـدهـا. التقطت المنشفـة القطنيـة ودعكت جسـدهـا طويـلا وراحت رائحـة الحقول الممزوجة برائحة الخبز الحار تبعث في نفسها احساسا بالاسترخاء وبالخدر. جربت خفية حذاء أمها الاسود ثم مطت شفتيهـا. كانت قدمـاها تعومان فيه بعض الشيء لكنه يجعلها تبدو اكبر سنا. لمحت عندئذ صورتها المنعكسة في المرآة البيضوية التي يعلوها البخار فابتسمت. كانت في الثالثة عشرة من العمر وعلى اعتاب سنتها الـرابعـة عشـرة لكنهـا تبـدو في الثامنة عشرة بجسدها الناضج وشفتيها الـدمـويتين وعينيهـا الـزرقـاوين اللوزيتين وشعـرهـا الاحمـر القرمزي المنسـدل كألسنـة من نار على كتفيهـا. وكانت تقضي ساعة كاملة كل يوم في تطويع الحريق.

اصطفق البـاب في الطـابق الارضي. لقـد خرجت مامـا التي لن تنتهي هي وبابا من العمل في المخبز حتى منتصف الليل. اضطربت نيكـول عنـد تفكيرها في أنها ستخدعهما يوم الاحد، اليوم المقدس. ولكنهـا ستـذهب الى الاعتـراف غدا وينتهي الامر. نعم، ولكن، كي تعترف بماذا؟ فهي لم تكذب تقريبا وستبيت الليلة بالفعل عند نانيت، ابنة الخال الكبرى التي تعيش وحدها منذ ان هجرها برنار.
لكنّ لديها موعدا قبل كل شيء..

لقــد كذبت على نانيت ايضــا . . ولكن بدون خبث! تحـدثت عن حفلة بسيطة تنظم في منزل احدى العائلات الباريسية سيحضرها عدد من الاصـدقـاء مع عائـلاتهم، عن عيـد ميـلاد دُعي اليـه ويـل نفسه، الشـاب الاميـركي من معسكـر أرزاك كمـا تعـرفين! وهو سيرافقها الى البيت قبل منتصف الليل حتما.

تمطت نيكول. ماأجمل التفكير في ويل، بعينيه الخضراوين اللتين يتـراقص فيهمـا غبـار طلع ذهبي. ماأجمـل أن تتهيأ للقـاء وهي تسرح بخيـالهـا بعيدا: ويل يدعوها الى الرقص على ايقاع الموسيقى الهادئة تحت الاضـواء الملونـة في حفـل الـرابع عشر من تموز «اجمل من اية رقصـة تانغـو في العـالم»، ويـل على التلة ذات مسـاء وقبلتهما الاولى وهمس الريح خلفهما فوق اشجار الصنوبر والليل العذب الذي تبعث فيه النجوم والفنارات وميضها المجنون الى البحر.

ماأكثـر الاحـاسيس التي انتـابتهـا وهي تستعـد للتزين وما أعمقها! البارحة، تذرّعت بحرارة الجو، ونامت على فراش في مخزن الغلال. كانت في الحقيقـة تريـد التهيؤ والتأكـد من وجـود اصبـع احمر الشفاه القـديم الـذي كان لمـامـا والـذي انتشلتـه من صنـدوق القمامة. انها لمحظـوظـة حقا! اذ كانت تضطر في المدرسة الداخلية الى ان تدعك شفتيهـا المبللتين بصـور زهور الداليا المرسومة على ورق الجدران كي تضفي بعض اللون عليهما. لم تستطع النوم وتلك النظرة الخضراء تنير احـلامهـا كالفنـار فتـزوقت وعطـرت انفـاسهـا بعرق السوس ووسعت حدقتي عينيهـا بقطـرات الليمـون ودعكت اسنـانهـا بفحم الخشب المسحوق، استجابة لنصائح نانيت. واخيرا ، نشت وكوت اذيال ثوبها المطرزة وكان ثوبا ذا فتحة رقبة مربعة.

كانت قد التقت ويل في «الشنال» وهو مقهى يقع على الميناء اعتاد

تنظيم حفلات راقصة في فترات مابعد الظهر. كان ذلك قبل شهرين، في عيد القديس يوحنا، في وقت كان ابواها يظنان انها كانت على ساحل البحر. «انا عسكري أميركي، طيار، أيمكنني الجلوس؟». كان شعره اسود فاحما مصففا الى الخلف دونما فرق. طلبت هي قدحا من عصير الليمون وطلب هو قدحا من الجعة وراح يبتسم مثبتا نظراته عليها ومتجاهلا ماري - جو التي مالبثت ان ابتعدت عنهما منزعجة. قال: «انك جميلة جداً، ان شئت اصبحنا اصدقاء». وارعبتها العينان الخضراوان فغمغمت: «لقد تأخر الوقت، يجب ان اعود». فاصطحبها ويل بسيارته الجيب حتى منتصف الطريق الى المخبز ولم يقبلها الا في اليوم التالي.

وبعد انقضاء اسبوع جاء الى المحل وقدم نفسه الى الخبازين. ومنذ ذلك اليوم اخذ يتردد مرة كل يومين لتسلم حوالي مائة رغيف من الخبز مخصصة لمعسكر ارزاك الذي يقع على الساحل. كان يحضر في موعده كل يومين، قبل اغلاق المحل تماما، ويظهر كل يومين بكامل هندامه، مشرقا كما لو كان يستمد سعادته من تحميل سيارته الجيب بأرغفة الخبز. كان يثرثر مع السيدة بلانشار ويناكد نيكول بلطف ثم يذهب لالقاء التحية داخل المخبز ويتنقل بين المواضيع حتى يحين موعد العشاء فكان يبقى احيانا. وأصبح لنيكول حق مرافقته عند العودة حتى الشارع الرئيس الذي يقع في منطقة مرتفعة يمكن منها مشاهدة الفنارات عند مغيب الشمس. اما والدا نيكول فما كان ليدور في خلدهما يوما أنّ بإمكان هذا الشاب المرح جدا، اللطيف جدا، البالغ من العمر عشرين عاما في الاقل، ان يغمر خلال ذلك الوقت ابنتهما الصغيرة التي لم يكونا ليعتبراها قد تخطت عتبة الطفولة، بالقبلات الحارة.

كان يسميها (لوف) ويدعوها (آمور) ويناديها لوف آمور ويرسم على الـرمـال قلبين يجمعـان بين اسميهمـا. كان يقـول وهو ينظر بعمق في عينيها «لاتخافي، تعالي الى جانبي» فتصاب نيكول بالذعر من اليدين الضخمتين وتقـول: «لا ياويـل، لقـد اقسمت، ليس قبـل الـزواج». وفقد اعصابه ذات مساء واصبح شرساً تقريباً فأبدت نيكول قلقها. واذ ذاك قال:

- «انتهى لوف آمور، سأغادر الى اميركا يوم الاثنين.

- تعني في غضون يومين!

- اريد ان اتزوج لوف آمور، اريد ان اتزوجك».

فكذبت:

- «ولكنني ماأزال صغيرة جدا، عمري خمسة عشر عاما فقط.

- وماذا في ذلك. سأعود لاصطحابك فيما بعد».

وبكت نيكول طوال الليل. ويل سيرحل، ياله من امر مرعب، ويل الذي احبته حبا سيدوم العمر كله. وكل ذلك لان القاعدة الاميركية قد الغيت. يالها من سخافة!

ولكن الامر اكيد فقد اقسم انه سيتزوجها... وفي اليوم التالي جاء الى المحـل وذراعـاه محملتـان بالزهور وبقناني الخمر الفوارة كي يودع عائلة بلانشـار: «اريـد التحدث الى السيدة، والى السيد ايضا»، فعاد الخباز الذي كان الدقيق يغطيه، الى الجزء الخلفي من المحل. «اريد ان اتحـدث ولكن الامـر صعب بالفـرنسيـة». قال انه يملك مزرعة في ميشيغـان غيـر بعيـد عن البحيـرة وان عليـه ان يعمل بجد لان الارض لاتعطي غلة في بعض المـواسم وقـد تصـاب الماشية بالامراض او قد تكتسـح «الحيـوانـات الصغيـرة الطـائرة» حقول الذرة. قال ان خدمته العسكـريـة قد انتهت وانـه سيعـود الى بيته الا ان المسألة هي انه يريد

الزواج. والزواج بنيكول في غضون فترة قصيرة.

نظر الابوان احدهما الى الاخر في ذهول وهما لايعرفان أيجب عليهما ان ينفجرا ضحكا ام غضبا وكان لون نيكول قد حال الى لون الفلفل الحلو المعلق على الجدار كي يجف. فكرت السيدة بلانشار في سرها: «انها صغيرة جدا، تكاد تكون طفلة، ولكن اميركي.. وغني. يجب ان نفكر في الامر جيدا!» اما الاب فقد اطلق نفسا طويلا ثم اعلن رغبته الدفينة حين قال: «على اية حال.. سنرى مع الوقت.. يجب ان نفكر في الامر جيدا!»

فتحت الخبازة علبة بسكويت باستخدام الملعقة واحتسى الابوان وويل نخبا من الخمر الفوارة اما نيكول فقد رفعت كأساً تحوي بضع قطرات من الماء ثم احتست قدحا من شراب الليمون.

توجه الشابان بعد العشاء لمشاهدة الفنارات اخر مرة. كانت نيكول تعرفها كلها:«هناك سان ـ نيكولا.. والاحمر البعيد هو كوردوان، وما يتلألأ هنالك هي إشارة السفن». لكنها لم تستطع التركيز واليدان الضخمتان تعبثان بجسدها.كان عليها ان تناضل ضد كل تلك الاصابع وكل تلك القبلات التي تسكرها. «غداً لوف آمور، هي ليلة الوداع. سيقام حفل في المعسكر، أترغبين في المجيء؟.

ـ لاادري ياويل، يجب ان اخبر امي.

ـ لا. لا، تخبريها بأي شيء: هي على وجه الخصوص. سأراك هنا في الساعة التاسعة. وفي السنة القادمة، سنتزوج في مزرعتي انا وانتِ..»

*

لماذا تخفي ماما عطرها؟ ياله من امر محنق. لم تجد نيكول على المنضدة، باستثناء عبوة الشامبو بالبيض المخصصة للاستخدام

العائلي ، وبودرة التلك بالفانيلا ودهن الشعر، غير الصودا الكاوية وعطر ابيها اليومي المصنوع من زيت الياسمين المذاب في الكحول. قربته من انفهـا فوجـدتـه حادا جدا ولكن، على جسمهـا، ربما. . وبعد ان مسحت خلف اذنيهـا رشت في النهـايـة كامـل جسـدها دون ان تنسى قدميهـا ومنـديلهـا ثم ملأت الـزجـاجـة التي فرغ نصفهـا بماء الحنفية وفجعت لرؤية زيت الياسمين يطفو على السطح .

دقت السـاعـة الثـامنـة والربع في الطابق الارضي . يجب ألا تتأخر اكثر من ذلك. لكن هذا هو مافعلته بلا كثير اهتمام فاطالت في اختيار أجمـل وانسب ملابسهـا الـداخلية التي كان لديها منها الكثير. وعندما جاء دور الفستان كادت تفقد اعصابها: كان على مقاسها تقريبا ويشد جسمهـا. ومـاعـدا ذلـك كان كل شيء رائعـا. سيكـون ويـل فخـورا بتقـديمهـا الى اصـدقـائـه. واخيـرا، استعـارت سراً حقيبة يد من ماما وفكرت ان ذلك سيمنحها هيئة متفرّدة .

لم تلتق احـداً وهي تجتـاز البـاحـة وتحث الخطى بمحـاذاة الفـرن الـذي بدا خاليـاً. كانت الشمس ماتزال مرتفعة والهواء الازرق يتلألأ .
سارت عبـر الحقـول وهي تصعـد في ظل السيـاج كي تتجنب سيمون ومـاري ـ جو اللتين لاتكفـان عن التلصص عليهـا. منذ ان بدأت تظهر مع الطيـار على البـلاج وهـاتان الشرستان تشعران بغيظ كبير. اما الان وبعـد ان جرى الحـديث عن الـزواج فان منظـرهما يستحق المشاهدة فعـلاً اذ تبـدوان وكأن الـدمـاء قد غادرت وجهيهمـا تمـاما. ووعدتهما نيكول: «ولكنني سأكتب اليكما من ميشيغان» .

وقبـل ان تصـل الى تقـاطـع الطـريق توقفت نيكـول في الظل قليلا وقلبها يخفق بشدة. اخرجت من حقيبة ماما اصبع احمر الشفاه وسوت زينتهـا اخـر مرة. وعنـدئـذ افلتت من يدهـا مرآة الجيب ثم هوت الى

الارض وانشرخت.

كان ويل هناك في سيارة الجيب ينظر اليها بخبث وهي تقترب. لم تصدر عنه اي كلمة بشأن الفستان ولم يثن على اناقتها، ولاحظت نيكول زجاجة بين ركبتيه.

قال وهو ينطلق بسيارته كالمجنون: «اليوم هو يوم عيد». ثم قاد سيارته بتهور في طريق مليئة بالحفر مستهدفا برك المياه ومحتكا باشجار الصنوبر وقاطعا الطريق عبر التلال الصغيرة وهو يقهقه.

صرخت نيكول مذعورة: «لقد شربت ياويل!»

كان المحرك يزمجر والرذاذ الموحل يرشها وارتجاجات السيارة تكاد تتلف فستانها الجميل وتمرضها، فتشبثت بالمقعد متوسلة: «أبطىء ياويل، أبطىء».

- لا، بل لنسرع يادارلنغ، لنسرع. قال وهو يشير الى الغرب حيث لاح تهديد السماء السوداء، ثم افلت المقود كي يعب جرعة من فم الزجاجة.

وعندما وصلا، كانت الارض الملتهبة ترتعش تحت وقع قطرات مطر تاهت عن عاصفة بعيدة. رفع حارس البوابة الحاجز وهو يضحك ثم عاد الى ابتلاع قطرات المطر وهو يتطلع الى السماء.

اما فيما يتعلق بالمزرعة والالدورادو* فقد كان وليم شنايدر يعمل في الواقع حارسا ليلياً في مرأب للسيارات في برونكس وكان معروفا لدى الشرطة بكونه مجرما ذا سوابق كثيرة في اعمال النصب والاحتيال. كانت امرأته ماسحة بلاط وابنهما تيري في الثانية من العمر.

*

يقع معسكر ارزاك خلف شبكة من الاسلاك الشائكة ويتكون من عدد من الخيم نصبت في مواجهة البحر، من هوائي اذاعة وسارية علم

* بلد اسطوري في أميركا اللاتينية. وتستخدم الكلمة وهي من أصل أسباني للدلالة على المناطق الجميلة الغنية بالثروات. (المترجمة)

يحمل الالوان الاميركية وقن دجاج كانت ترتفع منه قوقات خافتة، اقيم اسفل الشاطىء الصخري. وعلى مدى النظر، لم يكن هناك احد اذ ان غالبية الرجال قد رحلوا في الامس ولم يبق في المعسكر غير عدد قليل منهم كلفوا بمهمة تسوية الحسابات الاخيرة مع المجهزين الفرنسيين.

«هاهي حجرتي....»

كانا داخل حجرة مربعة الشكل تطل على المحيط، ارضيتها وجدرانها من الخشب غير الصقيل، وكانت الواح الصفيح المتموجة في السقف تقرقع بفعل الريح. كانت هناك البسة بحر وملابس داخلية علقت كي تجف على حبل في عمق الحجرة حاجبة عن النظر موقدا أسند بعصي خشبية ضخمة وصناديق لقناني الجعة تسند خزانة حديدية رمادية اللون. وبدت منضدة الفورميكا المشطبة باعقاب السجائر مغطاة بالقناني، تحت مصباح عار معلق بالسقف، والى جانبها صناديق عتاد تستخدم مقاعد. وكان صوت البحر القريب وهو يضايق الشاطىء الصخري يسمع في الحجرة.

ادار ويل حاكياً كانت ذراعه في وضع الانتظار وقد ثبتت سلفا على اسطوانة حزينة لفرانك سيناترا.

جالت العينان الخضراوان بشراهة على جسد الفتاة المراهقة وهما تعبران عن رغبة فاضحة جدا دفعت الفتاة الى الابقاء على ذراعيها متشابكتين. اطلق ويل صفيرا مقيتا، وفي تلك اللحظة، علق اسفل النافذة اشعاع شمسي احمر متأخر ثقب العاصفة وكسا شعر الفتاة الاشقر المنثور بلون احمر غامق.

«اجلسي ياحبيبتي ولاتخافي»

ترددت نيكول المذهولة امام صناديق العتاد وهي تخشى على ثوبها من التجعد.

«اجلسي على السرير، السرير هو المكان الذي يجب ان تذهبي اليه ياحبيبتي . ، أتشعرين بالعطش؟

- لاياويل، شكرا . . واين اصدقاؤك؟»

جلست على الطرف القصي من السرير وارتاعت لرؤية جزء من الجدار وقد غطته صور نساء عاريات.

«اصدقائي قادمون ياعزيزتي . انه العيد! سيحضرون كلهم».

سحب ويل من الخزانة زجاجة ويسكي وراح يرتشف منها جرعات كبيرة محدثا جلبة بفمه.

«لاياويل . . لاتعاود الشرب ثانية!

- بل سأشرب ، وستشربين انت ايضا معي ياحبيبتي».

اطلق ضحكة فاجرة وراح يتمايل في مكانه ثم طوقها بعنف وبصق في وجهها وعيناه غائرتان وأمرها: «اشربي». امسك برقبتها وحاول وضع فم الزجاجة داخل فمها فقاومت بوثبة خوف وهلع كانت من الشدة حتى انها ادت الى انسكاب الكحول على ثوبها. ثم قفزت الى الباب وهي تصرخ. وما ان ادارت المقبض حتى جذبها من شعرها وتراجع بسرعة والقى بها بكل قوة على السرير. صرخت بأعلى صوتها فصفعها «ستغلقين فمك وستشربين» ثم اغرقها بالويسكي من قمة رأسها حتى اخمص قدميها. اختنقت فحاولت أن تخربشه باظفارها وان تهرب «ستتوقفين عن الزعيق والا . .» وكان قد اشعل ولاعته فشاهدت نيكول بعينين جاحظتين خصلات شعرها التي يقطر منها الويسكي وهي تحترق.

ضج ويـل بالضحـك فتحـولت النظرة في تلك العينين الخضراوين الى رصاص. انتزع خصلة اخرى من الشعر الاشقر وراح يحرقها بين اصابعه.

حاولت الهرب من جديد الا انها كانت تترنح رعبا فسقطت وسلخت ركبتيهـا. عاجلهـا بركلة من قدمـه ثم ارتمى فوقهـا على اطرافه الاربعة وهو يلهث. اذى شفتيها المضمومتين وهو يحاول اجبارها على احتساء الشراب غير آبه باصطدام فم الزجاجة باسنانها. وكان يضج بالضحك كلما رآها تختنق.

«لا يـاويـل، لا» وكانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي استطاعت ان تتلفـظ بهـا في تلك الليلة، وكـانت الاخيـرة ايضـا. صمّ اذنيه عن سمـاع صرخـات الألم واغمض عينيـه عن رؤيـة دموعها وكانت الدماء تنزف من فمها ومن جسمها حين سحبها الى السرير.

«ايتها الفرنسية الصغيرة العزيزة» ثم توجه الى الباب وصرخ في وجه الظلام الذي كان يهبط «هيا، ايها الشباب».

اصطفق باب في الخـارج وجـاء من الكـوخ المجـاور الـدو وسـام اللذان كانا يحتسيان الجعة في انتظار اشارة من ويل ويقتربان بين حين واخـر كي يراقبـا مايدور داخل الحجرة من خلال الالواح. كان الدو من اصـل شيلي، وهـو ضخم الجثـة ذو بطن ضخم وكـان سام فتىً احمـر الشعر يعمل ابوه خورياً.

وقال ويل: «هاهم اصدقائي. انه العيد ياحبيبتي».

*

انـزوى ويـل في احـد اركان الغرفة، بين القناني المقلوبة والنعاس يوشك ان يغلبه، حين مزق ديك ستار الليل بصياحه. قال وهو يضرب جبهته: «ديك الخراء هذا» ثم خرج من الكوخ عاريا كالدودة.

وبعـد دقيقـة ، عاد بالحيـوان وكـان ديكـا مقصـوص الجناحين راح ينفش ريشـه ويضـرب الهـواء برجليـه ويبصق بصيـاحه على الرغم من القبضة التي كانت تلوي عنقه «لا» قال الدوحين اراد ويل وضع الطائر على جسد نيكول التي كانت مستلقية على السرير عرضيا دون حراك. استـدار ويـل وراح يخنق الحيـوان ببـرود وهـو ينظـر الى لسانه الوردي يرتجف والى عينيه يغشاهما البياض تحت عرفه الذي تهدل. ولم يرخ قبضتـه حتى شاهـد الـدفق الاحمـر يغطي منقاره المشرئب الى امام. تسلح بقـدر ثم خرج وعـاد هذه المـرة ببعض البيض فكسر واحدة منها بابهامه فوق نيكول ثم طبخ اومليت داخل مقلاة مخلوعة الذراع وتناولها مع الدو في صمت. وكان الرجل الشيلي يمسح الزيت باصابعه ثم يلعقها.

عنـدمـا طلعت الشمس كان العنف قد اختفى ولم يبق مايجمع بين الرجال الثلاثة وضحيتهم غير غمامة النوم. كان البحر قد التزم الصمت ولم يكن يسمـع غيـر خشخشـة ذراع الحـاكي التي وصلت نهاية دربها وكانت رائحة طعام عفن تفسد الهواء. وفي تلك اللحظة التي اصيبت بفقدان الذاكرة وهامت بعيدا عن فلك الزمان بدا كل واحد منهم وكأنه يعيش ذات لحظـات الخـدر اليـوميـة التي تسبق الـولادة والـذاكـرة والجنون. كان الدومستلقيا على الطاولة وقد تدلت احدى ذراعيه وويل متكوما على الارض قرب سام الذي اخذ وضع كلب الصيد.

اما نيكول التي كانت ماتزال محتفظة باحدى فردتي حذائها الاسود فراحت تتأمـل بعينين نصف مغمضتين طلاء الصـدأ المتـآكـل في السقف، دون ان ترى شيئا.

تقـدم سام منهـا ليداعبها ثم غمغم بصوت غبي «دم». وكرر «دم». بدا منتشيـا وهـو يقلب يده تحت المصبـاح، كما لو كان دم الاغتصاب

من الـذهب الخـالص . قبّـل اصابعه ثم هزّ رأسه ملتذا وردد من جديد «دم» ثم راح يلون وجهه، على طريقة الهنود، بالاكسير الالهي هذا .

هذر على انغـام التـام التـام ودار حول الطـاولة كأنه هندي من قبائل السيـو وأخـذ يصـرخ بصوت أخن «ويسكي . . . جعة . . دم» . وكلما تلفظ بكلمة دم ردد الدو على النغمة نفسها وبصوت خفيض «كوكاكولا هوهو» . اما ويل فقد اخرج آلة الهارمونيكا كي يصاحبهما .

كسـا جدران الحجرة فجر ذو مذاق حامضي عندما انهارت اعصاب سام . امســك بزجــاجــة ويسكي من عنقهـا ثم سدد بهـا ضربـة الى المصباح الذي كان مايزال مضاءً ، فحدث انفجار قصير انبثق منه خيط من اللعاب الناري، خدش الهواء واصطدم بالارض .

«مستحيل» انتحب سام وهو يضع رأسه بين يديه . «لا . لا» . ثم راح يرتـدي بعصبيـة مايقـع تحت يديـه من ملابس مبعثـرة وخـرج وهو يردد «لا . لا . غير ممكن، لا» . فحول ويل رنة نواحه الى لحن على آلة الهارمونيكا .

عاد وهـو يحمـل صفيحة مليئة بالماء ومنشفة وقليلا من القهوة وراح يمســح بخجــل جسم الطفلة التي تنــاولت المنشفـة وبسطتهـا على جسمهـا ثم امسكت بقـدح القهـوة وحـاولت ان تشرب الا انها اخذت تتقيأ وهي تشعـر بانقبـاضات مشحونة بطعم المرارة دون ان يؤدي ذلك الى مسـاعـدة معـدتها المثقلة . بحث سام عن اغراض نيكول، حقيبة اليـد وفـردة الحـذاء الضـائعة ثم ساعد الفتاة على التواري داخل ثوبها الممـزق الـذي لم يبق فيـه اي زر فاضطر الى تثبيته بعقدة من القماش كيفما اتفق .

«هيـا ، سأرافقـك» فانهارت نيكول في نشيج جاف ثم زاغت عيناها وتحـركت شفتـاهـا دون ان يصدر عنهما اي صوت . لم تستطع الثبات

على قدميها فاتكأت على سام الـذي كان قد صحا من سكرته وطوقها بحنان. أوشكا ان يخرجا حين تردد صوت زئير خلفهما:

«انها لي» زمجر ويل دون ان يرفع رأسه ثم التقط جثة الديك وصفع بهـا سام وعـاجله بضـربـة من رد... تحت الحـزام قبل ان يستدير نحو نيكول ويدفعها نحو الجدار بعنف. ولم تكن النظرة الخضراء في تلك اللحظة غير بقعة من الوحل. قال وهو يمسك بحقيبتها اليدوية «نقود. نقود... ك ياموسي الصغيرة». ومن الحقيبة، سقطت صورة لنيكول في لباس البحر خط عليها: «الى ويل مع حبي الى الابد».

خرجت تسيـر على قدميهـا تحت رذاذ اخـرس. لم تر احـداً عنـد الحاجز ثم تقدمت بخطوات آلية عبر التلال التي انتشر عليها الضباب. ...ه ليس بعيـداً. في نهاية الدرب تماما. جزء من الطريق الترابية وجزء من الطـريق العـام ثم سأصـل. كانت خصلة مبللة تتأرجح فوق انفها وكـانت ترتعش وتنـزف في اثنـاء السير لكنها لم تكن تشعر بأي شيء. ولم يكن الحـذاء الاسـود ثابتـا في قدميهـا حتمـا. وعندما وصلت الى منـزل نانيت فكـرت انها تشعر بالنعاس وأنها ستكون سعيدة لوحصلت على قطعـة من الكـرواسـون الحـار. اجتازت الحديقة الساكنة ودارت حول المنـزل ووجـدت المفتـاح في العش. فتحت الباب ثم توجهت الى غرفتهـا بعـد ان خلعت حذاءهـا وهي تتلمس طريقهـا. كانت الحجـرة تسبـح في ضوء نهـار قاتم. . وضعت حقيبتهـا على الغطـاء الريشي المنتفخ الممدود على السرير العريض ثم التفتت آلياً. وحين شاهـدت نفسهـا في المـرآة التي تغلف خزانـة الثياب، ربلتي ساقيها اللتين تغطيهمـا الـدمـاء والثـوب الممـزق والشعر الذي يبدو كالزوبعة والفم المتورم والعين المجنونة رعبا والذاكرة التي تتدفق على دفعات، تراجعت محـاولـة الهـرب. سارت متعثـرة بخطـواتهـا حتى السلم ثم

ارتمت على احـدى الـدرجات وامسكت بالدرابزين وراحت تهزه وهي تزعق : «نانيت . . نانيت . . نانيت . . نانيت . . نانيت . . » .

***

الفصل الثاني

كان لودوفيك ولداً نحيلاً طويل الاطراف ضامر الوجه مهدل الكتفين بارز عضلات الذراعين ذا شعر كستنائي فاتح جزته السيدة بلانشار حتى جلدة الرأس خوفاً من القمل.

منذ سبع سنوات وهو يعيش على شاطىء البحر لكنه لم يره قط. كان يسمعه فقط. اما كوة مخزن الغلال فكانت تطل على باحة الدار وعلى الفرن ثم على صفوف رتيبة من اشجار صنوبر كان ضباب الصباح يحجبها. وبين هدير البحر وحفيف الاشجار كانت الضجة تتواصل ليل نهار وترتفع عندما يكون الجو سيئا حتى ان شخير الخباز كان ينمحي. وكان الطفل يهرع الى الباب كي يرى لكن الباب كان مقفلا بالمفتاح.

وعندما كان السيد بلانشار يجتاز الباحة منتقلا من الفرن الى المحل، حاملا الارغفة التي يتصاعد منها البخار، كانت رائحة الخبز الحار تطير اليه. وكان يلتقط كل صباح، من اسفل الكوة ومن الارض وحتى من شعره، غبارا دقيقا ابيض ذا مذاق هارب.

كان يسمع دقات جرس لاحصر لها ترتفع من الطابق الارضي ويصغي في فترات السكون عند المساء الى انشاد الملاعق في صحون الحساء. وفي اغلب الاحيان الى صرخات النسوة الحادة وانفجارات الخباز الغاضبة.

كانوا يحملون اليه طعامه مرة واحدة في اليوم عند العصر وكان عبارة عن حساء التوبيوكا والحلساق الرومي وسمك البوري الذي كان السيد بلانشار يصطاده في الميناء قرب حاجز كانت القابلات يفرغن دلاءهن عنده. لكنهم لم يكونوا يقدمون له الخبز قط، حتى ان كان بائتاً، فقد حرمته نيكول من الحليب وحرّم عليه الخباز الخبز.

كان يرى السيدة بلانشار مرة وابنتها مرة - شعراً رمادياً وشعراً بلون الخبز. لم يكن احد يوجه الكلام اليه ولم يكن هو يتكلم لكنه انتهى الى القدرة على تشخيص تلك الاصوات التي كانت ترتفع اليه من الطابق الارضي، تلك الكلمات التي شكلت ذاكرته بمرور الايام وتلك الاشارات المبهمة التي كانت تومض داخل نفسه. وبعد ان يغلق الباب كان لودوفيك ينقض على الطعام ويلتهمه باصابعه.

لم يكن السيد بلانشار يصعد اليه قط. وفي احد الايام، اذ كان الخباز خارجا من الفرن، التقت عيناه وعينا الصبي الذي كان يترصد الخبز الحار فهز رأسه بعصبية ثم بصق. وفي ذلك المساء كانوا كلهم يصرخون في الطابق الارضي: الاب والام يشتمان ابنتهما والابنة تجدف على الله ثم مالبث الباب ان انفتح لتظهر المرأتان الغاضبتان. كانت الام تسحل ابنتها من شعرها «ستلبسينه اياه ايتها العاهرة! ستجعلينه يرتديه كما يجب... هذا الاميركاني!» وصرخت نيكول منتحبة «لا. ابدا» فزعقت الاخرى وهي تدفعها خارجا «اذهبي الى الجحيم اذن!» وكانت هي التي نزعت عن لودو ملابسه بوحشية كي تلبسه رداءً زرياً ذا اذيال قذرة مهترئة راحت تتهدل برخاوة حتى ربلتي ساقيه.

كان يرتدي ملابس الفتيات فقط. ماعدا السراويل الداخلية التي اعيد تمرير شريطها المطاطي اذ كانت رجالية صنعت من القطن

الازرق الخشن. وكان حافي القدمين دائما وقد حشرهما داخل نعلين من المطاط ماعاد يمكن ربطهما.

كان لديه لغرض الاغتسال ابريق ماء يومي ومنضدة زينة وحوض ماء ذو عجلات انتهى الى تحطيم الاجزاء التي تحافظ على توازنه. ولم يكن لديه ماعدا ذلك سوى مرآة مكسورة علقت على احد الالواح كان يجول بوجهه عليها فلايرى فيها غير منطقة واحدة: العينين الخضراوين اللتين كانتا تفتنانه حتى اليوم الذي حطمت فيه الخبازة المرآة بملقط للجمر.

كان يقضي حاجته داخل حوض يحوي رملاً واحياناً خارجه تعبيراً عن التمرد فكانت السيدة بلانشار تقول: «مقرف!» ثم تلوي اذنه وتجبره على تقبيل القذارة فكان المذنب يركع على ركبتيه طالباً المغفرة.

كان ينام في ايام الشتاء في قعر دولاب تحت الاغراض المعلقة متدثراً بمعطف عسكري. وكان ظله يسير معه في المساء فيفقد اعصابه وهو يحاول الامساك به. وعند حلول الربيع، كان يرص اكياس الطحين على الارض وينام امام الكوة المفتوحة ملتحفا قطعة قماش ناعمة تستخدم في كي الملابس وهو يركز كل حواسه في البحر وفي روائح المساء والليل. وكان الجزء الاكبر من قطعة القماش يتكوم دون وعي منه على ردفيه. لم يكن يخاف الظلمة لكن اي شيء كان بامكانه ان يقض مضجعه . فان سال خيط من اللعاب من زاوية فمه بكى وان مست يده ذراعه مصادفة اطلق صرخات رعب سرعان ماكان سكان الطابق الارضي يقمعونها بتوجيه ضربات متلاحقة الى السقف. وكانت تقرحات المعدة تجعله يسقط فريسة لأوهام الأرق. وكان يستطيع اذا مانام ان يصر اسنانه بقوة كانت تجعل السيد بلانشار يعتقد

ان السوس قد اكتسح جدرانه .

كان لودوفيك يهمس اكثر مما كان يتكلم اذ كان صوته الطبيعي يلقي الرعب في نفسه . وكانت اصوات الاخرين التي يجترها في ذاكرته ليلا تفقده صوابه والكلمات تعصف برأسه كحبات البرد **يجب ان يتعلم هذا الصبي وان يذهب الى المدرسة . . ثم لايمكنك تركه يتعفن في المخزن . . لا . . انه ليس غبيا . . ماما تقول انه سقط وحده . . ان شئت اخذته معي الى البيت بضعة ايام . . ماالضرر الذي يلحق بامك فالذنب ليس ذنبه . . دعي الايام تمضي . . الا تجدينه لطيفا . . ستنتهين الى التعلق به . . .**

وارتمى ذات ليلة على الباب وحطمه بركلات من قدميه فكبح السيد والسيدة بلانشار، بصعوبة بالغة، جماح هذا المتمرد الذي يسير ويتحدث في اثناء النوم ولايشعر بوقع السياط . وفي اليوم التالي، تابع الطفل باهتمام كبير اعمال الترميم التي اجراها ربّ الدار الذي لم ينطق بكلمة واحدة .

*

كانت ابنة الخال نانيت تحاول تليين رأي عمتها والحصول على موافقتها لنقله الى بيتها من جديد . كانت تقطن مزرعة خارج القرية وتأتي، مستخدمة حقها في القيام بزيارة اسبوعية واحدة، كي تتحدث اليه وتدفعه الى الكلام والى العد على اصابعه وتتساءل بقلق عما اذا كانت ماما نيكول تعامله بلطف اولا وعما اذا كان يحب «هه ايها الوسخ!» ان تغسل له وجهه . وكانت تحدثه بعد ذلك عن المسيح الصغير وعن الغاليين وعن ملوك فرنسا وعن مختلف المهن في التاريخ ثم تسأله فجأة إن كان يتذكر تلك اللحظات السعيدة التي قضاها معها فيما مضى . لكن لودو لم يكن يجيب بشيء .

ولكن ما ان تغـادر نانيت حتى تقـوم الخبـازة بمصـادرة السيـارات الصغيرة ومختلف الهدايا بحجة انه قد يخنق نفسه بها.

كان في تلك الايـام الطـوال الفـارغـة يتوهم ان مايحيط به من متاع محطم كنـوز عظيمـة: المقعد الاعرج والسلال المثقبة وماكنة الخياطة او قنـاع الغـاز الـذي كان يمعن في تحطيمه بسعادة محسوسة. وعندما كان يشعر بالتعاسة كان يقتلع شعرات من حاجبيه.

صنع لنفسه مغارة من قماش الجوت الذي يرتبط بالنسيان وعلقه في السقف وسـط الالـواح وراح يستخـدم حبـلا للصعود اليه كي يسترخي بكسل هناك طوال فترات بعد الظهر غير آبه بمضي الوقت وصانعا لنفسه ظلاما مجنونا منيعا ازاء ضياء الشمس.

كانت العنـاكب رفـاقـه اذ كان يراقبهـا وهي تنسـج خيوطها وتنصب شراكا لطرائد محلقة كان انعكاس الضوء يخدعها. كان يحب مداهمة هذه المعـارك الضـاريـة التي يشتبك فيها العنكبوت المفترس بالحشرة المفترسة التي لايعبر عن عذابها غير ارتعاش اجنحتها. وفي مساء يوم من ايام آب سمع وقع خطوات داخل مدخنة الموقد فدس يده تلقائيا ثم صرخ وكان طائر عقيب قد انشب منقاره ومخالبه في يده ثم حلق داخل الممر المظلم بعد ان افزعته الصرخات. نظر لودو الى ذراعه التي كان جرح يلتمـع فيهـا. ومنذ ذلك اليوم جثم حيوان ذو سواد حالك وصمت خيالي فوقه.

صرعت الحمى الطفـل طوال اسبـوع كامـل مسببة له كوابيس خرج فيهـا المعطف العسكـري من الخـزانة وهو يشتم ويتوجه نحوه بذراعين مفتـوحتين. لم يعـد يمس اسماك البوري ويجتهد منذ ساعات الفجر الاولى لرؤية عيني الطير الكاسر نصف المغلقتين الذي يبدو كأن الضوء يسمـره في مكـانه. وكان الطائر يخرج للصيد ليلا ويعود صباحاً حاملا

معه هياكل جرذان كان لودو يتفحص اسنانها المتشدقة في غيابه. وبعد انقضاء شهر مرّ في توافق صامت بين الحيوان والطفل، اختفى العقيب.

كان لودو يحفظ تفاصيل الافق عن ظهر قلب: سقف الفرن والطريق المحاذي لمحل الخبازة في اتجاه الحقول ونباح الكلاب ولون اشجار الصنوبر الذي يتبدل بتبدل الاشهر والسماء ذات الحال المتغيرة دائما والهواء المشبع برائحة الراتنج حينا وبرائحة الفرن المحروق حينا اخر. وكان ثمة جدول يشق الباحة في ايام العواصف وكان غالبا مايشعر ان الباب سينفتح وان هناك من يراقبه من خلال ثقوب الخشب من خلف الباب ثم ينسى.

كان يعيش دون نور كهربائي تحت رحمة ضياء الشمس الذي يبدده الشتاء في وقت مبكر جدا. وكانت الحرارة التي تنضح من السقف في ايام الصيف تضنيه لكنه كان يحب الافق الازرق والحقول المزهرة وسحر الاماسي الطويلة العذبة وصوت احتكاك الكروم العذراء الحمر بجدران الفرن واحتفال الكواكب المعدني ليلا.

وما أن بلغ الخامسة حتى بدأت السيدة بلانشار بتشغيله.

كانت تقتحم حجرته في الصباح الباكر حاملة وعاءً مليئاً بالبطاطا او البازلاء التي يجب عليه تقشيرها، وكان عليه ايضا ان ينشر في الايام الممطرة كوماً من الملابس الرطبة على حبل يشطر مملكته الى شطرين. كان يعلق المشابك وهو يفكر ويتأمل مشدات صدر معذبته الوردية ويميز منذ النظرة الاولى ملابس افراد العائلة الداخلية فيتنكر بها ويعضعضها كالحلمات ويفرح في ايام الصحو اذ يتعرفها وهي تتراقص بفعل الريح في الباحة وكأنها اصدقاء قدامى ينادونه من بعيد.

ولمح مساء يوم من ايام الشتاء نوراً ينبعث من الارض. أزاح التراب

المتراكم بين الالواح بمشط ثم دقق النظر فأذهلته رؤية المرأة الشقراء في الطابق الارضي وقد عقدت يديها على جانب السرير العريض الفارغ. ارتعش جفناه عندما اكتشف انها لاتضع شيئا على جسدها ثم راح يراقبها. ومنذ ذلك اليوم ولودو يراقب امه في الخفاء ويتأمل بتعاسة رقة ذلك الجسد العاري ويثور عندما تتوارى عن نظره في زاوية ميتة.

*

الله وحده يعرف انها لم تأل جهداً كي تقتله وهو في البيضة. استخدمت كل انواع السحر وجربت كل خدع الساحرات ـ خلّ الصبير وقشر البصل واطراف الفجل الاسود في الليالي حالكة الظلام.بل جرحت نفسها ايضا بملعقة حساء وهي تحاول التخلص منه وحدها. كانت امها تقول لها: «ارفعي ذراعيك، ارفعي، كي يختنق بالحبل». فكانت ترفع ذراعيها، الى أعلى ما باستطاعتها، مائة مرة في النهار، ومائة مرة في الليل كانت يداها تتشنجان على مساند السرير كي تعجل بعملية الخنق. وكانت ترى في كوابيسها مواكب من مشانق وردية صغيرة.

كان الاب يدمدم: «ياللعار! انها ماتزال طفلة! وهاهي الآن تحمل وغداً بين الاحشاء. سيسخر العمدة، والقرية كلها ستتهكم. سيقولون انها هي التي سعت الى ذلك. وقريبا سيلمحون كرتها!.. ياللعار... انها ماتزال طفلة!»

وكانت الام تزمجر: «يجب ان يموت. يجب ان يموت. لكن الله لن يشاء ذلك وسنصبح محط سخرية القرية بأكملها. ليكن الخبز الذي ارسم عليه اشارة الصليب كل يوم خبزاً دنساً يحمل طعم الخطيئة، خطيئة ابنتي. في احد الايام سيعرف الجيران انها حبلى وسيشار الى منزلي بالبنان».

وعنـدمـا حان موعـد العـودة الى المـدرسـة الـداخليـة، لم تذهب نيكول: «ذلك انها تساعدني في المحل حاليا . . » لكنها لم تساعدها في شيء على الاطلاق. كانت تلازم حجرتها بعيدا عن نظرات الزبائن المتطفلة التي تترقب انتفـاخ الفضيحـة تحت ثوبهـا. وعنـدمـا كانت تختلي بنفسها في حجرتها، كانت تربط بطنها بالسوط الذي جلبته امها من مخـزن الغـلال كي تجبـرهـا على الاعتـراف: «هيـا، قولي ايتهـا العاهرة! قولي لأمك انك عاهرة» . وكان ذلك اشبه مايكون باغتصاب ثان بضـــربـات سوط احتملتهـا على آثـار الاغتصـاب الاول. ارغمت نفسهـا على الصيـام فهـزلت في البـداية وظنت انها قد نجت فحمدت الله . وفي احـد الايـام اخـذت تتقيأ. الطفـل! . . كان هنـاك اذن! وذهبت كل جهودها سدىً لان الطفل ظل يكبر. كاد كل ذلك يدفع بها الى مهـاوي الجنـون ، هذا الجسم الـذي يقبع داخل جسدها وهذان القلبـان الحبيسـان وهـذه المبـارزة العميـاء التي تدور في حلكة ظلام الـدم. شتمت الـدخيل ولعنت نفسها وضربت جلدها الذي راح يتمدد وبكت ثدييها الجميلين اللذين تحولا الى برميلي حليب وامضت حتى يوم الخلاص ليالي كاملة وهي تجدف وتتوسل وتضع على بطنها اثقالاً يزيد وزنها على الخمسة كيلوغرامات او تلف جسمها كالمومياء باربطة مبللة من نوع «فيلبو» وتشدها بقوة حتى يزوغ بصرها.

وولـد اواخـر شهر اذار مساء يوم أحد، بعد صلاة التبشير وكان المطر قد توقف عن الهطول. ولدّت الخبازة ابنتها وهي تلعنها وقطعت الحبل بموسى حلاقة ذات مقبض ثم خرجت لابلاغ السيد بلانشار الذي كان يصطـاد في المينـاء . «انـه ولـد يارئيه . عليك ان تعلن الخبر». فبصق الخبـاز في المـاء «اذهبي وافعلي ذلـك بنفسـك. انهـا ابنتـك! ـ من المؤكـد انني لن افعـل فهؤلاء انـاس اراهم كل يوم في المحل وكذلك

العمدة لكن علينا ان نختار له اسماً». رفع الاخر نظره فرأى امامه زورق ارشاد تابعا للميناء وهو يناوركي يرسو ويحاذي الرصيف بجزئه الخلفي طارداً امـواجـاً نحو الشاطىء. وبانت مقدمة الزورق تحمل اسماً نقش على شكل رمز «لودوفيك ب. د. اكس ٧٧٤٣» وكان صاحبه قد روى له ان احد ملوك المانيا وهو مجنون بعض الشيء كان اسمه لدفك وانه وان كان لايحب الالمـان الا انه يحب المجانين لانه هو نفسه مجنون بعض الشيء. كان لدفك اسما جميلا لكن لودوفيك يبدو أكثر قرباً الى هذه الانحاء. وهكذا سمي مولود السفاح لودوفيك.

*

سمـع الطفـل وقـع اقـدام واصـواتـا ترتفع من بعيد. اصاخ السمع وأفلت رأس السمكـة الـذي كاد ينتهي من تنظيفه باظفر إبهامه، الوحيد الـذي لم يكن يقضمـه، ثم اخـذ وضـع التأهب. وكان يستطيع مراقبة مدخـل المخـزن من مرقبه من خلال ثقوب جعلها في قماش الجوت.

دار المفتـاح في القفـل فظهـرت نيكـول اولا متقدمة نانيت التي علقت معطفها المبلل على المشجب:

«انه ليس مطراً، بل طوفاناً! حسن.. اين اختبأ ياترى؟»

تمتمت نيكول بنبرة ضجرة:

«انه فوق كالمعتاد.»

فأعربت نانيت عن دهشتها بصوت خفيض:

«يـالـه من قرد. مثـل بريـوك تمـاما. كان يحب دائما ان يدفعنا الى البحث عنه».

ثم اضافت رافعة رأسها وكأنها لاتوجه الحديث الى احد:

«من الصعب على من هو في مثـل سنـه ان يتسلق. لابـد ان يكـون خفيف الحركة وقويا جدا».

اسقط لودو من احد الثقوب رأس سمكة بورية نظفها حتى العظم وكان يحتفظ بعشر منها تقريبا في مرقبه ويلعب بجعلها تعض اصابعة باسنانها الصغيرة القاطعة.

فقالت نانيت وهي تلتقطها:

«انظري . انه رأس سمكة . هاهي السماء تمطر اسماكاً الآن. ولكنني انا جئت كي ارى لودو، اللهم الا اذا حولت ساحرة ما طفلي الصغير الى سمكة بورية . . من يدري . . »

فقاطعتها نيكول بخشونة:

«وماجدوى ذلك؟ انت تعرفين جيدا انه هناك».

ثم تناولت مكنسة كانت مسندة الى الخزانة ووخزت بطرف قصبتها القماش الذي اتخذ شكل الجسم المختبىء داخله.

- «هذا يكفي الآن! انزل وقل صباح الخير لنانيت.

- دعيه . ان اراد النزول فسينزل بنفسه».

ومالبث لودو ان ادلى بحبل ثم انزلق الى الارض دون ان يلقي نظرة على زائرتيه.

«كم يحب جلب الانتباه اليه! هيا، مشط شعرك واغسل يديك كي تسلم».

فقالت نانيت وهي تضمه اليها في حنان:

«انتظري قليلا. سأهتم بك بنفسي. انه زري الملبس دائما . . يمكنك ان تلبسيه ملابس داخلية في الاقل».

فاغمضت نيكول عينيها وقالت:

«ماما لاتريد ذلك. تقول انه لايعتني بأشيائه.

- ولكنني قلت لك ولامك مائة مرة انني على استعداد لدفع ثمن الاشياء».

فقـدت نانيت السيطـرة على اعصـابها وهي تداعب وجه لودو الذي راح يشد نفسه اليها بقوة مبهورا بالسلسلة الذهبية التي تضعها حول عنقها.

«الا ترين شعـره المشعث؟ يبـدو كأنـه قد جزّ بالسكين. وكـذلـك الحذاء. انه حافي القدمين كالقرد في عز الشتاء. ثم ليس هناك تدفئة هنا.

ـ ولم؟ انه لايشعر بالبرد.

ـ وانت لايهمـك الامـر! ولكنـك انت رغم كل شيء.. لاادري! يجـب ان يتـعلم هذا الصبي وان يذهب الى المـدرسـة والى دروس التعليم المسيحي. لايمكننـا تركـه يتعفن داخـل مخـزن. لايكفي ان احضر مرة واحدة في الاسبوع!

ـ مامـا تقـول انـه معتـوه فهـو يرمي الاسماك في الباحة حين نمر ويضع المقـاعـد امـام البـاب ويـدفعها كي يمنعنا من الدخول بل انه يقضـي حاجته على الارض احيانا.

ـ ومـاذا في ذلـك؟ انـه تعس، هذا كل ما في الامـر! أمـا ان يكـون مخبـولا فمن المؤكـد ان الامـر ليس كذلـك. انظـري قليلا الى عينيه النابضتين بالحياة. بودي لو أعدته معي الى المنزل.

ـ مأما تقول اننا يجب الانفعل ذلك اذ سنكون مسؤولين ان حدث شيء ما كما ان لدينا مايكفي من المشاكل الان».

اطلقت نانيت سراح لودو الذي ابتعد نحو طرف الحجرة القصي ثم اخذ يحك الحائط بمسمار قديم وقد ادار ظهره لهما.

وأجابت نانيت:

«من المؤكـد ان ذلـك يسعـد امـك وسيسعـدها اكثر ان لزمت بيتي وامتنعت عن المجيء. تشـاء الصـدف دائما ان لاتكون موجودة عندما

آتي . ولكنني اود رغم ذلك ان اطلعها على ماافكر فيه» .

ارتبكت نيكـول واتخذت وضع من يسمح لشخص غريب بالتهجم على قريب له دون ان يقوم باي ردة فعل، ثم قالت متململة :

«حسن . . يجب ان انـزل الآن فابي ينتظـرني في المخبـز . تعـالي لتودعيني قبل ان تذهبي ولاتنسي ان تغلقي الباب بالمفتاح .

- لا . . لن انسى . . وهو . . الاتقولين له وداعا . »

فضحكت نيكول هازئة بغباء :

«نعم . . لك كل الحق في ذلك» واضافت :

«ولكن الامر سيان بالنسبة اليه» ثم استدارت دون ان تضيف كلمة اخرى .

فتحت نانيت باب الخزانة بعد خروج ابنة عمتها ودست انفها داخله .

- «كم مرة قلت لك ان عليك تهوية الحجرة في اثناء النهار» .

وتضاعفت ضجة احتكاك المسمار بالحائط .

«يجب الاتحتفظ برؤوس الاسماك هذه لان رائحتها كريهة . جئتك ببعض قطـع الحلوى فانـا اعرف انك تحبها . ولكن لاتأكلها كلها دفعة واحدة كما فعلت في المرة السابقة» .

ثم فتحت الكـوة على مصـراعيهـا فلفحت سيـاط الريح الممزوجة بالمطر هواء المخزن الفاسد .

«انك تسبب لي صداعا بمسمارك . انظر قليلا الى الغبار الذي تثيره» .

ولانـه لايـوجـد مقعـد فقد جلست نانيت على مسحاة ضخمة ذات لون رمادي لابد انها استخدمت في احد الايام في تفتيت خشب الموقد .

«هـذا يوم اخـر ترفض الحديث فيه اذن. اتذكر ماقلته لك اخر مرة؟ لقـد وعـدتـك ان انت تكلمت ان اصطحبك الى حديقة الحيوانات. ستشـاهـد هنـاك الفيلة والـزرافـات والنعـامـات. واذا اصبحت مهذبا سأشتري لك قميصا صوفيا».

كانت نانيت قصيـرة القامة بلامعالم واضحة في حوالي الثلاثين من العمـر كست ملامحهـا آثار مرارة كانت تزداد عاما بعد اخر، وقد فقدت ابنهـا الـذي مات في سنتـه الثـالثـة بسبب فيـروس اصيبت به في فترة حملهـا عنـدمـا كانت تعيش في المستعمرات. ومنذ ذلك الوقت وهي تخضع لعملية نقل دم مرتين كل عام.

«حسن. مادمت لاتـريـد ان تتكلم فسأقـرأ لك انا. ولكن يجب ان تكون مؤدبا وان تتوقف عن حك الحائط».

انقطعت ضجة المسمار ورفع لودو الذي كان يواجه الجدار، رأسه، فبرزت رقبته الحليقة وبدا تلميذاً يقضي عقوبة القصاص.

«بـامكـانك ان تنظر الى هذا الاتجاه يالودو فذلك لن يكلفك اكثر. ثم ان عليك ان تبتسم ايضا. ألا تبتسم مطلقاً لنانيت؟ هل نسيت كم حاصل جمع اثنين واثنين؟»

فقال لودو بصوت متردد وغير واضح:

ـ«اربعة..

ـ واخيرا؟.. هاانت ترى انك لست غبيا!

وكم عمرك؟ هل نسيت؟ عمر النضج..»

فدمدم الطفل:

ـ «سبعة..

ـ سبعـة ماذا؟ سبعـة اعـوام! عمـرك سبعـة اعوام. وفي السنة ثلاثمائة وخمسـة وستـون يومـا.. أتحب ان اكمـل لك قصـة المـرة السـابقة؟

أتذكر؟ ألاتريد ان تقول لنانيت أتذكر ام لا؟»

وببطء عاد لودو الى حك الحائط.

ماما تقول انه سقط وحده وانه الان مجنون.. ماالضرر الذي يلحق بأمك، فلن يحدث أي شيء.. كان صغيرا في المرة السابقة ولم يكن الخطأ خطأه في الواقع.

«ان كنت لاتتذكر فلابأس ولكن توقف عن حشر اصابعك في انفك والا اصبح بحجم حبة البطاطا.»

اخرجت نانيت من حقيبتها نسخة مصفرة من كتاب الامير الصغير* مستخدمة ورقة ملك الدنار مؤشرا للصفحات ثم اخذت تقرأ وهي تضع اصبعها على الصفحة وتبالغ في التشديد على النقاط وكأنها معلم قرية يستمتع بتذوق جمال قطعة ادبية مختارة.

«انت ايضا اتيت من السماء اذن! فمن اي الكواكب انت؟»

وسرعان ماانكشف لي شيء من سر وجوده فسألته: «هل اتيت من كوكب آخر؟» لكنه لم يجب وأخذ يهز رأسه ببطء وهو ينظر الى طائرتي «لااعتقد ان بامكانك القدوم من مكان بعيد على مثل هذه الطائرة..» ثم راح في حالة تأمل استمرت طويلا وأخرج خروفي من جيبه وأخذ يتأمل كنزه. أتعرف كم أذهلني هذا الاعتراف الجزئي عن «الكواكب الاخرى»؟ فحاولت ان اعرف اكثر: «من اين جئت ياعزيزي الصغير؟ اين يقع بيتك؟ والى اين تريد الذهاب بالخروف».

«أتذكر الخراف؟ انها في الحقول. انت تراها تعود مساءً برفقة الكلب الذي لايتوقف عن النباح عليها»

* قصة الكاتب الفرنسي الشهير انطوان سانت ايكزوبري. (المترجمة).

ثم استأنفت نانيت قراءتها:

«وفكر قليلاً ثم قال: مزية هذا الصندوق الذي اعطيتني اياه هي انه يصلح ان يكون له منامة في الليل» .

وسأل لودو:

- «وما الصندوق؟»

ثم اقترب منها دون ان يظهر على وجهه اي تعبير ومد عنقه كي يشاهد الرسومات في الكتاب.

«الصندوق مثل العلبة. انظر. انه يشبه الدولاب لكنه اصغر».

تأمل لودو دولاب تعليق الملابس التي عثر داخل جيوبها على مناديل ومشابك شعر نقلها الى جوف ثغرة تقع بين السقف والجدار ثم نظر الى باب المخزن المفتوح الى يمينه والى السلم الذي بدا قفصاً مظلماً.

- وماالخروف؟

- ولكنني قلت لك! انها في الحقول، الحيوانات التي تعود مساءً على درب المخبز».

تحرك لودو بخطوات هادئة نحو الدولاب ولمسه بحذر. فقالت نانيت برقة:

«نعم. انه يشبه الصندوق، نعم، هو كذلك».

«واذا أصبحت لطيفاً سأعطيك حبلا كي تربطه في أثناء النهار ووتداً نما. »

لم تنتبه الى ان لودو كان يقترب منها بعد ان قام بدورة سريعة مرّ فيها باب المخزن ثم اتكأ الى الجدار، بين منضدة الزينة وماكنة الخياطة

وقد عقد حاجبيه ووضع احدى يديه تحت ثوبه وراح يتظاهر بالاصغاء اليها بانتباه تام.

ـ «وما الوتد؟

ـ يستخدم الوتد في ربط الخراف. انها قطعة من الخشب نثبتها في الارض وهناك حبل ايضا. انك تحسن صنعا بطرح الاسئلة، سترى انك ستصبح ذكيا انت الاخر ايها الصغير المسكين».

وكان لودو يعصر مفتاح المخزن الذي سرقه، داخل كفه اليسرى المبللة بالعرق.

«ولكنك ان لم تربطه ذهب بعيدا وضاع..» فانفجر صديقي بالضحك من جديد: «واين تراه يذهب؟ ـ الى اي مكان. سيمضي سريعاً الى الامام..» وعند ذاك قال الامير الصغير بنبرة جادة: «لابأس، فبيتي صغير جدا!» ثم اضاف قائلا بصوت كئيب: «لايمكن للمرء ان يمضي بعيدا ان سار الى الامام..»

ـ «انه كتاب جميل يالودو، أليس كذلك؟ لم اعد اذكر كم مرة قرأته. ربما مائة مرة. نعم. قرأته مائة مرة. وفي كل مرة افكر في بريوك. لقد حدثتك عن بريوك وأريتك صورته. انه طفلي الصغير. هو الاخر رحل الى كوكب اخر. انني افكر فيه كل مرة..

ـ ولماذا رحل؟

ـ كان اميرا صغيرا مثلك. سنذهب في احد الايام لرؤيته هناك في الاعلى. ولكنه لايرمي الاسماك من النافذة ولم يكن يؤذي احداً وكان يقضي حاجته بنظافة».

قطب لودو جبينه وأخذ يوجه برأسه ضربات صغيرة مستاءة الى الجدار بينما كانت نانيت تنفض معطفها الذي كان مايزال رطبا قبل

ارتدائه بعد ان اعادت كتابها الى الحقيبة.

-«حسن. سأذهب الآن. كنت اود لو بقيت معك فترة اطول لكن جدتك لاتحب ذلك. اسمع! ألا ترافقني اليوم الى الباب؟»

ضمت نانيت الطفل الى صدرها واخذت تهزه وقد وضعت خدها على خده وراحت تغمره بقبلات كبيرة في اذنه وهي تردد كي تخفف من انفعالها ان رائحته ليست طيبة تماما، انت ايها الخنزير الصغير، وانه لن يفتقد الى ماء الكولونيا في المرة القادمة.

وبينما كانت تهم بالخروج وقد فتنتها العينان الخضراوان الذهبيتان الواسعتان اللتان كانتا تنظران اليها، احمر وجه لودو فجأة ثم بسط كفه المضمومة واسقط المفتاح المسروق بين قدميها.

*

كانت نيكول تصعد بين حين واخر كي ترى ابنها في المخزن. لم تكن تنطق بكلمة واحدة كما لم تكن تظهر اية مشاعر حب أو كراهية ازاءه. كانت تتجنب العينين الخضراوين ولاتنظر اليه الا مواربة وهي تقف على عتبة الباب متأهبة للخروج. وكان لودو ينبطح ارضا حين يراها الا انه كان يرفع اليها احيانا عينا وقحة فكانت تشيح بوجهها عنه.

كان وجه الطفل عصر ذلك اليوم يحمل بثورا حمراً راح يحكها بعصبية ويبدو متألماً وهو يتنفس بصوت مرتفع. انتظرت نيكول عدة دقائق ثم ماعادت تحتمل فهبطت لتوقظ امها التي كانت تنام القيلولة.

«الطبيب؟ . . وماذا ايضا؟ وماذا ذهبت تفعلين هناك؟ ليكن له مايشاء من البثور فلن يعيد اليّ ذلك فتاة شريفة منحتها كل شيء وضحيت من أجلها بكل شيء! كي أحصل على ماذا لقاء ذلك؟ ولد سفاح. نعم. . والعار! من الافضل لك ان تذهبي لمساعدة ابيك في المخبز».

وغاص رأس الخبازة في الوسائد من جديد.

انصتت نيكول الى صوت ارتطام قطرات المطر بزجاج النوافذ. منذ ثلاثة ايام والمطر لم يتوقف عن الهطول، منذ ثلاثة أيام والمطر لم ينقطع حتى تحول المنزل الى قطعة من الاسفنج واحتشى القلب من لزوجة الضجر. اجتازت عتبة الدار حائرة النفس وعبرت الباحة حاسرة الرأس وهي تقفز من بركة الى بركة. وما ان وصلت الفرن حتى عادت ادراجها الى المنزل. كانت سلة الطعام معلقة تحت السلم فوجدت فيها بعض المقانق وتفاحة وثمرة طماطم محشوة حملتها ووضعتها في المخزن دون ان تنظر الى لودو. التقط لودو التفاحة المتغضنة التي كانت تنبعث منها رائحة نفاذة حامضة حلوة تشبه تلك الرائحة التي تنتشر في الهواء في اثناء ارتفاع درجات الحرارة، الا انه لم يمس المقانق او ثمرة الطماطم المحشوة. وفي ذلك المساء، كادت السيدة بلانشار تدوسها بقدميها وهي تدخل فشتمت ابنتها من اعلى السلم، «لصة! حقيرة! افعى!» ثم اضافت ان اولاد السفاح لايسمّنون تحت سقفها! وانها أن ارادت ذلك فما عليها سوى ان تتسول او ان تصبح مومسا! ثم عادت بعشاء لودو الذي نام ببطن خاوٍ وقد وضع التفاحة تحت انفه. وعند انتصاف الليل وبينما كان النعاس يثقل جسمه، زرع اسنانه فيها بنشوة غريبة ثم التهمها.

انه لايتذكر الان انه كان يعيش في البداية في الطابق الارضي وانه كان يتعذب بين يدي امه وجدته التي كانت تجبره على ابتلاع زجاجات حليب اما حارة جدا واما باردة جدا. « ان مات فسيكون ذلك رائعا»، لايتذكر انهم كانوا يضربونه ويسحلونه ويكممون فمه وهو في مهده. «بهذه الطريقة سنحصل على الهدوء»، لايتذكر انه كان يسمع نيكول تهذي ليلا تحت ضغط الكوابيس كلما تذكرت الاغتصاب وانها

كانت تود لو ترمي به الى النــار . . . كي تتخلص من هذا الجـرح! ولا تلك الليلة التي كاد يموت فيها داخل الفرن عندما اضطر السيد بلانشار الى تطـويق ابنتـه بذراعيـه والى انتـزاع الطفل منها كي يمنعها من فتح الفـرن الـذي كان قد احـرق فيـه كل لعبهـا ودمـاهـا العارية حين علم بحملهـا «آه ايتهـا العـاهـرة! يمكنـك الان ان تلعبي معه دور الام الى الابد».

وبعـد هذا الحـادث احتفظت نانيت بلودو في بيتهـا وهي تأمـل في سرها انهم سيتخلون لها عنه في نهاية الامر. وقد قالت السيدة بلانشار في ذلك الوقت: «من المؤكد اننا لن نطالب به ولكن يجب ألا يراه احد وألا تأتي به الى هنا». وتمت عملية النقل في الليل.

كان في ذلـك الـوقت طفـلا خائفـا اخرس تقريبا لا يرد على الاسئلة ويختبئ اذا ما ألح احد عليه بالسؤال. كان في الثالثة من العمر ولكنه كان قادرا على قضاء ايام كاملة، فاغر الفم، في زاوية يختارها لنفسه. كان يحب التسلق على الـرفـوف وعلى الستائر ايضا وكان عندما يقترب منه احد يرفع ذراعه امام عينيه كالترس وكأنه يريد بذلك تفادي ضربات يتـوقعهـا. قضت نانيت اشهـرا كاملة حاولت فيهـا انسنتـه وتسليته كما جعلته ينام في سريرها عند شعوره بالخوف بل جلبت له ايضا من القبو عددا من لعـب بريـوك الـتي لم تكن قد تمكنت من اتخـاذ قرار بشأن اعطـائهـا او الاحتفـاظ بهـا. وفي نهـايـة الامـر، استطاع لودو ان يسير باستقامة وان يبتسم وان يتحدث على نحو افضل.

وبعـد مرور عام واحـد حضرت نيكول لتناول طعام العشاء في منزل نانيت دون ان تعلمهـا بذلـك مسبقـا وكانت تلك هي المرة الاولى منذ مغادرة ابنها. «ابي اوصلني. لديه بعض الاعمال في المزارع». وكان رد فعل لودو هو انه قاطعهما في البداية لكنه مالبث ان اقترب من الزائرة

الجميلة التي القت علية نظرة شخص غريب ثم تجاهلته طوال مدة الزيارة. عبثا حاول جذب انتباهها بحركاته واشاراته ورسومه التي عرضها عليها وبلعبته الموسيقية التي دورها اذ انها تصرفت كما لو كان غير موجود على الاطلاق.

وفي تلك الليلة عينها عثر عليه رجال الجندرمة على مبعدة كيلو متر واحد من ذلك المكان. كان يرتعش بخفه وردائه المنزلي فاقتادوه مباشرة الى المخبز، منزله الاصلي. وكادت السيدة بلانشار تنفجر غضبا امام العريف المتهكم كما امتلأت غيظا من ابنة اخيها التي اعتقدت نفسها اكثر ذكاءً من الاخرين ليقف واحد مثل هذا الدنيء في النهاية ويهينهم على مرأى من الملأ. قالت لابنتها التي استيقظت على صوت الضجة «هاهو سفاحك. هيا خذيه. انه لك!» كانت الساعة الثالثة صباحا وكانت نظرة نيكول خايبة. قالت للودو بنبرة لامبالية تقريبا «تعال» فتبعها على درجات السلم. وماكاد يتسلق ثلاث درجات حتى استدارت نحوه ورفعت يدها ثم دفعته بقوة الى الوراء فسقط على البلاط وغاب عن الوعي..

ومنذ ذلك اليوم وهم يحتجزونه في الطابق العلوي لئلا يدانوا بجريمة قتل بعد ماعانوه من جريمة الاغتصاب.

*

وفي صباح احد الايام، عند منتصف النهار تقريبا، لم يصدق لودو عينيه اذ كانت الشقراء هناك وظل ابتسامة يرتسم على شفتيها. كان ذلك كوقع ضياء الشمس على جسم انسان خرج تواً من نفق مظلم. كان مذهولا اكثر منه مضطربا ولم يكد يعرفها بطقمها الازرق بلون السماء وشعرها المنسدل المنثور على كتفيها وقد لمعت عيناها بوميض الذهب وبدت طويلة بحذائها ذي الكعب العالي.

«صباح الخير يالودوفيك. . هيا، قل لي صباح الخير. . »

ولم يجب اذ كان مشغولا بتذوق طعم تلك الرؤية العطرة كما لو كان يتذوق ثمرة لذيذة.

- «هيا، ألن تقول صباح الخير؟»

فتمتم:

- «صباح الخير.

- انك لاتتحدث كثيرا. لقد صرخت هذه الليلة ايضا. »

كانت تبتسم ووجهها المشرق يكاد يسيل رقة لكن عينيها الملتمعتين كانتا كقرصين باردين وصوتها الفظ يتناقض ومظهرها.

«ستنزل اليوم لتناول الطعام في الاسفل. لدينا ضيوف. ستقول صباح الخير بكل ادب وستبقى هادئا في مكانك. هل اغتسلت اليوم؟».

وتشممت الهواء في اتجاهه ثم قلصت عضلات وجهها.

«هيا اغتسل وتزين وافعل ذلك جيدا والا فحذار، وغير ملابسك ايضا».

راحت تنظر في اثناء قيامه بتنفيذ الاوامر الى اتجاه اخر وتفرغ على الارض حقيبة اخرجت منها ملابس صبي: سروالاً رمادياً قصيراً وقميصا من قماش المربعات وجوربين وحذاءً رخيصاً.

«هيا، اسرع رجاءً!»

اخذ الملابس واحتمى وراء المقعد هارباً من تلك النظرة التي كانت تجعل قلبه يخفق ثم خلع ثوبه وارتدى السروال والقميص على نحو مقلوب، الازرار الى الخلف كما اعتاد. فثارت ثائرة نيكول «انك لمجنون حقا. امي على حق. هذه الاشياء كلها تزرر من الامام. هيا، تعال هنا. . »

ارتبكت وعـانت كمـا عانى هو لاضطـرارها الى مساعدته في ارتداء ملابسـه بشكـل صحيـح وهي تشيح بوجهها كي تتفادى رائحته ونظرته ورفضت لمس سحاب السـروال من نوع «ايكليـر» الـذي كسـره وهـو يحاول سحبه.

كان السلم يلقي الـرعب في نفس لودو فلم يشأ التقـدم وفي رأسـه تعصف الكلمـات **ماما تقـول انه مجنون ماما تقول انه سقط وحده** . .

وأخيراً نزل وهو يسير الى الخلف ناظرا الى أعلى السلم وكأنه يتسلقه.

انها المرة الاولى التي يشاهد فيها السيد بلانشار عن كثب في حجرة الطعـام التي تقـع خلف المحـل. كان الـرجـل قد مشط شعره باعتناء ورفع الخصلات الجانبية الى قمة رأسه ودهنها كي تلتصق برأسه وكان ثمـة خط وردي يبـرز على جبهتـه من اثـر القبعـة. وجـده لودو ذا مظهر زاه ببـدلتـه السـوداء ذات الأزرار الثـلاثـة. امـا السيدة بلانشار فكانت منشـرحـة النفس الى حد بعيـد بشعـرهـا ذي التمـوجـات الاصطناعية وفستـانهـا المـورد وهي تصف الكـراسي حول المائدة وتتساءل بصوت مرتفـع عمـا اذا كان هنالك شيء ينقص المائدة. وكان هناك شخصان غريبـان يقفـان متكئين الى الجـدار وقـد التـزما الصمت: رجل تجاوز الاربعين اشيب الشعـر يرتـدي بدلـة رمادية ذات خطوط بيض ويضغط قبعتـه ببطنـه. وكـان اصبعـان من اصابع يده اليسرى مفقودتين. والى جواره، وقف صبي ضخم الجثـة في العـاشرة من عمره تقريبا وقد باعد مابين ساقيه وراح يمضغ علكة وينظر الى لودو شزرا. كان يحمل قوساً ويشد وسطه بحزام اسود تتوسطه جمجمة ويرتدي دثارا ضيقا على نحو ماكان «بوفالوبيل» يرتديه*.

---

* مغامر أمريكي اشتهر في المعارك التي شنها الجنرال كاستر على الهنود الحمر وعرف بخططه للقضاء على الثيران الامريكية. (المترجمة).

قالت نيكـول بارتبـاك : «هاهو لودوفيك. هذا السيد هو السيد ميشو وقد وافق على ان يكون أباً لك على نحو ما. . »

فقاطعها الصبي السمين:

- «هذا ليس صحيحا. انه ليس اباه. انه ابي انا.»

فقال الرجل ذو الاصبعين المبتورتين بنبرة جادة:

«اسكت ياتاتاف او اخرج للعب في الباحة».

فاسترجعت نيكول انفاسها ثم استأنفت:

«وهذا هو غوستاف. سيكون اخاك الاكبر. يجب ان تكون مؤدبا معه».

وبما ان صيغة الامر لم تكن موجهة اليه فقد اخرج المدعو غوستاف للودو لسانا ضخما لونته العلكة.

«لااريـد اخـا وهو ليس اباه. ثم لماذا يبدو اسمه وكأنه اسم زورق. يقولون في المدرسة انه كان المانيا ابـ. . . »

فزمجر السيد بلانشار:

«آن أوان احتساء شراب «الأبيرو». . هيا، قدميه لنا ياأماه».

ثم اضاف بنبرة ارق:

«قل لي ياميشو. اتريد ان تتحدث الآن أم بعد تناول المشروب».

وفي تلك اللحظة صرخت السيدة بلانشار:

«فستاني! . . انه مليء ببقع الحبر!»

فانبرى المدعو ميشو:

«هذه واحدة من مكائد تاتاف. لاتخافي. سيزول حالا. انها خدعة ياتاتاف. أليس كذلك ياتاتاف؟»

ثم تنحنح وتنهد والارتباك باد في عينيه:

«في الـواقـع. . على المـرء ان يغـامر احيانا وها انا ذا افعل مع كل

ماسيترتب على ذلك من نتائج» ثم اخرج من جيبه قفازا ابيض ارتداه «. . انه من اجل الاصبعين المفقودتين. ثم ان المرء لايجد وسيلة للحفاظ على نظافة يديه مع كل هذا الشحم في الميكانيك. حسن. . لم اعد شابا لكنني املك بعض المال، كما يقال. اما بالنسبة للودوفيك. . نعم، كالزورق، ويالها من قصة! حسن، انا موافق».

وكانت دهشة الخبازة كبيرة حين وضع يده ذات القفاز على كتف لودو.

- «هذا هو كل ماأردت قوله. . واريد ان اضيف انني سعيد بالزواج بالانسة نيكول».

كان صوته مخنوقا الا انه كان ينساب بسهولة وكأنه صوت ماكنة قديمة زيتت جيدا.

وصاح السيد بلانشار:

«عفوك ياميشو ولكنك تتحدث افضل من كاهن. آه! كنت واثقا تماما بانك وابنتي يمكنكما ان تنسجما».

ثم رشوا الخمرة الفوارة من قنينتين كان ميشو قد احضرهما معه فقرعت نيكول كأسها لكنها امتنعت عن الشرب اذ كان ذلك هو شراب «الفوفريه» ، شراب نحس كان مجرد النظر اليه يفتك بأحشائها وبروحها على الرغم من انقضاء ثماني سنوات.

وتعرف لودو الذي جلس الى المائدة متوسطا تاتاف وميشو طعم الخبز من جديد، ذلك الطعم الذي سبق ان تذوقه في بيت نانيت. تذكر ايضا كيف يستخدم ادوات المائدة لكنه كاد يختنق حين احس بمذاق الليمون الحامض بين اسنانه. واطلق تاتاف، دون ان يصدر صوتا، هواءً نتناً وقال وهو ينظر اليه: «لم افعلها أنا!».

استغرقت وجبة الغداء خمس ساعات بسبب صحن البحريات لكن

لودو لم يأكل شيئا بل اكتفى بمص الزغب الذي يبطن المحار.

وظل السيد بلانشار يؤكد كلما سالت عصارة السرطانات أنها تكون اكثر امتلاءً عندما تكون طازجة في حين يزايد ميشو بالقول ان السرطانات لاتكون دسمة دائما حتى لو كانت طازجة. وكان تاتاف يتذمر: «لااحب هذا، اريد بيضا ومقانق. ثم ان رائحة الولد الزورق هذا كريهة.

- هيا ياتاتاف. كن لطيفا». وكانت السيدة بلانشار تنظر الى كم ثوبها في وجوم اذ كانت البقع كبيرة قد زالت لكن ذلك لم يمنع ظهور هالات في مكانها. نعم. هذه السرطانات دسمة ولكن حذار، فقد تحمل مفاجآت حتى في موسمها اذ قد يشاهد المرء احيانا سرطانات سوداء الملاقط تحتضر في شهر حزيران لان الحرارة ليست مناسبة لها تماما وان وضعتها في المجمدة فان كمية عصارتها تقل. نعم قد تقل ولكنها تكون ذات مذاق جيد. لم نذهب بعد الى مطعم الزنوج في بيهاك ولأننا نتحدث عن الزنوج فقد شوهد اثنان في فندق الساحل. لا، ليس بين الطباخين بل بين الزبائن. يقال انهما متزوجان وانهما قاما بهذه الرحلة من ذلك المكان البعيد الى هنا كي ينالا قسطا من الراحة.

لم تنبس نيكول ببنت شفة طوال فترة تناول الطعام. ستتزوج رجلا كهلا لكنه الاغنى في المنطقة وهو مجنون بها على الرغم من وجود الصبي وسيعمل على توفير الراحة لها. ستستعيد اخيرا حريتها من جديد، وستنتقل الى قرية اخرى وستخرج وتتسلى. فمنذ ثماني سنوات وهي لاتجرؤ على الظهور! كان ابوها قد قال لها: «اعرفت الآن من هو ميشو؟» واجابت نعم. «انه مستعد للزواج بك، مع المعتوه».

وجاء ميشو في مساء احد الايام. كان سعيدا ومضطربا فتركهما الوالدان وحيدين. «من الصعب ان يكون للمرء صبي مثل هذا اذ يجب ان

يكون له بيت يؤويه». وقالت نعم. «انها حياة تافهة تلك التي نعيشها انا وتاتاف في الدغلية، وحيدين كأبلهين. يجب ان تكون هناك امرأة في المنزل». وقالت نعم. «والصبي ايضا. يجب تعليمه، يجب ان يصبح ولدا كبقية الاولاد مع ابوين كبقية الآباء! يجب ان يكون له بيت».

وحددت الخطبة و وموعد الطلب الرسمي في يوم الاحد اللاحق.

انتظر تاتاف موعد تقديم السلطة بفارغ صبر كي يضع فيها عددا من الذبابات المزيفة لكنه نسي مايريد ان يفعل حتى موعد تقديم الحلويات ثم عاود هجومه عند تقديم القهوة فوضع في الاقداح سكرا كاذبا سرعان ماتحول بعد ذوبانه الى عناكب فوسفورية. «هذه الفخذ لذيذة الطعم ولكنها ظلت على النار مدة طويلة للأسف. يجب ان تكون نصف مطبوخة. لااقول بدمائها بل نصف مطبوخة. اعلم على اية حال ان الفاصولياء من الحديقة والخبز مصنوع في البيت». وعندما كانت الاحاديث تفتر كان رنين الشوكات يديم حيوية الجو. واحيانا كانت ضحكة شيطانية حديدية مجنونة تصدر عن علبة الوجه الضاحك الخاصة بتاتاف تداهم الجالسين اذ كان يضعها بين ركبتيه ثم يفتحها وبراءة الملائكة على وجهه. وعند تقديم الاجبان، لم يستطع منع نفسه من تجريب قوسه عبر المائدة فتلقى لودو سهما ادمى عينه. «اخرج واغتسل عند مضخة الماء...»

سار لودو متلمسا طريقه داخل المحل بين مكان الدفع والرفوف الخالية التي شاهد فيها رغيفا شبه محروق كما شاهد الجرس المعلق بالباب ثم خرج كالثمل يستنشق هواء عصر خامل كانت اصوات رخوة تحوم فيه. وفجأة احس بانه لم يعد قادرا على التنفس وبأن الألم قد زال. مد لودو يديه، مأخوذا، نحو ذلك المنظر الذي عرفه بالغريزة،

مشهد البحر تحت قرص الشمس، حيث لاشجرة في الأفق، البحر الغزير الذي امتد فوق سقوف الميناء. كان البحر الشاسع قائما هناك، بجبروته، بين الافق وبينه وكان كصورة عين في شظية مرآة محطمة.

***

الفصل الثالث

بدأ ميشيل بوسار حياته صبي ميكانيكي في ميناء ألانغون. كانوا يسمونه ميشيل الميكانو ثم مالبثوا ان اختصروا التسمية الى ميشو. كان المصطافون يعهدون اليه بقواربهم في الشتاء وكان العاملون في البحر يحبونه مع انهم لم يكونوا ليثقوا به. كان ميشو يفحص حبال المراكب وينزح المياه من قعرها ويزيل الصدأ ويحرس المعدات. وبمرور الوقت، أخذ الناس يتعاملون معه بعدّه فناناً في عمله. وحين امتلأت خزانته بالمال فتح لنفسه دفترا للادخار وحسابا جاريا.

وماكان احد ليعرف على وجه التحديد من اين جاء.

وبعد مضي فترة قصيرة استطاع ان يحصل من الدولة على مرأب قديم لزوارق الانقاذ يقع في مدخل الميناء وحوله الى مسكن يعيش فيه. كان يقيم هناك بين السكك التي تنزلق عليها القوارب وسط معداته يطهو وحيدا القواقع بالجعة على سخان صغير. وكان يؤمن اضافة الى اهتمامه بالقوارب، خدمات التصليح داخل البيوت ويؤجر الدراجات الهوائية بسعر مرتفع جدا في الصيف. ومنذ عيد الفصح، راحت قطعة من قماش «الاتمين» تحمل اسم «ياتو» ترفرف فوق الادوات التي يحتاج اليها المصطافون خلال العطلة بدءاً بالاسرة الهوائية وانتهاءً باللحوم المعلبة. ومنذ ذلك الوقت لم يعد سكان المنطقة يشكّون في ان ميشو ذا العارضين الحليقين على نحو سيء قد

انتقل الى الضفة الاخرى، ضفة الاغنياء.

كان يتطوع ايام الاحد للعزف على الارغن في اثناء مراسيم الصلوات الثلاث، الا انه كان يعزف ايضا في حفلات الزواج ومراسم الدفن وكان مغرما بهذه الطقوس وكأنه خادم كنيسة ولد اصلا للقيام بهذا العمل. وفي احد الايام اقتضى الامر تغيير الارغن فتنازل له الخوري عن ارغنه القديم. اصلح ميشو المنافخ التالفة وزيّت ساحبات الشد وراح يعزف لنفسه الاناشيد اللاتينية وهو جالس بين مظلات البحر وقصبات الصيد.

وبعد فترة قصيرة، باع ميشو كامل معداته وبنى «الدغلية» خارج القرية وهي ڤيللا ذات طابع برجوازي تقع على الطريق وسط اشجار الصنوبر وتزدحم بمخازن المعدات الزراعية والادوات المنزلية لغرض الصيانة والعرض. كان يبيع مضخات الماء التي يذهب لنصبها داخل المنازل الا انها كانت تسرب الماء دائما فكان يعود لاصلاحها بالغراء. وكانت عملية الاصلاح تستغرق بعض الوقت، اذ يضع الغراء وينظر اليه نظرة ثاقبة كمن يمارس طقوسا سحرية. ولذا كان زبائنه يعتقدونه ساحراً.

كان في الثلاثين حين استسلم الى سحر موريسيت، ابنة اخ ساعي البريد ومالبثت الالسن ان لاكت سمعتيهما عندما ولد تاتاف بعد مضي ستة اشهر. ثم كان الحادث. ففي مساء يوم عاصف، بعد القيام بجولة في البحر، فقدت موريسيت التي كانت اول من يقفز من المركب، توازنها، فسقطت بين رصيف الميناء وهيكل الزورق. هرع ميشو لانقاذها لكن موجة عنيفة دفعت المركب فجأة نحو الرصيف فماتت موريسيت مسحوقة وفقد الميكانيكي اثنتين من اصابعه.

وتركز اسف سكان المنطقة في الاصبعين المبتورتين لاسيما ان

غيابهما حكم على الارغن بالصمت وعلى طقوس الصلاة بالضجر. لكن ميشو كان يفخر دائما ان في مستطاعه اصلاح اي شيء يدخل في مجال اختصاصه، سواء اوجدت قطع غيار ام لا. وبذا لم يلاحظ احد الفرق حين جلس الى الارغن من جديد ليثبت بذلك انه قادر على فعل كل شيء حتى بعد بتر اصبعين من اصابعه.

واضطر ميشو الى استقدام خادمة لتربية تاتاف. كانت ليليان في السادسة عشرة من العمر، فتاة قصيرة مكورة الجسم مجتهدة في العمل ذات صدر شديد البروز الى الامام.

«كيف الحال ياليليان؟ . . . » وعندما تجتاحه الرغبة كان يجد الوقت دائما للذهاب الى بوردو لرؤية النساء.

وعكر الارق صفو حياته. كان الميكانو يحلم بجسد يشده اليه ويلوذ به كما يلوذ المرء برصيف الميناء. آه. . نعم! كالزورق. ولكن الاهم هو ان يكون الرصيف سمينا ذا حبال قوية ورسو هادىء. . كانت موريسيت جافة جدا. . كقطعة من البسكت! بل انها لم تستطع حتى ارضاع تاتاف لانها كانت بلانتوءات! وهل يعقل ان تكون هناك امرأة بلانتوءات! لذا اعتاد الذهاب الى بيهاك بعينين جاحظتين وبحواس متوقدة. كم كانت مدورة ابنة الخباز، ابنة رنيه، مدورة كقرص الشمس في المناطق الدافئة.

وكان كلما تحايل وناور كي ينام، تعمق احساسه بأن الناس انما جبلوا على الشر وانهم مجموعة من اللصوص ومن المخادعين وان الصغيرة قد نالت جزاءها مع ابله ماكانت ولادته متوقعة. انها امرأة تتعمد الاثارة. هذا مايقولونه في بيهاك ولايتراجعون عنه قيد انملة! ولكن ذلك لايهمني، كان يردد في سريرته، فهذه الفتاة المثيرة تعجبني. . وحتى اغتصابها يعجبني. سآخذ الفتاة المثيرة مع

الاغتصاب وسآخذ الصبي ايضا كمكافأة. يالهم من انذال، لقد افسدوا عليّ كل شيء! ذلك ان ميشو كان يتعذب مرارة وحبا ويرفض ان يتخيل الصغيرة بين ايادي المغتصبين كما ينفر من فكرة انه لن يكون الاول.

كان يراها عصر ايام الاحد عند لعب لعبة الكرات المعدنية. يراها فقط. وكانت المنافسة النهائية تجمع دائما خباز بيهاك وميشو الذي كان يمنح الاول فرصة الفوز في اغلب الاحيان. وكانت نيكول تأتي وتجلس الى جانب امها صامتة حاسرة الرأس تنظر الى الاشياء بعينين غائبتين كأنها لاترى شيئا. وكان السيد بلانشار يتسلل دائما في النهاية هاربا مع عائلته.

راح سحر ميشو يفعل فعله فيه فأخذ يتردد اليه اكثر فاكثر ثم بدأ يشترك كل مساء تقريبا في لعبة الكرات المعدنية إذ يكون ميشو في انتظاره. وفي احد الايام وكان المطر يهطل غزيراً، حل شراب «الباستيس» محل لعبة الكرات وافتتح الميكانو ڤيلته «اسميتها الدغلية بسبب الادغال. انها تنتشر في كل مكان، المخازن تقع الى اليسار وهي تضم مكائن جديدة حديثة جدا وانا ابيع حتى في بوردو. اما الورشة فتقع خلف الدار».

كانا داخل حظيرة واسعة راح المطر يرشق سقفها وكان عليهما ان يصرخا كي يسمع أحدهما الاخر.

«انه مخبزي تقريبا! هذه هي آلة نثر السماد كما ترى وهذه حالبة كهربائية وتلك مضخة مياه تعمل بالضغط. وماذا عن ابنتك؟»

فقال الخباز بحذر:

ـ« ماذا؟..

ـ وهذه آلة سحق.. أهي ابنتك التي تأتي يوم الاحد برفقة زوجتك؟

- نعم. انها ابنتي.

-ولماذا لاتقول شيئا بتاتاً.»

حرك الخباز ذراع خلاطة الاسمنت وهو يفكر كما لوكان قد لاحظ فيها خللا ما..

ثم اجاب ببرود:

- «وما ادراني أنا. انها فتاة تتحدث متى تشاء وتسكت متى تشاء. يجب ان اذهب الآن.

- وهل صحيح مايقال يارنيه...»

كان الاخير قد عدل من وضع قبعته وقام بنصف دورة في اتجاه باب الورشة دون ان يلقي تحية الوداع.

-«أصحيح يارنيه ان لها صبياً مخبأً في المخزن؟»

توقف السيد بلانشار عن السير فاقترب منه ميشو مستأنفا حديثه وقال وهو يملأ له قدحا:

-«هيا اشرب قليلا يارنيه! كي نتحدث عن كل هذا.. هذا صحيح اذن!»

فأجاب الاخر:

- «نعم.» ثم تهالك على سياج حديقة معدني لف على شكل اسطوانة وأنزل ذراعيه بين ركبتيه.

- «وهل صحيح ان الصبي مخبول؟

- نعم. صحيح. كما يقال.

- اسمعني يارنيه. نيكول وهو اسمها على ما اعتقد، سأتزوجها انا وسآخذ الصبي ايضا، بجنونه».

كان صوت هطول المطر قد أتعب الاسماع. تشكلت حزمة من التجاعيد على جبين الخباز ثم اختفت. رفع السيد بلانشار رأسه بعد

ان سحب نَفَساً طويلاً، وحين رأى عيني الميكانو المتوسلتين ادرك انه لم يخطىء السمع فقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

ـ «يجب ان ندرس الامر يا ميشو، يجب ان نفكر في الامر جيدا».

*

وتم الزواج في منتصف شهر تشرين الثاني وكانت الاقدام تغوص في الثلج الذائب. ارتدت نيكول ثوب زفاف السيدة بلانشار بعد اجراء بعض التعديلات عليه وكانت نانيت هي المدعوة الوحيدة بناءً على طلب عاجل من العروس. ولم يكن للودو الحق في اي شيء عدا متابعة الاستعدادات التي رافقها الكثير من توتر الاعصاب، والاستماع الى اصوات اصطفاق الابواب والصرخات ومتابعة الحركات السريعة. ثم بقي وحيدا في المنزل الخالي.

وفي اليوم التالي، اصطحبه ميشو بالسيارة الى «الدغلية» فسارت الشاحنة الصغيرة في طريق ترابية عبر الغابة. كان البحر يتلألأ بين جذوع الاشجار بلون بلوري مفضض وكانت دمية على شكل ارنب ضاحك تهتز تحت المرآة العاكسة. «ماذا دهاك ايها الصغير، ألست على ما يرام؟» اذ دهش ميشو لرؤية لودو يرتجف كالريشة ويجفل في مكانه كلما زاد في السرعة.

لم يكن احد في استقبالهم عند الوصول. شاهد لودو آثار احتفال في المنزل: مائدة طويلة ذات غطاء ابيض ومناديل مجعدة وكأسا من الكرستال نشرت قطعة ثلج ذائبة مادة هلامية داخلها وزجاجات فارغة ربطت بشرائط لولبية.

وفي عشية ذلك اليوم كانت نيكول قد شاهدت الحجرة التي خصصها ميشو لابنها، بسريرها العريض كالقارب وبمنظر البحر الذي

تطل عليه .

ـ «كل هذا من أجله؟

ـ نعم . كل هذا من أجله . سيكـون الصبي سعيـدا هنـا . سيصبح ملكا لك وحدك، في كنف عائلة حقيقية . لن تعودي الى التشاجر مع ابويك بعد الآن بسبب الصغير وستتمكنين من الاهتمام به كما تشائين . »

ولم تنبس نيكول حينذاك ببنت شفة .

لم يحب لودو حجرته في البداية . كان يحن الى مخزنه ويجهل انه كان حرا في الخروج وفي التنقل حسب مشيئته . كان يشعر بالكآبة وهو يذرع هذه الارض الغـريبـة التي ازعـج ضيق مسـاحتهـا خطـواته التي اعتـادت مسـاحـة اوسـع . وظـل على ماكـان عليـه، مهاجرا في رحلة ساكنـة . لكنـه راح يرتشف البحـر بعينيـه ويغرف من حليب الام الوافر هذا . وفي الافق، كانت السفن تتلون بلون السماء وتبدو كأنها قد قدت من نقاء . **قالت لي نانيت لم ترتد في حياتك ملابس افضل من هذه . . نيكـول هي التي اعطتني كل شيء . . يمكنـك الآن ان تدعوها ماما . . انـه لايشبـه المكـان الـذي كنت فيـه في السابق . . نيكول لطيفة الآن وميشو لطيف وانا من يحمل طعام الافطار الى نيكول صباحا في صينية اضع فيها القهوة وقطع الخبز المطلية بالزبدة والادوية لذيذة هي قطع الخبـز بالـزبـدة . . لايمكنك تركه يتعفن في المخزن . . أرأيت عينيه النابضتين بالحياة، لا، انه ليس مجنوناً . . الارغن جميل حين يعزف ميشو ونيكول لاتحب ذلك .**

وعنـد العصـر، كان ينتظـر، كمـا اعتاد، سمك البوريّ اليومي وهو مختبىء وراء الستـائـر . «لـودو، تعـال لتأكـل قبـل ان يبرد الطعام . . » ويفـاجأ دائمـا كلمـا اتت امـه لمناداته . كان يجد الممر خاليا باستمرار

ويسمع وقع اقدام تبتعد هاربة. وعندئذ يضطر الى النزول ويجلس لتناول طعام العشاء بين تاتاف وميشو اللذين يتبادلان الحديث حتى موعد تقديم الحلويات.

- «كيف حالك ايها الصغير. انك قليل الكلام. ولكن لابأس، ستعتاد الكلام فيما بعد. لماذا لم يعد ابنك يتحدث؟

- لم يكن ثرثاراً قط..

- لابأس. فهذا الصغير الذي كان بلا اب ويعيش مع ام لاتجرؤ على حبه كما يجب، لديه الاثنان الآن، بل لديه اخ ايضا. ستدعوني بابا ايها الصغير!»

فاعترض تاتاف:

- «لست اباه.

- بل من المؤكد انني ابوه. انت تعيره اباك وهو يعيرك امه وبذا لاتكون خاسرا!.. اعترف ان الامر كان غريبا في البداية. كنا ثلاثة مع موريسيت. هي الاخرى لم تكن تتحدث كثيرا. لم نكن نسمع موريسيت تتحدث. كانت تشعر بالبرد في قدميها دائما. هل تشعرين بالبرد في قدميك؟.. كانت دورتها الدموية لاتعمل جيدا ولذلك ولد تاتاف سمينا. مشكلة الدورة الدموية هذه مشكلة معقدة. وعلى الرغم من ذلك كانت موريسيت هزيلة وكان يمكن رؤية الضوء من خلال بشرتها. وعلى اية حال..».

ثم ربت يد لودو الذي بدا ضئيلا جدا داخل مقعده وقد اضناه القلق وبهرته الاشياء التي تحيط به والطعام الذي يأكله وهؤلاء الغرباء الذين يستجوبونه وهذه الاماكن التي تنفتح ابوابها بكل حرية ونيكول المبتسمة والمتغيرة.

- «ولماذا لايذهب الى المدرسة؟

- سيذهب . انتظر قليلا وسترى . . سنسجلك ايها الصغير . . ولديك ايضا حلقة تُربط بمنديل الطعام الخاص بك تحمل اسمك».

فغمغم تاتاف وانفه في صحنه :

- «كاسم الزورق . .

- وسأعلمك كيف تطوي منديلك بعد الانتهاء من تناول الطعام و . . »

- قاطعه الاخر بحقد :

- «وكم سيبقون هنا؟

- سبق ان اخبرتك . سيعيشون معنا . بابا تزوج مرة اخرى . اخدم نفسك جيدا ايها الصغير . هذا الولد لايأكل . يجب ان تأكل . . . »

نظر لودو الى حصته من المقانق وقد وضع يديه تحت فخذيه وراح يختلس النظر الى نيكول دون ان يجرؤ على لمس الطعام على الرغم من جوعه . كان ينتظر ذهابها الى المطبخ كي يخفض رأسه ويتوارى خلف ذراعيه ثم يتخم معدته .

وبعد الانتهاء من تناول انطعام ، دفع تاتاف المائدة جانبا ثم حول حجرة الطعام الى شبكة من خطوط السكك الحديد وهو يصدر اصواتا مناسبة ودرّب له محوّل سير مستعدا لعمل اي شيء اسمه : لودو .

كان ميشو ونيكول يذهبان الى المدينة مساء كل يوم تقريبا لشراء بعض اللوازم ويعودان اليه بسروال جديد او قميص او حذاء وبمجلات مصورة . لم يكن الطفل يشكر قط غير انه كان يحب اخفاء الهدايا برزمها داخل دولابه . وكانت نيكول تسأله في أثناء العشاء : «ألم تجد شيئا على سريرك؟» لكن لودو لم يكن يجيب بشيء .

«ان كنت قد وجدت شيئا فقل .

- انه صندوق .

ـ وداخل الصندوق. ألم تجد شيئا؟

ـ نعم. وجدت.

ـ ماذا ؟

ـ صندوقاً».

وكـان ميشـو يغـادر المنـزل الى العمـل في ساعة مبكرة من الصباح فلايـراه احـد طيلة النهـار ثم يعـود متعبـا في المسـاء« كيف الحال ايها الصغيـر؟ . . أأمـك هنـا؟» فيـرد لودو بابتسامة في حين يدس الرجل ذو الاصابع الثماني قطع الحلوى في ياقته ثم يبحث عن زوجته اويجلس الى الارغن في انتظـارهـا . كانت قطع الحلوى مغلفة بالسكر ولم يكن لودو يحب ذلك.

❊

ازعج نشوء تلك الاسرة الجديدة تاتاف. لقد فقد امه وهويعد عطف الاب الآن ميزة من المستحيل اقتسامها مع احد.

كان تاتـاف سمينـا، سمينـا حقا، مبروم الجسم من قمة رأسه حتى اخمص قدميه ذا شعر مائل الى الشقرة وعينين زرقاوين نبهتين غارقتين داخـل طبقـات دهنيـة يحتـك لحم فخذيه وركبتيه بعضه ببعض عندما يمشي بخطواته التي تذكرنا بخطوات البطريق، يلهث للاشيء ويتعرق مصدرا رائحة نفاذة تعلن وجوده في كل مكان.

كان يحب الحيوانات لكنه كان حبا يزدهر في جو من الوحشية. كان يقطـع زعـانف سمكـاتـه الحمـر بالمقص ويصطـاد العظايا كي يثقب قلوبهـا اويستخـرج دمـاغهـا بدبوس قبعة ويجيع طيور السمان بعد ان يسمنها طوال اشهر. وكان يملك ارانب لايزيد عددها ولايقل عن سبعة دائمـا يبـدو انـه كان يحبهـا اكثرمن أي شيء اخر فينزهها على الطريق واحدا تلو الاخر وقد ربطها بشريط طويل وردي اللون. كانت الارانب

تحمل اسماء الاقزام السبعة وان حدث ومات احدها من البرد تلوى على الارض ألماً لكن ذلك لايمنعه احيانا من الانفراد بتيميد او بغرانشو في حجرة جانبية خاصة كي يعذبه بسكين. وكان ميشو يغمض عينيه امام قسوته هذه اذ ان فقد الام يبرر كل شيء.

كان تاتاف مغرما بالحلويات ايضا وقد حاز في الصف السابع اعلى درجة في كتابة انشاء يصف واجهة مخزن حلويات. وقد قرأ المعلم في ذلك الحين الفقرة التالية بصوت مرتفع:

«هاهي الكعكات تتوهج بأضواء لاحصر لها. فقد ارتدت الاصبعية والخفية متعددة الطبقات والفطائر بالفراولة والسيغن بالشانيتي والقهوية اللامعة وحلوى الالف المغلفة بالدقيق الابيض، ارتدت كلها حلل يوم الاحد وتطيبت بأطيب العطور فبدت كالمسيحيين في القداس، قداس السكر بصحبة الراهبات بقبعاتهن المصنوعة من القشطة والزبدة وكروشهن المقدودة من النستلة». وكان يعلك بين كعكتين العلكة المسماة «غلوبو» التي يخزنها في حوض اسماك اصبح مقفرا منذ ان عذب ساكنيه حتى الموت.

وراح تاتاف ينشد شيئا فشيئاً بأواصر صداقة غريبة الى لودو الذي كان اصدق صورة للضحية. فكان يعوضه احيانا بهدية عجيبة وهي علكة مستعملة. وفي صباح يوم الخميس، وهو يوم عطلة، كان يختلي الى نفسه في حجرات الطابق الارضي المخصصة للصبيين بصحبة مجلات ميكي ثم يخرج من النافذة بعد ساعة واحدة ويذهب ليصفر للودو الذي يظن الطريق مفتوحا امامه ثم مايلبث أن يجد الباب مغلقاً. أو يضع الفلفل على محارم لودو الصحية في الحمام او يختبىء في الخارج حتى يعتقد لودو انه اصبح وحيدا ثم يدفع الشباك ويصرخ «انه ليس أباك».

وبعـد انقضـاء عدة اشهـر، لم يعد في المنزل من مكان خفيّ على لودو اذ خبر كل اصواته وعرف جميع زواياه وانحائه بما في ذلك الورش والمخـازن التي اصطحبـه ميشـو لرؤيتها. كانت شرفة امامية معشوشبة تطـل على الشـارع وتمتد بمحاذاة جدار خفيض تزينه زهور الارطنسية والسـوحـر التي احمـرت تحت تأثيـر الـرياح البحرية. وكانت الحديقة الخلفيـة التي تمتـد حتى البـاحـة عبارة عن اكوام متشابكة من اغصان صنـوبـر وفـوجيـر وتـوت تفصلهـا عن الغـابـات محطـة قطـار مهجورة اكتسحت الاعشــاب ارصفتهــا. كان لودو يذهب هنـاك في لحظـات السأم كي يتخيـل نفســه قطـارا يرسـل الـدخـان او ليتشبه بانطلاقه نحو امـاكن سحـريـة مجهـولـة. واحيـانـا يتخيل انه قد انحرف بعرباته عن السكة واصطدم بكومة من التراب اعدت لردم الحفر.

وفي احـد الايـام، اراد تاتـاف ان يلعب لعبـة القطـار والهنود الحمر فتشبـه بهم بتعليق مجمـوعة من الاوراق بجسمه. تلقى لودو في بادىء الامر ضربات عدة متتالية وعنيفة عند خروجه من نفق قديم مهدم الا انه مالبث ان تدارك نفســه ومـاهي الا هنيهـة حتى تمكن سائق القطـار من تحديد جميع الكمائن. وبينما كان الهنود يشنون هجومهم اخذ القطار يزيد من سرعته تدريجيا على نحو لايدفع هندي الشيين السمين الذي يطلق صرخـات حادة الى التخلي عن مشـروع الهجـوم ليضـاعـف من سرعتـه بعـد ذلك حتى تخفت الصرخات ويسقط الهندي الاحمر على العشب وهو يلهث ويسعل وينفث دما.

*

«الجـو بارد هذه الليلة. كان بابـا يخـزن البطـاطا هنا في السابق!» دخـل تاتـاف حجرة لودو الذي كان يتهيأ للنوم وتسلل تحت الغطاء ماداً قدميه الى جانب رأس لودو دون ان يخلع جواربه.

«كان هذا سريري في السابق. ماذا تقرأ؟»

كان لودو يتصفح صور كتاب «السرطان ذو الملاقط الذهبية» حاملا الكتاب بالمقلوب ثم مالبث ان احس بالضيق بسبب ملامسته لساقي تاتاف.

«هـذا الكتـاب ليس جيدا. . لديّ كل مجلات تانتان وسبيرو. ابي اشتراها لي. ولديّ ايضا جميع مجلات ميكي».

وكان هدير البحر يسمع في عمق السكون.

«سيشتـري لي ابي في عيـد الميـلاد تلفـزيـونا، ايها الاحمق. هل سبق لك ان رأيت تلفزيونا؟»

فسأل لودو بصوت متثائب:

- «وماهو؟

- انــه جهــاز يمكن لك ان ترى فيــه كل شيء، يمكنــك ان ترى مبـاريـات كرة القـدم، يمكنك ان ترى المسلسلات، يمكنك ان ترى الصور المتحركة. . يمكنك ان ترى كل شيء في التلفزيون، الخوري يملك تلفزيونا وابي سيشتري لي واحدا مثل تلفزيون الخوري».

ترك تاتاف بضع لحظات تمر ثم قال:

«سأضعــه في غرفتي ولن يكــون لك الحق في لمســه. وعلى ايـة حال، فأنـا امنعـك من لمس ايّ من امتعتي. ابي هو الذي اشترى لي كل شيء، وانت. . من هو ابوك؟»

فقال لودو كما لو كان الجواب معروفاً سلفاً:

- «انه ميشو.

- لا. انه ليس ميشو ايها الكاذب.

- أمي قالت أنه ميشو.

- هذا ليس صحيحا ايها الاحمق. انت ابن الالماني. هل سبق لك ان رأيت اباك؟

- وانت؟» اجاب لودو الذي لم يعرف ماذا يقول او يفعل.

اعتاد تاتاف الذهاب الى حجرته كل مساء لاضطهاده بأسئلته عن نسبه وعن ابويه الحقيقيين وعن المكان الذي كانوا يعيشون فيه في السابق.

- «كنا نعيش في مخزن الغلال.

- ليس جميلا ان يعيش المرء داخل مخزن. واين ابوك الان؟

- انه في المخزن.

وكان هذا يحب ان يرى لودو ساقطا في فخاخ اسئلة لااجوبة لها.

-«وماهي مهنة ابيك؟

- في المخزن.

- وماذا يفعل في المخزن؟

- يغسل الملابس ويقشّر البازلاء.

- يبدو ان اباك يفتقد الحزم. ابي انا يملك جرارات وحاصدات يصلحها بنفسه وهو اغنى رجل في فرنسا الميتروبولية».

وكانت احدى حصص التاريخ عن المستعمرات قد ثبتت في رأسه تعبير فرنسا الميتروبولية ذا اللفظ المفخم.

«ولماذا تصرخ في اثناء الليل؟

- انا لااصرخ.

- امك تقول انك معتوه. وانا لااحب امك على اية حال».

كان ذلك القصف العشوائي المتواتر والمشبع بالضغينة يعذب لودو حتى انه يستسلم الى النوم فيصب تاتاف الماء على رقبته كي يوقظه.

«هل سبق لك ان ذهبت مع فتاة؟

- اين؟ .

- يالك من أبله . انا ذهبت» .

وكـانت مثـل هذه المحـادثات تنتهي عادة بمعركة بالوسائد . وما ان يغادر تاتاف حتى يستلقي لودو على الارض وينظر بعينين مفتوحتين عبر الظـلام . ينظـر الى ابيه في الافق ويرى رجلا من الخلف يرتدي بنطالا ابيض ويسير وحيداً على الطريق بخطوات محلقة . يمشي ابدا دون ان يبتعـد أبـداً ، يتبعـه ظله حتمـا . كان الجـو في تلك الليلة عذبـا معطرا برائحـة الـراتنـج . رأى عنق الـرجل وقد اضاءها نور الشمس ورأى ذراعي الـرجـل تتأرجحان جانبا وكان يكفيه ان يناديه كي يرى وجهه الا ان لودو لم يكن يعـرف اسمـه . وفجأة تحول الرجل الى خط صغير في الافق البعيد سرعان ما ابتلعه النوم .

*

وفي احـد الايـام ولم يكن الظـلام قد تبـدد ، دخـل تاتـاف حجرته وصاح به :

لقد حان الوقت . ستفوتنا الحافلة» .

وعندما لاحظ ان لودو قد عاود النوم بعد ان فتح عينين مثقلتين بالنعاس :

«انت ، هيا ، عجل . هل نسيت ان اليوم هو يومك الاول في المدرسة» .

ثم قلب الفراش بمحتواه على ارضية الحجرة وهو يقهقه ضاحكا .

«ستصحبـك نانيت . انهـا هنـا . ستـذهب انت مع الصغـار وانـا مع الكبـار . لدينـا هذا الصبـاح حصـة في الجمبـاز وانا أُعفيت منها لانني لست غبيا . »

ارتـدى لودو ملابسـه ثم نزل وكـانت نانيت في انتظـاره في المطبـخ

حيث كان تاتاف يتناول طعام الافطار.

قالت وهي تقبله:

«هيا يالودو. لديك مايكفي من الوقت لاحتساء قدح من القهوة فقط. يجب ألاتتاخر.

- واين سيارتك؟

- انا لااملك سيارة. وصلت بالحافلة. بيتي ليس ببعيد من هنا كما تعرف.

- انا قطار!»

واخذ لودو يحوم في المطبخ وهو يئز رافعا ذراعيه جانبا وكأنهما جناحا طائرة.

«مالك تقلد المهرج؟ يجب ان تكون هادئا اليوم.»

طلت قطعة خبز بالزبدة ثم جلست قبالته وهي تبتسم اوتفتح عينيها على اتساعهما ماان يصدر صوتاً عند المضغ. واستمرت تنظر الى الطفل دونما ملل وتداعب وجنتيه اللتين اصبحتا اكثر امتلاءً من ذي قبل رغم مايكسوهما من شحوب يدل على ايام الجوع الماضية. وكان تاتاف يراقبهما من بعيد وقد اغتاظ لهذه العلاقة الحميمة التي عدّها حقا من حقوقه وقد سلب منه.

واستأنفت نانيت بصوت منشرح:

«تبدو في صحة جيدة وشهيتك جيدة ايضاً.»

فسأل لودو:

«وانتِ؟»

فاغتمت نانيت وأجابت بصوت يشوبه الحزن:

«أنا؟ لا.. لستُ في حالة جيدة ولم اكن كذلك يوما. هيا، يجب ان نذهب الآن. انها الثامنة».

كانت الشمس قد أشرقت وكـان لودو يتخيـل نفسـه احيـانـا طائـرة شراعية في الشارع الرئيس الذي بدآ السير فيه منذ بضع دقائق.

قالت نانيت:

«امامنا كيلو متر حتى نصل المدرسة. والكيلو متر هو الف متر. غدا ستذهب برفقة تاتاف».

- وانتِ؟

- انـا؟ وضعي انـا مختلف... يجب أن أذهب لبعض الـوقت. لاتسـرع في السيـر فأنـا لاأستطيـع اللحاق بك. هذا هو السبب الذي سأذهب لأجله على اية حال.

- اين؟

- كي ارتـاح. آمـل انني لن اطيـل. سأذهب الى باريس، عاصمة فرنسا كما تعرف..

- هل تذهبين الى عاصمة فرنسا؟

- نعم يالودو. لاتمش سريعا. ولكنني سأكتب اليك».

وكانت نانيت ستذهب لاجراء عملية جراحية ثالثة.

-«وستعودين؟».

توقفت عن السير وهي تلهث ثم ضمت لودو بين ذراعيها.

- «تعـال ياصغيـري. تعال الى حضني. سنلتقي، سنلتقي كل يوم وسأعلمـك القـراءة والكتـابـة واشيـاء كثيـرة ويمكنك ان تقضي فترات العطل عندي ان شئت.»

فغمغم لودو وهو يفلت من بين ذراعيها:

- «لااريد.

- لماذا تقول ذلك. انه كلام غير لطيف».

ولم يعودا الى تبادل الحديث حتى وصلا المدرسة التي كانت عبارة

عن مبنىً هادىء ذي لون رمادي ينتصب في أرض بلا نبات وسط ساحة جرداء.

«هيا. سيدق الجرس. ليودع أحدنا الآخر الآن».

فتش لودو داخل جيب زيّه المدرسي الجديد وقال:

- «هاك». واهداها ثمرة صنوبر.

*

قال المعلم للطلاب:

«اقدم لكم لودوفيك بوسار. انه تلميذ جديد.. اجلس في المؤخرة يابني».

ونهشت الانظار لودو الذي لم يجرؤ على القيام بأي حركة.

«اذن نسمي الكلمة المرتبطة بالفاعل صفة..»

وعندما لاحظ انه لم يتحرك رفع المعلم احد حاجبيه وقال:

«قلت لك اذهب واجلس في المؤخرة يابني!..»

وبدا الطفل وكأن شللا قد أصابه.

استأنف المعلم وهو يرفع ذراعه كي يقطع الطريق على اولى القهقهات داخل الصف:

«أبك صمم أم ماذا؟»

فأجابه لودو بنبرة هادئة جدا:

- «وانت؟» حتى ان المعلم ظن أنه قد اخطأ السمع.

فقال وهو يغادر المنصة:

«هاهو ولد عبقري اخر» ثم سحب لودو من ياقته بعنف حتى أجلسه على احد المقاعد الشاغرة تحت المشجب قبل ان يعاود الجلوس على مقعده.

«اذن نسميها صفة، الكلمة المرتبطة بالفاعل بواسطة فعل الكينونة

او فعل معبر عن الحال. . اكرر بفعل الكينونة او بفعل معبر عن الحال. . أيمكنك ان تعيد ماقلت يابوسار؟»

كان لودويدلي لسانه خارجا وهو يدحرج حية صنعها من الطين الصناعي على المنضدة التي كانت تصدر صريرا فانفجر الطلاب بالضحك. توجه المعلم اليه بخطوات قوية ثابتة وقد وضع يديه خلف ظهره فنظر لودو، الذي انزعج بسبب رائحة الغبار الحار التي كانت تنبعث منه، في عينيه بأدب شديد.

«هيا يابوسار. ألانستطيع ان نعيد؟

ـ وانت؟».

فانقضت المسطرة المعدنية على اصابع التلميذ المازح الذي لم يرتعش تقريبا ثم راح يلعق اصابعه المتألمة.

وتوقف الطلاب عن التنفس.

«اتبعني».

وتبع لودو المعلم.

اصعد على المنصة.

فلم يتحرك.

ـ «ألن تطيع!»

لوى المعلم اذنه ثم اجبره على ان يجثو على اطرافه الاربعة ماما نقول انه مجنون ماما تقول انه سقط وحده انا من يضع الزبدة على قطعة الخبز. . . استسلم الى المعلم دون احتجاج ليضع على رأسه قبعة تمثل حمارا ثم ما لبثت ان انطلقت ضحكات ساخرة في الصف حين طلب العفو بمحض ارادته.

«نسمي صفة اذن الكلمة المرتبطة بالفاعل بفعل الكينونة او بفعل معبر عن الحال. اين الصفة حين اقول: لودوفيك بوسار جاهل

كالحمار؟»

وعند الخروج ضربه الكبار.

*

كان لودو يعد في ذلك الصباح طعام الافطار لأمه. يجب ألا يرتكب اي خطأ، كما يجب ان يكون دقيقا في كل شيء: طلي الخبز بالزبدة، وطريقة وضع الاطباق داخل الصينية، وشيّ لحم الخنزير، وحتى في درجة حرارة القهوة، وفي تقديم نصف كوب الماء الذي تشربه بعد دواء السارجنور. كان لودو يشعر بالفخر لهذه المهمة التي ينجزها صباح كل يوم خميس، وهو يوم عطلة في المدرسة. وكان ميشو هو الذي يتطوع لاداء هذه المهمة يوم الاحد بينما يعبر لودو عن غيرته باستياء صامت.

حمل الصينية بين يديه وانتظر بكل صبر ان يخلي تاتاف مدخل المطبخ «ستحمل اليّ افطاري الى الفراش انا ايضا. إقسم انك ستفعل وسأدعك تمر. .» ثم انتهى اخيرا الى التنحي ماداً له لسانه وسبقه حتى اسفل السلم «سأمد لك قدمي هنا كي تعثر ايها الغبي!.. ثم أنني لاحب امك».

وحين وصل الطابق الاول وضع لودو الصينية على الارض بحذر شديد ثم اصاخ السمع. كان الممر خاليا، فجلس القرفصاء وبصق في قدح القهوة دون ان يصدر اي صوت ثم سوى الرغوة بالملعقة الصغيرة التي مسحها بعد ذلك بباطن جيبه الذي سحبه خارجا، ثم دخل حجرة نيكول التي تقع في نهاية الممر.

«كيف حال الطقس في الخارج؟»

ارتفع الصوت من السرير كئيباً مثقلا بالنعاس.

فأجاب لودو:

«الطقس جميل».

وضع الصينية على منضدة صغيرة ذات قائمة واحدة ثم اغلق الستائر المعدنية ونظر الى الشعر الاشقر المنثور على الوسادة.

«تقـول دائمـا ان الطقس جميل ولكنني واثقة بأن هناك ريحا. انني اسمع صفيرها. هل لاحظت اننا معرضون هنا للرياح اكثر مما كنا في البيت، إذ ان المنزل يقع على مرتفع هنا.»

وسعلت نيكول:

«ساعدني اولا في الجلوس».

فاقتـرب لودو من السـريـر وتنـاول وسـادة ميشـو التي مدتهـا اليه امه ووضعهـا خلف ظهرها وتنسم خلال ذلك طيب البشرة الدافئة المشبعة برائحة الصابون.

«هـات الصينيـة الآن. اجلس على المقعـد. كيف حالـك في المدرسة؟ هيا، اجب.. انك قليل الكلام حقا ولكنني احب طريقتك في طلي الخبـز بالـزبـدة. كانت امي تتقن ذلك هي الاخرى. ماهذا؟ نبات الخلنج؟ أأنت من وضعه تحت الطبق؟»

اجاب لودو الذي احمر خجلا بايماءة من رأسه فابتسمت نيكول:

«وهـل هولي؟ تبـدو لطيفـا في الاقـل. ولكن الخلنـج ليس زهرة. الزهرة التي افضلها هي الوردة. هل سبق لك ان رأيت وردة؟»

بابـا تزوج مرة اخـرى.. سيكون لديك حلقة لمنديل الطعام... لايمكننـا تركـه يتعفن في المخـزن، أتشعرين بالبرد في قدميك... كانت دورة موريسيت الدموية لاتعمل جيداً.

- «انك لاتتحدث على الاطلاق. وكيف الحال مع تاتاف؟

انـا اجـده.. لاادري.. اجده غريبا. وانت؟ مذاق القهوة هنا لايشبه مذاقها في البيت.. لماذا تصرخ في اثناء الليل؟

ـ انا لااصرخ .

ـ بلى . . . انت تصرخ . ياله من امر غريب . . وفي منتصف الليل! ماما كانت تقول انك مخبول» .

اختلس لودو النظر بعينين نصف مغمضتين الى تلك المرأة المستلقية ، الى امه . كانت خارقة الجمال ، ثم تذكر تاتاف وافعاله الشريرة : انها ليست امك . انها اختك . بل هي ليست حتى اختك ، وانت لست اخي ، وابي ليس اباك . كلكم ضفادع وكلكم مخادعون .

كانت ترتدي قميص نوم زررته حتى العنق وكانت ذراعاها عاريتين تتوهجان بلون ذهبي طبيعي . والتمعت بقعة من القهوة في زاوية فمها . «الريح شديدة هنا . انه امر متعب حقاً ولذلك تجدني أصاب بالبرد باستمرار . كانت امي تعالجني بالمحاجم . أتعرف كيف تفعل ذلك انت؟ تشعل قطعة من القطن وتضعها داخل إناءاللبن ثم تلصقها في منطقة الظهر . تضع حوالى عشرة منها ثم تغطيها بالمنشفة وعندما تريد رفعها تدس اصبعك بينها وبين الجلد كي يتسرب الهواء داخلها . »

وهزت نوبة سعال جسد نيكول .

راح لودو يعبث شاردا بملاءة . السرير التي كانت تتدلى جانبا وقد وضع يديه بين ركبتيه . كان بوده لواستلقى لحظة في هذا السرير الواسع والفارغ تقريبا ، لوتكوّر تحت الاغطية الدافئة لحظة واحدة فقط ، هناك ، في الجهة الثانية حيث تكوم الغطاء متخذا شكل راقد غائب . سحب القماش نحوه برفق وتابع انتشار حركته على جسم امه ، في المكان المحيط بالصينية ، الا ان نوبتي عطاس افسدتا مناورته تلك فكاد القدح الذي اهتز ينقلب على الاغطية . وتظاهر لودو ان لايد له في الامر .

فقالت نيكول مستاءة :

«يـالـك من ملاك! هيـا. . ارفع هذه الصينية! لقد انتهيت. اذهب الآن الى المطبـخ واجلب المحـاجم. انهـا في مكـان ما داخـل علبـة مربوطة من الورق المقوى».

وحين بلغ الباب قالت:

«واحتفظ بالفتات، اذ سأقدمه للطيور».

انــا لااحب المـدرسـة ثم ان تاتـاف يذهب مع الكبـار. . المعلم يتعـرق مثـل الخبـاز ويصدر ضجة بفمه ورائحة فمه قبيحة انا لااحب القصص التي يرويهـا وهـو يضرب بمسطرته والفتيات اللواتي يجلسن في المقـدمـة يملكن صليبـا معلقا على المريلة واناالا املك اي شيء. جاءت المـديـرة قبـل ايـام فتخلى المعلم عن مكـانه لها وقالت هاهي نتـائجكم لهـذا الشهـر. . الاول روميـاك جيـد جدا يارومياك من حق ابـويـك ان يفخـرا بك وانا سعيدة جدا فقد استحققت صليب الشرف وعـاد روميـاك الى الجلوس ووقف جميـع ا الطـلاب واحدا تلو الاخر وكـانت المـديـرة تقـول لكـل واحـد منهم جيـد انني اغبـط والـديك واستلموا صلبانا وقلت في نفسي سأحصل على صليب انا الاخر لكن المديرة لم تعد في النهاية تقول: جيد بل سيء، وإجاباتك تستحق ان تكـون ممـاسح للارض اولى بك ان تشعر بالخجل. . كان الى جانبي ولـد صغيـر اشقـر يبكي لمـاذا تبكي، انني اخـاف ان اكون الاخير. ونـادت على الاشقـر الصغيـر وقـالت له:سيء جدا ولكنـه توقف عن البكاء رغم ذلك. . كان الجميع ينظرون اليّ. . وانا كنت سعيدا لان الاشقر الصغير لم يكن الاخير ثم ان الجالسين في الصف الاول كان لديهم صليب جميـل يداعبونه وحينها قالت المديرة الاخير بوسار قف يابـوسـار انني أرثي لحـال والـديـك يابـوسـار، ولاادري ماقالت لكن الجميع كانوا ينصتون وينظرون اليّ ولم تتوقف هي عن القول انه لأمر

مخجل وكان المعلم يهز رأسه مع لحيته . . وحينها اغمضت عينيّ ولم اعد اسمع شيئا وكان الامر كما لو كنت في المخزن .

اتى في المطبـخ على ماتبقى في قدح القهـوة حريصـا على وضـع شفتيه على الجهة التي شربت منها امه .

عثـر على علبـة الـورق المقـوى التي تحـوي المحاجم فوق خزانة الاواني وكـان في داخلهـا عشـرة محـاجم فمسـح الغبار عنها ووضعها داخـل الصينيـة التي كان قد افـرغهـا من محتـوياتها ثم صعد ثانية الى حجرة نيكول .

«لقـد تأخـرت . انـك لاتعـرف كيف تنجـز الاعمال بسرعة . ناولني الان فرشاة الشعر، القطن في الحمام . . »

واضطر الى النزول مرة اخرى بحثا عن علبة كبريت .

«ليس الامـر بيـدي اذ يجب ان أمشّـط شعري حالما استيقظ . هل فهمت؟ ضع القطن داخل المحجم واشعله ثم اضغط بقوة، لاتضغط بقوة كبيرة . قم بتجربة اولى على نفسك فسأكون بذلك اكثر اطمئنانا . »

أشعـل قطعـة من القطن المندوف داخل اناء قلبه بعنف على فخذه فاحتقن الجلد فورا وبدا مثل قبة برتقالية اللون تحت قطعة القطن المسودة .

«ادخل اصبعك تحت المحجم . . . نعم هكذا . . »

فسمع صوت امتصاص .

«حسن، استدر الان واغمض عينيك وسأقول لك متى تفتحهما» .

شعر بحفيف قماش وسمع السرير يصر .

وبعد فترة من الصمت قالت نيكول :

«لقد انتهيت» .

كانت قد استلقت على بطنها ولفت جسمها بملاءة ارتفعت حتى منطقة الخصر ومدت ذراعيها جانبا ودفنت رأسها في الوسادة بينما تكوم قميص النوم الى جانبها. نظر لودو الى الظهر العاري والى شعر بدنها الذهبي بين لوحي الكتف، الشعر الذي بدا عاريا هو الاخر. أسره المنظر فاعترته رعشة ولم يتمكن من اشعال قطعة القطن الاولى على نحو صحيح فأحرق نفسه.

قالت بصوت مخنوق:

«ألاتسير الامور كما يجب. ان كان الامر كذلك فتوقف في الحال».

الصق المحجم وشاهد جلدها يتشوه وكأنه طبخة تعد فوق نار غير مرئية. وسرعان ماأكمل لصق المحاجم العشرة مبعدا الخصلات الشقر كي يصل الى منطقة اسفل العنق وشعور بالنصر وبالفخر يغمره ازاء هذا العمل الذي انجزه باتقان جاعلا من نيكول ملكه مؤقتا.

قالت بصوت خفيض: «هذا افضل الان. غطها الان بمنشفة وانتظر عشر دقائق قبل ان تنزعها. هذه المحاجم تدفىء المنطقة الا انها تبعث الراحة في الجسم».

واعلن صوت شخير ضعيف انها قد عاودت النوم فخرج لودو باحثا عن المنشفة ثم عاد على اطراف اصابعه كي يتأمل انجازه: تلك الاواني العالقة كالزلنطحات وقطع القطن الحبيسة واقراص اللحم القرمزية وتلك البشرة الذهبية شديدة الحساسية ازاء البرد حتى انها تتموج ان لفحتها الانفاس.

تقدم بهدوء ومال بجسمه على السرير فأحس بجفاف في حلقه. بسط كفه كي يلمس، يلمس ولو مرة واحدة، امه النائمة. وما كاد يحس بدفء الجسد العاري يتسرب الى اصابعه حتى استيقظت.

«ماذا تفعل؟ أحس بالانجماد. هذا يكفي. والآن انزع عني كل هذا».

وما ان رفع المحاجم حتى بدا ظهرها كخشبة جزار.

«هيا، استدر واغمض عينيك».

قام بنصف دورة الا انـه ابقى عينيـه مفتـوحتين وراح يحـدق الى رسومات الاشجار على ورق الجدران وقلبه يخفق بشدة.

«حسن. والان اعـد الكؤوس الى مكـانهـا. انـك لمحظـوظ حقا فانت لاتصاب بالبرد البتة».

كانت قد انتهت من ارتداء قميص نومها ولاحظ لودو ان الزر الاعلى لم يكن مزرراً.

«إنني أُصـاب بالبـرد مع اول تيـار هوائي. عنـدما كنت صغيرة جدا كنت أصـاب بالتهـاب القصبـات المـرة تلو الاخـرى ولم يكن الطبيب يفهم سر ذلك. وصفوا لي بعد ذلك حمام الخردل الا انه كان يحرق. لم احب ذلـك. كان اشبـه مايكـون بالنشـوق وكنت احس بالاختنـاق تحت المنشفـة. ربمـا كنت في التاسعة او العاشرة في ذلك الحين.. كم عمرك الآن؟

ـ خمس سنوات.

ـ لا. عمـرك ليس خمس سنـوات ايهـا الاحمق! عمرك الان ثماني سنـوات، ثمـاني سنـوات.. مرت ثمـاني سنوات. واصبحت نبرة صوتها كسيرة وهي تنطق بالكلمات الاخيرة.

«.. كانت درجات الحرارة مرتفعة جدا في ذلك الصيف. لم يكن باستطـاعـة المـرء السير في الشارع اذ كان القار يكاد يخلع من مكانه. ثماني سنوات!.. كنا نسبح في البحر عشر مرات في اليوم ولانتخلص من الشعور بالحر. كنت اذهب الى الساحل مع ماري ـ جو. يبدو انها

تعمل الان بائعة في المزاد. لم تهب الريح أشهراً كاملة ولم يكن هناك ولانسمة واحدة. كنا نترقب الرياح ونتناول المرطبات في قهوة الشنال. . انظر اليّ قليلا؟».

وما ان رفع لودوعينه كي يلتقي نظرات امه حتى انهارت على الوسائد فجأة وقد اكفهر وجهها وانتفخت اوداجها وكان يمكن ملاحظة انها كانت تضغط بقوة على اسنانها داخل فم هجرت شفتيه الدماء.

ثم قالت بصوت لايكاد يُسمع:

«اغرب عن وجهي».

* * *

الفصل الرابع

أَغرق الشتاء الدغلية في جو من الخدر ومن الخمول وحل محل اندفاع الفترات الاولى وحماسها ايقاع حياة رتيبة تعيشها خلية عائلية جرفتها العادة. انهمكت نيكول في البداية في اداء واجباتها المنزلية فاحرقت بعض الضلوع وطبخت سهوا سوفليه بالجص، ونسيت على النار مغلى الغسيل الذي عثر عليه فيما بعد وقد ماع، وكسرت صحونا ثم تخلت للودو عن جميع اعمال السخرة هذه. اما مشكلة الطعام فقد حلت عن طريق اقتناء برّاد ضخم اشترته دون استشارة ميشو. وكان هذا الاخير يعجب دائما من رؤية ابن زوجته يعمل على الدوام.

اما امه فكانت تجيب «من الافضل ان يجد مايشغل به نفسه فهو لايطلق الصرخات في هذا الوقت».

وكان نواح لودو الليلي يناقش دائما في النهار فيقول ميشو. «ان كان به مسّ فيجب ان يذهب الى الطبيب».

ولم تكن نيكول تتردد في ايقاظه وايقاظ تاتاف كي يكونا شاهدين على هذه الظاهرة. فكان الثلاثة يقفون بملابس نومهم في حجرة المعتوه ينظرون اليه وهو يطلق صرخات نواح طويلة مستلقيا بكامل ملابسه على الارض. «كان يصرخ بقوة اكبر في المخبز بل كان يصر اسنانه ايضا. .» ثم تهز ابنها «الايكفي هذا الآن؟ موسيقاك ليست جميلة! اصمت. .» فينتفض لودو ويقول تاتاف: «انه لايزعجني.

صرخاته اقل قوة على اية حال من شخير بابا . . » .

وشاء ميشو ان يقيم حفلا في عيد الميلاد على شرف زوجته الجميلة وابنه الجديد واراده احتفالا حقيقيا . ابدت نيكول سعادتها في بادىء الامر ثم مالبثت ان تراجعت . لم تكن تريد دعوة ابويها فلماذا التبذير اذن؟ وسأل ميشو عن سبب عدم مجيء عائلة بلانشار لقضاء عشية العيد مع العائلة . «ماعادا في سن يسمح لهما باحتمال المشاكل!»وعندما طالب ميشو بايضاحات اكبر انفعلت وقالت انهما لن يحضرا الى «الدغلية» ابدا وان اباها لم يعد يلعب لعبة الكرات المعدنية وان رؤية لودو تثير اعصابهما .

ـ أتريدين القول انه يجب ألايكون موجودا؟

ـ لن يقضي ابواي عيد الميلاد بصحبته على اية حال . ضع نفسك في موقفهما .

ـ اذا كان الامر كذلك فماعليهما سوى البقاء حيث هما الآن .

وكان هذا هو اول خلاف يستحق الذكر بين الزوجين الجديدين . اوصى ميشو باحضار شجرة تنوب من بوردو كانت طويلة جدا حتى انها ارتطمت بالسقف حين نشرها في احدى زوايا حجرة الطعام ثم امضى ساعتين في تزيينها بالبرد الصناعي وبالمصابيح الصغيرة وببعض النباتات التي لُفت داخل اوراق فضية . اما لودو فقد تأمل بفم فاغر هذه الشجرة المزينة التي قال ميشو انها صنوبابا نويل الذي يهبط من مدخنة الموقد مرة كل عام ليغرقه بالهدايا .

وفي عشية اليوم العظيم ، حمل طعام الافطار الى امه واراد الجلوس : «اشعر بالتعب ، اذهب . . » وماان خرج حتى التقطت الزهرة الصغيرة التي وضعها داخل قدح مع قليل من الماء وقلبتها فيه ثم اغرقتها . «هكذا كان داخل بطني . ارفعي ذراعيك ياابنتي . ارفعيهما

اعلى ما تستطيعين!» .

وكما هو الحال في كل عام، صاحب ميشو قداس منتصف الليل بارغنه ثم دعا الخوري لتناول عشاء عيد الميلاد، تعويضا عن عدم حضور والدي زوجته. فسأله تاتاف: «لماذا قلت في عظتك اذن أن عيد الميلاد ليس مجرد وليمة فاخرة؟» فاعترضت نيكول التي كان يلفها صمت مستاء. وعند تناول الحلويات، جردت شجرة التنوب من الهدايا فحصل الخوري على ظرف وحصلت نيكول على سلسلة ساعة ذهبية وحصل تاتاف ولودو على لعبة خشبية لكرة القدم ولم يحصل ميشو على اي شيء. واهدى تاتاف لودو علبة نستلة اختفت منها معظم قطع الحلوى وحل محلها هيكل عظمي صغير من البلاستك الابيض.

*

كان تاتاف يتظاهر عموما بتجاهل لودو خلال الفرص في المدرسة وكان الاخير لايشعر بالضجر كثيرا. كان يلهو وحيدا بطائرة ذات محركين يتخيلها وهو يحرك امامه خيوطا بحركة دائرية اويراقب الفتيات وهن يلعبن لعبة القفز بالحبل ويترنمن بالاغاني. كان يسرق بقايا الطباشير من زوايا اللوحة السوداء كي يرسم خطوطا ملتوية على الجدران الاسمنتية اويشارك في مسابقات لعبة الكعاب* مع الفلاحين الصغار الذين كانوا يراهنون بقطع الحلوى التي يجلبونها معهم لتناولها خلال الفرص، ثم يدفعون له، ان فاز، ضربات من قباقيبهم. وكان يجلس في مطعم المدرسة بين فتاتين دائما ويذهلهما بشهيته الكبيرة وهو ينقض على بقايا العدس البارد في صحنيهما.

* لعبة يمكن لعدة اشخاص الاشتراك فيها وتقتضي رمي عظام صغيرة الى الاعلى ثم التقاطها بظاهر اليد. (المترجمة).

كان تاتاف ينتظره عصراً، على الطريق، بعيدا عن الأنظار فيسلكان طرقا تمر عبر الحقول تقودهما الى الميناء حيث يحلمان وهما يسيران بمحاذاة السفن الراسية على الرصيف. وكان تاتاف يخرج من حقيبته خيطا يصطاد به اسماك البوريّ السمينة ليفقأ اعينها بغطاء قلمه قبل ان يعيدها الى الماء.

لم يكن تاتاف قاسيا حسب، بل كان يميل الى اللعب بالفضلات ايضا. كان يصطحب لودو خلف الورش مرة كل اسبوع حاملا معه قدرا شدّ الى ذراعها عصا طويلة كي يحرك بها البالوعة بحجة منعها من ان تطفح ويحتفظ بمجموعة من الفضلات الجافة التي يجمعها من اجناس مختلفة من الحيوانات. كان يصطاد حشرة الجلالة وهي حشرة من ذوات الاجنحة المغمدة تتميز بلون اسود براق جميل وتعيش في روث الابقار. وكان تاتاف ولودو ينبشان فضلات البهائم بملعقتي حساء اعتبارا من شهر اذار، بدقة من يبحث عن الذهب وسعادته. وعند المساء، يعلق تاتاف غنائمه حية بالدبابيس على لوحة الفضلات وهي لوحة كبيرة من الورق المقوى الابيض ملصقة بالجدار يمكن للمرء ان يشاهد عليها كل جنس من الاجناس الى جانب اسمه اللاتيني. وكان تاتاف يحب ايضا تحنيط حشراته المختلفة: الطاحنات واللاسعات واللحاسات والمصاصات ويدأهم بنت وردان داخل الفرن الدافىء ويغريها بقطع من الجبن المبروش ثم يجمد غنائمه المصنفة بدقة باستخدام رذاذ الشعر.

*

كان لودو يتردد بمفرده الى دروس التعليم المسيحي التي كانت تنظم عصر كل يوم خميس، في الكنيسة التي تقع في منتصف الطريق بين القرية والدغلية ويردد مع نفسه افعال الايمان والندامة ويخلط

بينهمـا. الا انـه لم يستطـع قط حفظ صلاة «ابانا الذي في السموات» عن ظهر قلب. وعلى العكس من ذلك كان يلقي صلاة «السلام عليك يامـريـم» بنـفس واحـد. امـا صلاتـه المفضلة فهي جدول ضرب مضاعفات الاثنين الذي كان يردده مساء كل يوم قبل ان ينام.

كان يشاهد النساء العجائز في الكنيسة يشعلن شموعا مرتجفة فوق لوحة التثبيت التي زُرع فيها عدد من المسامير وأحيانا كان يزين مايتبقى منهـا فارغـا وهـو مليء بالحمـاس لهذه العليقة الملتهبة * التي لم تكن تكلفه اي شعور ديني.

وكـان يعـرج على القـريـة وهو في طريق العودة ويصل حتى واجهة محـل «بازار دوباري»، مخزن ميشو القديم، ليتأمل الساعات المتألقة وخنـاجـر الغـوص التي علقت بشكـل متـواز بخيوط لامرئية. وكان ثمة رصيف ذو انحـدار بسيـط كان يستخدم سابقا لدحرجة قوارب الانقاذ، ينغمر جزئيا بمياه البحر خلف المحل ويستقبل على شكل دفعات الق انوار الميناء الحمر.

وعندما كان يصل المنزل بعد هبوط الليل كان ميشو يتوقف قليلا عن العـزف وتتـوقف نيكـول عن احتسـاء الخمـر وحدها لتنبه ابنها الى انه لايعيش في فنـدق وان عليـه ان يتخلق بشيء من الادب ومن الاحترام وان عليه تهيئة المائدة قبل صباح الغد وان غسالة الملابس شكت مرة اخرى من ملائه وانهم سيضعون له حفاظات كالطفل الرضيع ان استمر الحال كذلك.

وكان تاتاف يسأله ـ «اين كنت؟» فيجيب لودو :

ـ «كنت في مخبئي ـ إن اطلعتني على مكانه اريتك غواصتي. ـ هذا ما

---

* حيث تراءى لموسى. (المترجمة)

تقوله دائما ولكنك لم ترني اياها قط لم اعد اصدق بوجود غواصتك» .
وكان تاتاف يوهم لودو بانه يملك قاربا خياليا كان يدعي صنعه بالتعاون مع عدد من اصدقائه وان بامكان القارب ان يمخر عباب البحار وان يرحل الى النجوم ـ «انه اول غواصة طائرة صنعت حتى الآن وهي تحوي ازرارا تحمل اسماء الكواكب . ماعليك سوى الضغط على الزر كي تنطلق ـ ومالونها؟ ـ انها غواصة كالحرباء تتلّون بلون المكان الذي تهبط فيه» . وكان تاتاف ، كلما اراد الخروج للتجول مع اصدقائه تاركا لودو وحده تحدث عن اللمسات الاخيرة على الغواصة التي يصنعها .

«لايمكنني اصطحابك معي والا أفشيت السر . . ـ واين هي ؟

ـ هناك ، بعيدا في الغابة ، في مغارة كبيرة ، داخل ممر تغمره المياه يتصل بالمحيط . يجب ان يكون المرء حذرا داخل المغارة بسبب الوحوش . » فيتوسل لودو ـ «وما الوحوش؟

ـ هناك اسماك قرش على هيئة فيلة لديها زعانف وخرطوم على ظهرها واسنان حول اعينها وبامكانها ان تقضمك باجفانها وهناك ايضا قطط كالسرطانات في اطرافها الامامية كلابات» . وفي احد الايام اراه محول سرعة قديم يستخدم في الدراجات الهوائية وقدمه له على انه اعجوبة . «لاتلمسه . . سيكون هذا محرك الغواصة . سنحتاج الى الف مثله» . ثم اسمع لودو النغم العذب للمسننات التي زيتت جيدا .

«انه جميل أليس كذلك ! ان رتبت فراشي كل صباح حتى شهر نيسان اعطيتك اياه» وأبرمت الصفقة . وهكذا احتفظ لودو بالمحول وظل يحمله اياما متتالية ولم يتخل عنه حتى في اثناء الليل وهو يحلم بنوتيلوس * وبالرحلة بين الكواكب . وراح لودو يرتب حجرة تاتاف كل

---

* اول غواصة ذرية صنعتها الولايات المتحدة والاسم مأخوذ من احدى قصص جول ڤيرن . (المترجمة)

صباح ولعابه يسيل امام حوض الاسماك الممتلىء بقطع اللبان من نوع «غلوبو». وفي احد الايام اراد احد لاعبي الكعاب ان يذهله فصرخ به بعنف:

«هـذه الغواصة مجرد خدعة. لدي واحد منه في دراجتي. ماعليك سوى ان تراه». وفي مساء ذلك اليوم، عند العشاء، اغتنم لودو الفرصة وولـج حجـرة تاتـاف ووضـع المحـرك داخـل صحن الخـائن المليء بالعصيـدة آمـلا بهذه الطريقة أن يجعله يشعر بالخجل. ولكن يبدو ان الآخـر ارتـاب في المكيـدة فتنـاول من العصيدة ماكان يحيط بالشريط المسنن الذي ظل مغمورا داخل الصحن.

*

كانت السيـدة بلانشـار تتـردد مرارا الى الـدغليـة وتصل بحافلة بعد الظهر. «كيف حالك؟ وضع نانيت سيء هذه المرة. لااحد يؤكد انها ستنهي الشتاء. اتصل الجراح بأبيك وطلب منا الحضور. لمن سأترك المحـل؟ ثم انني لم اذهب قط الى باريس. طلب الجـراح يعني انهـا تحتضـر. لاتبـدين على مايـرام. . » وكـانت تلمح دائما الى ان نيكول تقضي على نفسها مع هذا الزوج العجوز «كان هذا الزواج فكرة ابيك وانت تعـرفين كيف يكـون عنـدما يقتنع بفكرة ما. . ثم، أليست الحياة صعبة مع هذا المجنون؟. . . » فقالت نيكول التي لم تعترض بشدة، انـه ليس مجنـونـا وان الامور تسير على مايرام. «لولم يكن مجنونا لما كنت بهـذا الـوضـع. ابـوك هو الـذي يرفض المجيء الى هنـا مادام موجـوداً! انت تعـرفين كم هو عنيـد. وانـا لااظنه مخطئا على اية حال» فثـارت ثـائـرة نيكول ـ «وانا؟ أتظنين انني اريد رؤية ابي؟ هو السبب في كل هذا. فليذهب الى الجحيم!» فاستأنفت السيدة بلانشار «لاحظي انـك تعيشين جيـدا هنـا فهـذا الميكـانيكي صاحب ثروة. ولكن، ألا

يعـاملك بلطف في الاقـل؟ أليس عنيفـا كوالـدك؟» فأجـابت نيكول: «لا. انه ليس فظا فهويتلو لي القداس كل مساء. وعندما يبدأ بالعزف على الارغن لايمكنك دفعه الى التوقف. وان آلمه شيء بكى كالطفل».

وكانت الام تطلب كل مرة القيام بجولة في غرف المنزل وفي كل مرة تطلق حسـرة استنكـار امـام حجرة لودو: «انك غاية في اللطف ياابنتي وهذا سيعود عليك بالسوء. ألم يكفك ماحدث حتى الان؟ هل عليك الاستمرار من اجل المال». ثم تعودان الى الجلوس في الصالة فتخرج السيـدة بلانشـار عدة الحيـاكـة. منـذ ان كانت نيكـول طفلة رضيعـة والسيـدة بلانشـار تتنـاول ابـر الحيـاكـة كل عام لتحصنهـا من الشتـاء بمـلابس تصنعهـا بيدها. «اخترت لك هذا الموديل من مجلة «صدى الازياء الصغير» وهو يناسبك، انت التي تعانين من ضعف في صدرك ثم تستمران في الثرثرة على هذا المنوال حتى الساعة الخامسة مساءً وتحتسيـان خلال ذلـك اقـداح القهـوة بالحليب، الـواحـد تلو الاخر. احـداهمـا تشـد خيـوط الصـوف والاخـرى تطلي اظـافـرها او تتصفح مجلات ميكي الخاصة بتاتاف. «ليس هذا فقط فانا لااريد ان تفوتني الحـافلة. ثم لديّ المخبـز ايضـا. منطقتنـا مقفرة الان. سيذبح ابوك احـد الطيـور المسمنـة فلِمَ لاتأتين مع زوجـك يوم الاحد لتناول طعام الغـداء؟» فقـالت نيكـول: «والصبي، أيمكنـه المجيء؟...» زمت الخبـازة شفتيهـا بامتعـاض «لا. لايمكنـه المجيء!» ثم لملمت عدة الحياكة في جلبة وشيعتها ابنتها حتى الباب الخارجي. وفي مساء ذلك اليوم سببت لها رؤية لودو اضطرابا في نبض القلب.

مرت ستة اشهر على زواجها لكنها اخذت تحس بالضجر منذ الآن. انهـا تحس وكأنهـا تعيش قدرا مقترضا وان لاشيء في حياتها ثابت، لا

الحاضر ولا الماضي وانها ستستيقظ ذات يوم كي تجد نفسها وهي تحمل ذكريات اخرى وعلى وشك ان تعيش قدرا اخر. انها ماتزال تعد نفسها طفلة مدللة وترفض كل سنة فكرة الاحتفال بعيد ميلادها وتخفي خلف قناع من الاصباغ اوائل تجاعيد الزمن الذي مضى على وجهها والتي تعزوها الى الهموم اليومية. ماتزال في الثالثة والعشرين من العمر لكن جمالها بدأ يخونها بهذه المئات من الشقوق الصغيرة التي لاتعود الحياة بوجودها فجأة مكسبا رابحا والتي تدلل على عملية الانحسار التي تسبق اندثارها النهائي. كما ان تجاعيد صغيرة راحت تشكل هالة زرقاء حول عينيها وحمرة تشوب عينيها دائما فتبدو كما لو كانت تبكي. لم يعد شعرها مشرقا كالسابق واخذت صفرة تتسلل الى اسنانها البيض بسبب التدخين. كانت تزن نفسها كل صباح الا انها قررت اخيرا ان الميزان عاطل وان فقدان خمسة كيلوغرامات تقريبا هو ماسيعيد اليها وزنها القديم ايام الصبا وحبها للفرح وللنزوات. كانت تأكل القليل جدا من الطعام وخاصة من السكريات الا انها كانت تتلذذ بارتشاف النبيذ الاحمر واحتساء خمر «السوتيرن» او «المونبازياك» في المساء كي تتخلص من ازعاج الارغن الذي كانت الضوضاء التي يصدرها تدفعها الى كره زوجها. لم تعد تخرج، ماعدا ايام الاحد، للذهاب الى الكنيسة ولم تكن تلتقي احدا عدا امّها. انها تقيم في الدغلية كما لو كانت تقيم داخل سجن وتغار حتى من لودو الذي يعود من المدرسة بيدين ملطختين ببقع الحبر وبخدّين متوردين. نامت مرتدية جواربها وقالت لا. ليس بعد. ومرت الليالي واخذ ميشو يفقد صبره. وبعد المرة الاولى غادرت حجرة النوم وأجهشت بالبكاء حتى الصباح على اريكة الصالة. ومنذ تلك الليلة، اصبحت اكثر ليونة في الحب الا انها كانت بلارغبة ولامتعة وذات موقف سلبي مضجر اذ لم يكن ليثيرها اي

شيء. وكانت تسأل زوجها ببرود «هل انتهيت؟».

وبعد ان ينتهي، كان الميكانو ينام وهو يثرثر «اعتقد ان لودو سعيد هنا». فتقول نيكول متنهدة: «اشعر بالنعاس. ـ ينتهي المرء دائما الى التعلق بالطفل ان كانت بذرته طيبة.. كنت اعرف ان كل شيء سيسير على مايرام... كل الاطفال يحتاجون الى امهاتهم». ثم يبتسم في الظلام. ماأجمل ان يعود المرء الى بيته مساءً وان يتمطى تحت رشاش الماء في الحمام كي يتخلص من الوسخ ومن الاتربة. آه.. ماأجمل ان يملك المرء زوجة جميلة ذات جسد دافىء مثل هذه. وذلك الاخ الصغير لتاتاف. يبدوان في انسجام تام، هذان الاثنان، وحتى ان تشاجرا احيانا فهما يفعلان ذلك بنية صافية. نيكول لاتحب الارغن!.. ولكن لابأس، فليفعل كل مايشاء فهي ستعتاد الامر على اية حال. ولكن الصبي يبدو مهووسا بعض الشيء فهو يختبىء تحت السلم كي يسترق السمع. من المؤكد انه يعبث بخيوط الشد وبدواسات الارغن خلال النهار اذ غالبا ماتكون ازرار الانغام غير منظمة. سيريه اياها في احد الايام وربما سيستطيع هو الاخر مصاحبة القداس.. اما تاتاف فللأسف، هو الآخر لايحب الموسيقى.

*

استيقظ لودو ذات ليلة وقد تفصد جسمه بالعرق. لقد شاهد اباه.. لقد استدار ذلك السائر ذو الخطوات المحلقة نحوه الا ان المطر الغزير حجب وجهه في اللحظة الاخيرة. خرج الى الممر وتقدم متلمسا طريقه في الظلام كالاعمى فاستسلمت اكرة احد الابواب لضغط يده. تسلل الى حجرة نيكول وميشو التي تطل على الفناء وكان يمكن سماع صوت المطر وهو يضرب السقف كالسياط على نحو يتناغم مع صوت ارتطام القطرات بالشبابيك المعدنية. وقف وهو يترنح بسبب النعاس

واحس بقلق غامض لعدم سماعه اصوات تنفس تصدر من الفراش الغارق في العتمة. خيل اليه ان احد المقاعد راح يسبح في اتجاهه ثم تعرف رائحة امه وتشمم الملابس الملقاة على مسند المقعد وداعبها بخده. جثا على اطرافه الاربعة وحام داخل الحجرة واخذ يحك جسمه كالكلب بجانب السرير ثم مالبث ان شعر بالفزع حين ارتفع صوت شخير مفاجىء فعاد الى حجرته كي ينام.

انا وتاتاف أخوان في الدماء.. انها الطريقة الهندية كما قال.. اقطع رسغك وضعه على رسغي وبذا نصبح اخوين ويصبح ميشو اباك بشكل ما ويكون لنا الدم نفسه.. يجب ان يكون للعائلة دم واحد وقطعت رسغي ووضعته على رسغه ورددت جدول الضرب... ثم لحقنا بالاختين غابارو.. وسألني تاتاف ايهما تريد سنأخذهما في جولة بالغواصة وانا لم اعد اصدق بوجود الغواصة واستدارت الاختان غابارو وسألني تاتاف ايهما ستأخذ وكنا مبللين.. ابتعدتا راكضتين تحت المطر وقال تاتاف ان ذلك جيد للزلنطحات.. رفضت نيكول اكلها... سروالك ممزق.. لقد ذهبوا الى الحلاق مع ميشو وقصت شعرها ولم نكن نرى رقبتها قبل ذلك.

وفي مساء اليوم التالي، شكت نيكول لميشو خلال العشاء من اختفاء سلسلة ساعتها الذهبية.

«قلت في نفسي انك ربما وضعتها في مكان ما..»

ولم يك ميشو قد رأى شيئا اووضع شيئا في أي مكان... «اين اختفت اذن. لاشك انها لم تطر وحدها بجناحين».

واقترح ميشو:

ـ «لابد أنها سقطت من رسغك.

ـ انني اغلقها جيدا باستمرار. ثم انني اتذكر تماما انني نزعتها مساء امس.

ـ واين وضعتها؟

ـ لو عرفت لما سألت! . . . لقد بحثت عنها في كل مكان.

ـ ألم تريا سلسلة نيكول ايها الصغيران؟»

فأجاب لودو وتاتاف:

ـ «لا!»

مضى اسبوع وهي ماتزال تبحث عنها. ساعدها لودو في زحزحة الخزانة كما زحف تحت السرير ثم نهض خالي الوفاض وفتش فوق السجاد.

وبعد مضي اسبوعين وكان يوم خميس. . . شاهدت نيكول التي سمرها الذهول، فوق صينية الافطار، سوارها داخل طبق وقد وضع بشكل جميل بين قطع الخبز المطلية بالزبدة وقدح القهوة.

ـ «ماهذا؟ . . كيف حدث هذا؟ . . .»

فقال لودو:

ـ «لقد عثرت عليها، عثرت عليها بمفردي . .»

رفعت السلسلة باثنتين من اصابعها مبعدة اياها عن وجهها وكأنها حاجة مريبة.

ـ «واين وجدتها؟ لقد بحثنا عنها في كل مكان . .

ـ لابد انها سقطت من رسغك. وانا الذي وجدتها.

ـ ولكن اين؟!»

فتعمد لودو الغموض:

«هناك حيث نضع الاحذية في المدخل. لقد وجدتها داخل احد الاحذية».

ثم فتح ازرار قميصه واخرج حذاءً عسكرياً قديماً مثقوباً مده الى امه .

- «ابعد عني هذه القذارة . انه مليء بالمكروبات! وفوق قدح القهوة . . . ايها الاحمق! . . . ولكن كيف خطرت لك فكرة البحث عنها هناك ، بين الاحذية ؟

- كنت ابحث . اردت البحث في كل مكان وبدأت من الطابق الارضي فوجدتها وحدي» .

نظرت نيكول الى السلسلة فارتسمت على شفتيها ابتسامة مهللة .

«يجب ان اغسلها بالخل اولا . . . انني لاافهم شيئا مما قلت الا انني اشكرك على اية حال . ربما تكون في حقيقتك ولدا طيبا . . » .

باعدت بين ذراعيها وانتظرت مرتبكة .

«وماذا يسعدك في المقابل؟»

فاحمر لودو:

- «ان تأتي الى غرفتي الليلة لتقولي لي ليلة سعيدة» .

فانفجرت بالضحك :

- «مااسهل هذا . ولكن الويل لك ان وجدت حجرتك غير مرتبة! انت تعرف جيدا انني لااحب ذلك . اذهب والعب الان» .

وكان على وشك ان يخرج عندما نادته امه .

«آه . . . لقد نسيت يالودو . تعال ، ناولني حقيبتي . . . لقد جاءتك رسالة من نانيت . انها في باريس . »

وكانت الرسالة قد وصلت قبل اسبوع قرأتها خلاله نيكول عدة مرات .

«سأقرأها لك» .

شرحت ابنة الخال للطفل، بتعبيرات ملتوية، انها ماتزال في حاجة الى الراحة وانها ستتأخر في العودة اكثر مما كان متوقعا. حدثته ايضا عن الامير الصغير وتساءلت عن مدى اجتهاده في المدرسة وهل يعرف كيف يقرأ وكيف يكتب؟ من حسن الحظ ان امه قريبة منه كي تساعده في حل رموز رسالتها. . . . وتعمدت نيكول التي احمر وجهها ان تقفز الفقرة التي تعبر فيها نانيت عن حبها للودو وعن لهفتها لعناقه.

«لقد انتهت. . . هل اغتسلت جيدا هذا الصباح؟

- نعم» اجاب لودو وهو يريها اظافره النظيفة.

- «لست واثقة تماما فرسالة جميلة مثل هذه، لايجب توسيخها. . افضل الاحتفاظ بها لك».

وفي المساء، اعلن لودو خلال العشاء انه قد رتب حجرته ثم صعد لينام بعد ان كرر ذلك مرة اخرى وهو يحاول الحصول على نظرة من نيكول، اشارة تنبىء انها ستفي بوعدها.

وفي الساعة الثانية صباحا، كان مايزال يأمل وهو جالس في سريره، انها ستأتي، وان النوافذ المجلية والملابس المرتبة داخل الدولاب والارضية الملمعة ستدعوها كما تدعو المائدة المنصوبة ضيفا وصل متأخرا. صبّر نفسه ساعة اخرى ثم أتلف كل تحضيراته وقلب محتويات سلة الالعاب على السرير غير المرتب وبعثر ملابسه على الارض ونام والدموع في عينيه الى جوار الاحذية داخل الدولاب، بشكل عرضي.

*

اعتقد لودو انه سيعاقب امه ان عاملها بجفاء. لم يعد يبصق في قدح قهوتها صباح الخميس ولم يعد يلصق شفتيه على مكان شفتيها على حافة القدح واخذ يقطع انفاسه كلما مر بالقرب منها. وتحتم عليه

ايضا ان يلغي من جميع مايقدمه لها من خدمات، كل يوم، كل طابع حميمي، كي يحافظ على كرامته.

تصنعت نيكول عدم ملاحظة اي شيء حتى ليخال المرء ان عزوف ابنها عنها انما تلاءم ورغباتها. اما صدوده هو فلم يكن له من مصير غير التعاسة وماكان يوغل في العداء إلا كي يؤجل استسلامه اليها حتى ابعد وقت ممكن. وكان تاتاف يقول للودو: «انت على حق. امك حمقاء. لم ارد ان يتزوج ابي بها». وكان لودو يجيب: «هكذا اذن».

وفي احد الايام. اعلن تاتاف: «يجب ان نهزمها، يجب ان نجعلها تطلب الصفح. هذا هو الحق». ثم قهقه ضاحكا: «سندس لها حشرة ثاقب الاذن بين لوازمها. هيا تعال! راقب السلم وسأضعها انا». وأدى لودو دور المراقب. وعندما خرج تاتاف بعد عدة دقائق قال مبتهجا: «لن تجرؤ بعد الآن على ارتداء ملابسها الداخلية. لقد نشرت كتيبة كاملة. حسن. سأذهب الآن الى الغواصة».

وما ان رحل حتى تسلل لودو الى حجرة نيكول وأخذ يلتقط الحشرات المنتشرة بين ملابسها. وفي اليوم التالي، قال تاتاف وهما في الطريق الى المدرسة: «انها حشرة دقيقة. ولكنها لم تقل شيئا بل قبلتني ايضا. سنضع لها كرات ذات روائح نتنة تحت الاغطية هذه المرة. وحين ستنام ستسحق الكرات. آه... ستكون ليلة ليلاء لهذين الابوين!» وكاد لودو يضبط هذه المرة متلبسا خلال ازالته الالغام التي زرعها تاتاف في السرير. وغضب تاتاف: «لم اعد افهم شيئا».

ـ فأجاب لودو: «ولا انا ـ لدي فكرة. سأكمن انا وراءها على اطرافي الاربعة ثم تتقدم انت اليها من الأمام وعندئذ تتراجع وتسقط فوقي». وتم التنفيذ الا ان لودو صرخ «انتبهي!» ففشلت الخطة. وتخلص تاتاف من الموقف بطريقة مثيرة للشفقة اذ تظاهر بربط شريط

حذائـه الا انـه منـذ ذلـك اليوم ، اخذ ينظر الى لودو نظرة مليئة بالريبة .
«وماذا تريد مني ان افعل . لقد خفت . . » .

اخـذ النهـار يزداد طولا واطلقت موجات الحرارة الاولى عطر اشجار الصنـوبـر وتشبـع الهـواء بطعم العسـل وبرائحة البحر واخذت الزيزان تصرصر في الحقول والبحر الازرق الهادر يقضم الساحل . وفي المساء كانت الكـراكي تطيـر وتتشتت في السمـاء ملونة الافق بلون ازرق مائل الى البنفسجي وكـان تاتـاف ولـودو يذهبـان للسباحة في البحر . ادعى الاول انـه يسبـح كالسمكة الا انه لم يكن يفعل شيئا سوى التخبط في الماء مستندا بقدميه الى القاع مما خدع لودو في بادىء الامر واذهله الا ان دهشتـه مالبثت ان زالت حين اكتشف ان بمستطـاعـه هو الاخـر ان يفعل الشيء نفسه . وكان لودو يخوض في الماء البارد دون صعوبة اما تاتاف فكان يبلل نفسه رويداً رويداً حتى اذا بلغ الماء الفخذين تحول جلده الحليبي المنتفخ الى جلد دجاجة فينفجر لودو بالضحك في حين ينسحب تاتاف بحجة انه غاضب .

وفي تلك الامسيـات الطـويلة العـذبـة الـدافئة كان الصبيان يلهوان بلعبـة كرة القـدم الخشبيـة حتى يسدل الليل رداءه . كان تاتاف يتغلب على لودو عن طريق اعتمـاده على قواعـد مرنـة تمنحـه حق اعادة لعب جميـع النقـاط التي كان الاخـر يفـوز بها . وكانت انغام الارغن الأخن تصـاحب اشـواط اللعبـة . وكـان ميشو يقترح عند انتصاف الليل شرب النقيـع فيغلي تاتـاف المـاء ويقـوم لودو بوضـع اكيـاس النقيـع داخـل الاقـداح ! وكـان ميشـو يوصيـه «لاتصدر اي صوت عند صعودك السلم والا استيقظت امـك» . وكـان لودو يرمي الاكيـاس المبللة نحـو الليـل البهيم وهـو يقف على عتبـة باب المطبـخ . وكانت تلك الاكياس تعلق بالعشرات باغصان شجرة الليلك المزروعة في فناء الدار .

واخـذت واجبـات الطـلاب تقـل عن ذي قبـل في المـدرسـة وراح المعلم مع اقتــراب فصـــل الصيف يدردش مع تلاميـذه ويسألهم عن طموحاتهم المستقبلية ثم يصرفهم قبل انتهاء الحصة. وكان كلما بدت بوادر فوضى داخــل الصف، سيطــر على الطـلاب عن طريق اجـراء امتحـــان في الامــلاء. وكـان لودو الـذي لم يتعلم سوى كتـابـة بعض الكلمـات يكتفي بتسليم ورقـة بيضـاء كتب فيهـا [**لم تعد نانيت حتى الآن. . ماذا رسمت لمـاذا ترسم كفـاً بهذا السواد. . تاتاف يخاف في الظلام وانا من يذهب دائما لجلب خمر التفاح من القبو. . . انا احب الظلام. . لقد انهيت بيتي الشبيه ببيت الاسكيمو تقريبا**].

وكان لودو قد حفر بيتاً من هذا النوع داخل الارض في نهاية الحديقة وذلـك بعـد محـاضـرة عن الاسكيمو. وهو عبارة عن حفرة سد منفذها باغصان صنوبر ربط بعضها ببعض بالطحالب. وكان يمكن لرجل مقع على قدميه ان يجلس فيها.

وفي صبـاح احـد الايـام، شد انتبـاهه تعبير **عيد الام**. . واستأنف المعلم: «سيحيـــك كل منكم الان لأمـــه وعـاءً من الاسـل. سأوزع عليكم المـواد». وفي مساء اليوم التالي كانت الاوعية الاربعون جاهزة ومغلفة وقد ربطت بشريط جميل كتب عليه «عيداً سعيداً ياأماه». وعاد التلاميذ الى منازلهم فخورين سعيدين يحملون هداياهم بين ايديهم. وعنـد الخـروج، كان ماكسيم وجيسـوس، وهمـا اثنـان من التـلاميـذ الاشقياء، في انتظار لودو «امك المانية وهي لاتستحق هدية» ثم ضربا لودو وداسـا على وعـائه بالاقدام فعاد مرضوض الفك في حالة يرثى لها وكانت نيكول في الصالة تقطع بعض الصور من مجلات نسائية.

«هـل تشـاجـرت مرة اخرى؟. . ياللروعة! لقد تمزق القميص ارباً ارباً» وتدخل ميشو «هكذا هم الاولاد دائما» وكان يحاول تشغيل جهاز

تلفزيون مستعمل استغنت عنه الكنيسة.

«انه ولد عنيف. نعم! ماما كانت تقول انه عنيف!» وكان صوتها قد بدأ يحمل منذ بعض الوقت نبرات استهزاء وكلماتها مقاصد ساخرة.

صعد لودوكي يغتسل. وبعد ان انتهى من ارتداء ملابسه تسلل الى حجرة نيكول وشاهد حقيبة امه اليدوية على الرف فدس يده وأخذ منها عددا من القطع النقدية. وعند الخروج التقى تاتاف.

«ماذا كنت تفعل هناك؟»

فغمغم وهو يسرع في هبوط السلم:

ـ «وانت؟»

غادر المنزل من الجهة الخلفية واسرع نحو القرية بخطوات حثيثة حتى وصل «بازار دور باري» والعرق يسيل من جسمه. كانت سكين رائعة ذات نصل لامع موضوعة الى جانب غمد اسود اللون بين اقنعة الغوص ونماذج مصغرة لاشجار نخيل وبنادق وملابس متنافرة الالوان على خلفية من نجوم البحر. وكان مقبض السكين منقوشا على هيئة يد بشرية. طالما شكت نيكول من ان سكاكين المنزل كلها لاتقطع. دفع لودو الباب فسمع رنين جرس.

قال لامرأة في منتصف العمر ذات لون برونزي مكتسب:

«جئت من أجل السكين».

نظرت الى الطفل من قمة رأسه حتى اخمص قدميه وتطلعت الى لونه القرمزي وقميصه الذي يوحي انه قد خرج تواً من مشاجرة والى سرواله المجعد الذي كان واسعا نسبة الى ساقيه الهزيلتين.

«اي سكين؟..»

فقال وهو يفتح الباب:

«تلك التي في الخارج».

تبعتـه المـرأة باسمة ثم دعته الى الدخول بعد ان رأت السكين التي تحدث عنها.

«ألاتعتقد انها كبيرة بالنسبة اليك. لِمَ لاتختار هذه؟»

وكـانت مجمـوعـة كاملة من المـدي عارية الانصال مرصوفة داخل خزانة زجاجية.

فقال لودو:

- «بل اريد تلك.

- أهي لك؟

- لا. انها هدية»

فقالت البائعة :

- « ان كانت هدية فالامر مختلف». ثم رفعت السكين من الواجهة لتقدمها على كفين مبسوطتين الى لودو.

«هل اعجبتك؟

- نعم.

- أهي لأبيك؟

- لا.

- لاخيك الكبير.

- لا. انها لأمي.»

فحدقت المرأة الى الطفل وصاحت بنبرة مستنكرة:

- «لأمك؟

- نعم.

- أتحب امك الصيد في البحر؟»

فدمدم لودو:

- «وانتِ؟»

ـ ماذا قلت؟

ـ امي تريد هذه . . . هي التي قالت ذلك» .

ترددت المرأة في تغليف الخنجر الا ان هذا الزبون يبدو رغم صغر سنه حاسماً في قراره .

ـ « أتعرف ان سعر هذا الخنجر مرتفع؟ انه يكلف خمسين فرنكاً جديداً» .

استدار لودو بكل اهتمام واخذ يحسب النقود المسروقة فاختلطت عليه الارقام .

قال وهو يستدير نحوها ماداً كفه المليئة بالنقود المدعوكة :

ـ «لااعرف كم معي» .

فقالت المرأة بعد ان عدتها :

ـ «انها سبعة واربعون فرنكا فقط .

ـ وهل تكفي؟

ـ لا ، ليس تماما . انها تنقص ثلاثة فرنكات . أأنت واثق بأن امك لاتريد سكينا اقل شأنا . سكينا للقطع؟

ـ لا . انها تريد هذه» .

كان وضع الصبي مثيراً للشفقة اذ لابد انه قد كسر محصلة نقوده كي شتري هدية عيد الام .

«حسن . انها لك . سأضعها داخل علبة جميلة وان ارادت امك يرها فقل لها ان تأتي» .

وحين عاد ، لم تكن نيكول قد انتبهت بعد الى السرقة فاخفى نجر اولا في بيت الأسكيمو ثم تحت وسادته وامضى الليل وهو رق لهفة لفتح العلبة .

وفي صباح اليوم التالي ، وما ان غادر ميشو الى العمل ، حتى تقدم

لودو ووضع الهدية المغلفة تغليفا جميلا على ركبتي امه ثم فرّ دون ان يتفوه بكلمة واحدة. توجه الى الحديقة والانفعال يهزه بجنون وقفز حتى محطة القطار القديمة حيث كان يهدىء اعصابه بتقليد القاطرات والبواخر.

وبعـد عدة دقـائق عاد ادراجـه ثم استلقى تحت احـدى اشجـار الصنـوبـر واخـذ يراقب المنزل، الا انه لم يسمع اي صوت. لابد انها بحثت عنه ونادته، فتلك هي اجمل هدية. نهض واقفا وقلبه يخفق بقوة ثم تقدم نحو الفناء. وعندما وصل تحت نافذة نيكول صفر بأقوى صوته ولكن دون جدوى. دخل المطبخ عندئذ فوجد تاتاف يلتهم صحنا من حلوى الموز.

فسأله لودو دون ان يظهر على وجهه اي تعبير.

«ألم تر امي؟

ـ امك امرأة متملقة فهي لاتتحدث اليّ الاعندما يكون ابي موجوداً».

صعد السلم وكان الممر هادئا فالصق اذنه بباب حجرة نيكول ولكن دون جدوى اذ لم يكن هناك اي صوت. كان على وشك ان يصرخ وان يدخل دون ان يطرق الباب لكنه جلس على الارض قرب الباب وتخيل للمرة المائة يدي نيكول وهما تفتحان هديته الجميلة، اجمل من أوعية لاسـل، وتخـرجـان الـرائعـة المخفيـة. ثم سمع فجأة طرطقة ارضية لحجرة فانتقل الى حجرته بسرعة البرق. نادى صوت كئيب باسمه الا انـه لم يتحـرك الا بعـد النداء الثالث فاسرع الى حجرة امه التي كانت تجرب حذاء ذا كعب مرتفع امام الدولاب المغلف بمرآة.

«اين كنت؟.. انني اناديك منذ ساعة».

كانت السكين التي جردت من غمـدهـا تلتمـع على السـرير داخل

العلبة المفتوحة.

- «من اين جئت بهذه؟

- من بازار دو باري.

- ولماذا اعطيتني اياها؟»

فاحمر لودو:

- «تقولين دائما ان السكاكين لاتقطع. وهذه تقطع».

قلبت الخنجر بين يديها.

«ولكنها ليست سكينا للمطبخ... ترى لاي غرض تستعمل؟»

وكانت تبدو حائرة.

فقال لودو:

«هذه السكين تقطع ولاشك.

- ولماذا تعطيني اياها اليوم.

- اليوم هو الاحد».

تركت السكين على غطاء السرير وبدأت تتخذ اوضاعا مختلفة امام المراة وهي تنظر الى قدميها بحذائها الجديد. وعندما انتبهت الى وجود لودو خلفها راودها شك.

«والنقود، من اين جئت بها؟ لابد ان سكينا كهذه تكلف غاليا».

فصر اسنانه.

-«وانت؟..

- انك لاتستطيع دفع ثمن سكين مثل هذه. من اين جئت بالمال؟»

ولم يحر لودو جوابا

-« لابد انك سرقته!»

فكرر الطفل بلهجة متوسلة:

- «انها تقطع ولاشك.

- لقد سرقت المبلغ ادن . . . »

قالت ذلك فجأة بصوت بطيء، ممطوط ومبتدل تقريبا.

«ممن سرقته؟ . . من ميشو؟ . . من تاتاف؟ . . ممن؟»

ولم تعبر العينان الخضراوان عن اي شيء.

«تعرف جيدا ان امامي مايكفي من الوقت. ان لم تقل فدلك يعني انك لص حقيقي . . لص صغير قدر» .

كان لودويلوي اصابعه ويحدق الى الخنجر وهو سعيد بانه وصل اخيرا الى هدا المكان. لاشك انه سيعود الى واجهة المحل الا انه يتالق الان فوق الغطاء. ترى الا تلاحظ كيف يتالق؟ . .

«حسن، من اين جئت بالمال؟ . . »

ثم صرخت:

«من محيفظة نقودي؟ . . »

فقال دون ان يرفع عينيه عن الخنجر:

«قالت المراة انها ستعيد المال.

- اي امراة؟

- البائعه. قالت اننا يمكننا اعادة السكين وانها ستعيد النقود.

- ولكنك اخدتها من حقيبتي، اليس كدلك؟ اخدتها من حقيبه امك. »

فارتجف لودو.

صرخت نيكول بعد ان قلبت حقيبتها الفارعه:

«اتعرف من انت، انت لص وكادب! ستعاقب على دلك. لا اعرف الان كيف ولكنك ستتلقى عقابا شديدا. لولم يكن دلك محزيا بسحلك ميشو من اديك حتى البائعه وتروي لها كل شيء . . يسرق المال من امه! . . »

ولاذ ببيت الاسكيمــو مضطـربـا . ماذا سيظن ميشـو؟ ماذا سيقـول تاتـاف؟ ومـاذا ستعتقـد السيـدة؟ ولم يعـد الى المنزل لا لتناول طعام الغـداء ولا العشـاء ونـام وهو ينشج تحت الاغصان المبللة . وحين عاد الى الظهور في المنزل صباح اليوم التالي ، كان الوضع غريبا ولم يوجه اليـه احـد اي لوم . ففي عشيـة ذلـك اليـوم ، كان خبر وفاة نانيت الذي نقلتـه السيـدة بلانشـار قد طغى على موضوع السكين وكانوا قد توسلوا الى تاتاف كي لايقول شيئا للودو.

نقـل جثمـانهـا بالقطـار كي تدفن في بيهـاك ، مسقط راسها . وكان موكب التشييـع يكـاد يكـون نسخـة مطابقة تماما لموكب العرس الذي سار وراء نيكول وميشو في فصل الشتاء السابق . وجهت الخبازة انتقادا لاذعـا لابنتهـا التي جاءت حاسـرة الـرأس ولم تضع حتى زهرة بنفسج سوداء ووقفت بعينين ناشفتين من الـدمـوع امـام القبـر المفتـوح . امـا نيكـول فكـانت تشعـر بالغثيـان . نظـرت الى مرشة الماء المبارك والى حفنـات التـراب الجـاف التي راحت تنهـال على النعش والى حذاء الكـاهن الـذي باركهـا وكانت اشرطة حذائه معقودة جيدا ، والى الافق الملتهب والى ذلك الغريب الذي كان يرسم اشارة الصليب على حافة الهـوة ، وكـان هرمـا تقـريبا ، وشعرت بالفزع فجأة لكونه زوجها . وقال انج ، حفار القبور الذي وقف متكئا الى مسحاته :

«هل انتهيتم؟ . . الن يحضر شخص اخر؟ . . ايمكنني اغلاق القبر الان؟ . . . » .

توجهوا بعد ذلك الى المخبز لتناول وجبة خفيفة من الطعام ثم لعبوا الكرات في الباحة في حين ساعدت نيكول امها في غسل الاطباق ثم صعدت خفية لترى حجرتها القديمة وعندما وصلت الى صحن السلم

وقفت تتأمل درجات السلم الملمعة التي تؤدي الى مخزن الغلال.

وبعد ان عادت الى منزلها وشاهدت لودو، انحدرت دمعاتها الاولى:

«يجب ان تعرف انت ايضا بشأن نانيت. لقد رحلت هناك الى الاعلى. لقد ماتت، ولن تراها بعد الان».

*

الفصل الخامس

حين بلغ تاتاف الثالثة عشرة من العمر، قبل في تيفولي وهي مدرسة داخلية يسوعية تقع في بوردو فاخذ لودو يقطع الطريق الى المدرسة بمفرده. كان يكرر صفه كل عام. ولانه لم يعرف البتة كيف يتعامل مع الساعة المنبهة التي اعاره اياها ميشو والتي كانت تدق كل ليلة في الساعة الثانية والربع تماما فقد كان يصل اما بعد ان يدق الجرس واما قبل الفجر ولم يصل يوما في الموعد المحدد على الاطلاق.

وكان تاتاف يصل بالحافلة ظهر كل يوم سبت حيث يكون لودو في انتظاره عند الباب الخارجي متصنعا الوجود هناك مصادفة. وكان اول مايفعله صاحب المدرسة الداخلية حتى قبل ان يجلس الى المائدة هو التاكد من ان احدا لم يمس حوض اسماكه المليء بقطع اللبان علامة «غلوبو». وبعد الانتهاء من هذا الاجراء الروتيني يستانف الصبيان علاقتهما الحميمة التي يتخللها الكثير من المماحكات والمشاحنات.

كانت حجرة لودو في «الدغلية» تبدو منظمة للوهلة الاولى والسرير مرتبا كما ينبغي الا ان النظام لم يكن لينسجم مع الطفل قط اذ كان يكدس داخل الدولاب كوما من الالعاب ومن الملابس التي يقوم بحشرها مستخدما قدميه الاثنتين. وكانت تصدر عن هذا الكدس رائحة نتنة كانت نيكول تعزوها الى وجود فارميت. اما لودو فلم يكن يشم شيئا.

منذ مغادرة تاتاف ولودو لم يعد يبلل فراشه الا انه اخد يتبول تحت السرير. وحين يريه ميشو ارضية الحجرة المبللة يقول: «لا. لست انا. انه الفار الذي لم يمت». وعندها يسأل ميشو: «وماهدا؟» وهو ينظر الى الحائط حيث بانت مجموعة من الرسوم احدها الى جانب الاخر وقد لونت دون دقة فوق ورق الجدران وتشابهت جميعها: الشعر الاحمر والعنق الطويلة والملامح المختفية جزئيا خلف كف ضخمة والعينان السوداوان اللتان تومضان من خلال الاصابع. وكان لودو يجيب وكان الامر لايعنيه لا من قريب ولا من بعيد:

-«انه رسم - وماهدا الذي يظهر فوق رسمك. لايمكن رؤية شيء بوجود الكف؟ - انه رسم - حسن ايها الصغير ولكن يجب ألاتتلف الحائط يجب ألا تفعل ذلك فهناك اوراق خاصة للرسم.»

كان التلفزيون يضفي على وجبات الطعام شيئا من الحيوية وكان لودو مغرما بجميع البرامج التي يلتهم صورها التهاما ايا كان موضوعها. وكانت امه تطفىء الجهاز حال ظهور رجل وامرأة يتعانقان على الشاشة ثم تقول له وهي تتنهد منزعجة:

«هيا، ارفع الاطباق واصعد كي تنام» فكان لودو ينهض ممتعضا. وماان يخرج حتى تعود الى فتح الجهاز.

واستيقظت نيكول ذات ليلة وهي ترتجف:

- «أهناك أحد؟» كانت العتمة تطبق على عينيها فلم تر شيئا. الا انها احست بشيء ما، بوجود أحد ما، بلمسة، فهزت ميشو الذي لم يكن في تلك اللحظة يشخر.

«انه مجرد كابوس وسينتهي.

- ليس صحيحا. . لم اكن نائمة. . انني واثقة بأن هناك أحدا ما.»

فأضاء ميشو المصباح.

«ها انت ترين . . ليس هناك أحد»

فغمغمت :

«اكاد اقسم على ذلك . . ولكن الامر سيان . . هناك رائحة . . رائحة لااحبها» .

*

منذ قضية الخنجر استسلم ميشو الى الاعتقاد بأن ابن زوجته ربما يشكو فعلا من خلل في الدماغ الا ان ذلك لم يؤثر في أي حال من الاحوال، في علاقته به . كان يقول لزوجته :

«ولماذا تستغربين الامر؟ انا كنت اعرف ذلك عندما تزوجت بك . المنطقة كلها كانت تعرف . كنت أتوقع الأسوأ بل خشيت منه على تاتاف ايضا . لايمكننا القول ان ابنك مجنون فعلا الا انه ليس مثلنا تماماً، يجب اخذه الى الطبيب» .

وفي احد ايام الخميس اصطحبت نيكول ابنها الى عيادة الطبيب فارومبورغ . «ستجيب عن الاسئلة بكل ادب ولاتضع يديك في جيبك» . وكان الطبيب رجلا بدينا يعتقد من يتحدث اليه انه يتابع فكرتين في آن واحد يربط بينهما بكلمة حسن، حسن، حسن . وكانت الكلمات تبدو وكأنها تنطلق من شفتيه طائرة .

- «ماسمك ايها الفتى؟

- اسمه لودوفيك بوسار ايها الطبيب . اؤكد لك ان الامر غير مفرح بالمرة . . لااعرف كيف اقول ذلك . وضع الصبي غير مرض ايها الطبيب . هناك خلل ما في رأسه .

- ومالذي يجعلك تعتقدين ذلك؟ حسن، حسن، حسن» .

حاول لودو رؤية البحر بين اشجار الصنوبر من خلال النافذة ذات الستائر نصف المسدلة . وأصغى الطبيب فارومبورغ الى نيكول بكل

لطف ثم حسن، حسن، انكب على فحصه فجعل لودو يسعل وتحقق من قوة سمعه وبصره وقاس وزنه ثم شخص في نهاية الامر حالته قائلا ان مثل هذه الحالات لاتدخل ضمن اختصاص الطب العام وانها تتطلب علاجا خاصا. وسجلت نيكول عنوان طبيب اخر في بوردو وهو اختصاصي في الامراض العقلية.

«ماهو مؤكد في الاقل هو ان صحتك جيدة!»

فأجاب لودو:

- «انهم يغارون».

وفي الاسبوع التالي اصطحبهما ميشو الى المدينة فاغتنموا الفرصة لتناول بعض المرطبات في أحد المقاهي.

«وماهو اختصاص الطبيب العقلي؟»

فقالت نيكول:

«انه الدماغ» ثم استدارت الى ابنها الجالس الى الخلف:

-«أترى مالذي تجبرنا على فعله؟»

وبعد حديث مشترك قصير ادخل الطبيب الطفل في صالة صغيرة رائعة بسجادها وبالتحفيات الموضوعة على مائدة واطئة فيها وكان جو الحجرة مشبعا بمزيج من رائحة الراتنج والطلاء الحديث. جلس لودو على اريكة وجلس الاخر خلف المكتب وعندما كان الطبيب يبتسم كانت شفته العليا ترق حتى تبدو وكأنها قد اختفت. ظل يلمع جبهته الصلعاء براحة يده الرخوة باستمرار وهو يستفسر بلطف عن عشرات الأسرار. سأل إن كان لودو يستمني خلال الليل أو إن سبق له أن رأى عورة زوج أمه، إن كان يشتهي أمه وان كان طفلا كثير التعرض للضرب. وفي النهاية مال عليه بصلعته اللامعة ونبهه الى ان «الرمز الفرويدي للذكر هو الرؤوس الحليقة وان هذا هو سبب غموض الرمز

بالنسبة للزبونات بل بالنسبة للزبائن ايضا . . . » وبلغت كلفة الجلسة ثلاثمائة فرنك واضطرت نيكول الى تسجيل عنوان طبيب اخر متخصص بشكل مباشر بالاختلال الوظيفي الذهاني .

قال ميشو بعد ان استقر في مقعده في المقهى .

ـ «لم افهم شيئا .

ـ قال انه ليس على مايرام .

ـ ولكن من المؤكد أن ذلك لايقطع شهيته !»

وكان لودو قد قضى لتوه على قهوته واثارها ماتزال تحيط بشفتيه .

ـ «أتريد فنجان قهوة اخر ايها الصغير؟» فأيد لودو بحركة من رأسه .

وكانت هناك قطعة لبان وردية اللون ملصقة بالمقعد تحمل بصمة اصبع ابدلها ببصمة اصبعه ثم نزعها ووضعها خلسة في فمه .

ـ «يجب الا يأكل كثيرا فقد يصاب بالديدان .

ـ لن يصيبه ذلك بالديدان . . وماالذي عناه الطبيب حين قال انه ليس على مايرام؟

ـ أعطانا عنوان طبيب اختصاصي وهو الذي سيقول لنا ماذا يجب ان نفعل .

ـ حين يكون المرء مصابا بمس في دماغه فان ذلك يكلف غاليا . وماجدوى ان نعرف ؟

ـ لاشيء . نحن نعرف سلفا على اية حال . هذه المرطبات تسبب العطش، سأكون سعيدة لوتناولت كأساً من شراب السوتيرن او المارتيني» .

واحتسى نيكول وميشو الشراب . اما لودو الذي كانت تلك هي رحلته الاولى الى المدينة فقد راح يتلهى بالنظر الى المارة وهم يتوافدون، الى كل تلك الوجوه وتلك الأعين وتلك الخطوات والى

هؤلاء الناس وهم يدخلون ويخرجون والى الندل يصرخون والى رنين قطع النقود والى المعاطف تمر والضحكات تنطلق والى تيارات الهواء تختلط بالروائح. وظهرت امرأتان طاعنتان في السن تحمل احداهما في نهاية خيط علبة مقوى تحوي بعض الحلويات فشاهدهما لودو وهما تجلسان باسترخاء على احدى المصاطب وتفتحان ازرار معطفيهما من الفراء وتتناولان حلوى الكرنبية وهما تحركان فكيهما جانبا كما تفعل الحيوانات على نحو مثير للانتباه مع حركات في اللسان واهتزازات صغيرة في الذقن وارتعاشات مفاجئة في الحواجب وتقلصات في العنق كانت تجعل ريشات قبعتيهما ترتجف.

وغمغمت نيكول:

«يالها من حياة تعيسة يقضيها المرء مع صبي مثل هذا.

- لاتتذمري. فهو لطيف في الاقل في حين أن هناك من يتصرفون بشراسة».

واذ هموا بالانصراف عاد لودو الى لصق العلكة على المقعد ثم طبع عليها بصمة اصبعه وكأنها ختم.

*

اشاع ضباب الشتاء اضطرابا في الالوان وفي النفوس وراح الظلام يخيم سريعا وقت العصر. وكانت انوار الميناء التي تضاء قبل موعدها تبدد نهاية النهار في تلك اللوحة الطبيعية في وقت مبكر.

وعادت اعياد الميلاد ورأس السنة واعربت عائلة بلانشار عن رغبتها في المجيء لقضاء عشية عيد الميلاد شرط أن لايكون لودو موجودا لكن ميشو صمد هذه المرة ايضا. «من المؤكد ان الصبي سيبقى فهو لم يأت سوءاً. ولن اقول الشيء نفسه عن الاخرين». صفعت نيكول زوجها وطلبت من والديها عدم الحضور ثم لازمت حجرتها مساء عيد

الميلاد رافضة حتى الذهاب الى قداس منتصف الليل. واحتفل ميشو وتاتاف ولودو بالعيد في جو من الوجوم تحت شجرة التنوب المزينة التي لم يعد لها اي معنى ثم نام ميشو على الاريكة في الطابق الارضي.

ولم تظهر نيكول الا بعد يومين في حالة مزرية وتمنت عيدا سعيدا للجميع وهي تقلب على الارض، وسط المطبخ، مبولة ليلية تحوي مئات من اعقاب السجائر.

كانت السيدة بلانشار تتردد الى الدغلية عدة مرات خلال الاسبوع: «هل انت بخير؟ ابوك ليس كذلك. انه يشكو من الام في الظهر تمتد حتى الاطراف. يقول الطبيب انها الرطوبة والرطوبة عندنا تلتصق كنبات العكرش. هل تأكلين جيدا في الاقل؟ انك هزيلة. اذا اردت ان تمنحي زوجك طفلا فعليك ان تسمني قليلا. سمحت قبل ايام.. تعرفين من اعني.. الابله... كم يشبه... اعني.. يجب الا يبقى هنا عندما تكونين حاملا».

فاجابت نيكول بعصبية:

«لا اريد طفلا. ميشو هو الذي يريد.

- لا اقول انك تريدين. اقول فقط انك يجب الا تنظري الى مجنون عندما تكونين حاملا. وعلى اية حال هناك دور خاصة للمجانين. سيكون في حال جيدة هناك وستتمكنين من رؤية ابيك من جديد..

- يقول الطبيب انه لا يعاني اي شيء.

- وماذا تريدين من الطبيب ان يقول ان كنت تشكين من الم في الاذن ثم تذهبين الى طبيب الاسنان. انني احذرك. سينتهي الامر كله نهاية سيئة».

وفي صباح احد ايام الخميس تعثر لودو في حجرة نيكول وهو يضع الصينية فانسكبت القهوة الحارة على امه.

«لست مجنونا حسب بل خطر ايضا . . » .

وفي المرة التالية استيقظ مبكرا وارتدى ملابس يوم الاحد وهبط لتحضير طعام الافطار الذي يحسن تهيئته كالمعتاد . كانت طريقة ترتيب ادوات الطعام ووضع الزبدة على قطعة الخبز وحتى طريقة وضع قطع السكر في صحن القدح، تدلل كلها على اعتنائه المفرط بالامر.

صعد لودو السلم بحذر ووضع الصينية على الارض بهدوء قبل ان يدق الباب ثم سحب من جيبه دبوسا ذا رأسين ووخز به ابهامه فوق القدح وراح يراقب قطرات الدم الحمر وهي تمتزج بالقهوة التي كان البخار يتصاعد منها . واخيرا أحكم الدبوس ثم طرق الباب .

كانت نفسية نيكول في ذلك الصباح تسمح لها بالتحاور.

«لاتنس تلميع الارضية في الطابق الارضي والعب في الخارج عصر اليوم لان أمي قادمة . إن تكن هادئا سأسمح لك بمشاهدة التلفزيون هذا المساء . ماذا ستفعل الان؟

ـ تاتاف أعارني قطاره .

ـ وواجباتك المدرسية .

ـ انهيتها كلها .

ـ حسن . . قل لي . أأنت من اغتسل في حمامي البارحة؟

ـ لا . ليس انا .

ـ ولكن الحمام مليء برائحتك حتى انني اضطررت الى التهوية» .

استدار لودو بكرسيه الهزاز كي ينظر في عينيها :

«ابي هو الذي اغتسل» .

فاضطربت نيكول :

«تعني ميشو . اليس كذلك؟»

غمغم لودو وهو يشيح بوجهه :

«من هو أبي؟»
شحب لون نيكول:
ـ «ماهذا الذي تقول ايها الاحمق؟»
فأجاب بنبرة عادية:
ـ«لاشيء».

كان لودو قد اخـذ يكثـر من اشـاراتـه المبطنـة الى ابيه معتمدا على خلط الاخرين بين ميشو وابيه الحقيقي. فقد اعلن في احد الايام بكل برود ان اباه كان في انتظاره عند خروجه من التعليم المسيحي وتحدث في وقت اخر عن جولة قام بها بالسيارة معه. وكانت تلك الاستفزازات تجعـل نيكـول تجمـد في مكـانها فتصيح به دون اصرار كبير، «لاتكن خبيثا يالودو؟»

وغاص رأسها في الوسائد من جديد.

«انك تصبح ماكرا وهذا ليس جميلا. ماذا يلقنونك في التعليم المسيحي؟

ـ الرومان مع المسيح وكيف غسل بيلاطس البنطي* يديه من دمه. المسيح وضعوه على الصليب في حقل الجلجلة والفريسيون كانوا يغارون.

ـ هاانت تعـرف اشيـاء كثيـرة.. ولكنني امـل انهم يعلمـونك ايضا مبادىء الطاعة والاحترام.

ـ لاادري..

ـ وصلواتك،أتعرفها؟

ـ هناك واحدة لااتمكن من حفظها. انها مملة.

---

* الحاكم الروماني في مملكة يهوذا غسل يديه أمام الجموع تعبيراً عن براءته من دم المسيح. (المترجمة)

ـ وماهي؟

ـ أبانا الذي في السموات.

ـ حقاً! . . مسالة مواظبة. ولكنك كسلان. ثم كف عن التأرجح فذلك يسبب لي دواراً».

ثبت الكرسي الهزاز وتأمل باطن كفه المدمى وهو يبتسم بغموض ثم مالبث ان شرد بفكره وهو يتأمل صورة نيكول التي انعكست على زجاج النافذة على خلفية من اشجار الصنوبر التي اصطفت ممتدة بانتظام.

«ان حفظت ابانا الذي في السموات فهل يمكنني العزف على الارغن؟.

ـ هذا إذا ماتعلمت كل الأشياء الأخرى أيضا. ان استطعت أن تقرأ وأن تكتب دون ارتكاب أخطاء إملائية وبخاصة إن أتقنت درس الحساب. فالارغن ليس مهنة».

وكان ميشو قد اقترح إعطاء ابن زوجته دروسا في الموسيقى، ومن يدري، ربما، لاستخدامه مساعدا في الكنيسة فيما بعد. وهكذا تلقى لودو درسه الاول مساء يوم أحد. وبعد نصف ساعة، اقتربت نيكول وهي تحمل كأسا من شراب السوتيرن لتعلن أمامهما أنها ليست خادمة كاهن، من المؤكد، لا، وان ميشو، ان كان هو نفسه كاهنا، فلن يكون ذلك حجة يستخدمها كي يجعل من ابنها الصغير، ابني الصغير المسكين! كاهنا قذرا. ثم اغلقت غطاء الارغن على اصابع الطالب المبتدىء وهي ترطن بتهديداتها: «يالها من فكرة، أن اتزوج برجل عجوز مثلك!» انهار ميشو عند سماعه هذه الكلمات الغادرة فأعلن استسلامه وتخليه عن المشروع حالا.

واستأنفت نيكول:

ـ «ماذا تريد ان تصبح عندما تكبر؟

- سائق طائرة.
- لماذا تقول ذلك؟»
فلم يجب.
- «بامكانك أن تصبح بحارا. إنها مهنة لطيفة. سترتدي سراويل جميلة وياقات بيضاً عريضة وستزور بلدانا كثيرة.
- أين؟
- في البحرية. إنهم يسافرون كثيراً ويرتدون قبعة بيضاء ذات خصلة خيوط حمراء.»

ثم ضحكت ساخرة:

«من المؤكد، مع أذنيك البارزتين..»

فتجهم وجه لودو. اذناه تعذّبانه. منذ ان حصل على مرآة حقيقية وهو يقضي الساعات في تفحص هذا الوجه الوسيم والقبيح في آن واحد الذي تجتاحه تعبيرات مناقضة للمشاعر التي تنتابه. كان يحرص في ساحة المدرسة على عدم فسح المجال للفتيات لرؤية وجهه من الامام ويتظاهر دائما بالانتباه الى احداث تدور جانبا. وقد أدت محاولة للصقها بالغراء لم تدم غير صباح واحد الى اكتسابه شكلا منغوليا والى اصابته بجرحين عميقين خلف شحمتي الاذن استغرق التئامهما مدة شهر تقريبا.

«كيف حال الطقس اليوم؟
- لم أُخرج كي أُرى.
- اذهب اذن ايها الاحمق! لا، ليس من النافذة. اذهب الى الخارج ثم اخبرني ان كان الجو بارداً».

هبط السلم وردد السلام عليك يامريم وهو يقف على الدرجة الاخيرة من السلم ثم عدّ حتى العشرة وعاد الى الجلوس في الكرسي

الهزاز.

«الطقس غريب اليوم. انه اقل برودة من البارحة لكن المطر لم يهطل بعد وهناك قليل من الريح ايضا.

ـ تقول الشيء نفسه دائما. ومع ذلك فليس بالأمر المعقد ان يقول المرء لأمه إن كانت توشك على الاصابة بالتهاب اللوزتين أم لا. لابد انك تفعل ذلك عمدا. أليس كذلك.. انت تفعل ذلك عن عمد.»

وكان صوتها قد علا.

«انك مزعج حقا يالودو! انك قليل الكلام ولاتنفذ مايطلب منك وتغتسل لاأحد يدري بأي طريقة.. والاهم هو ألا تستدير».

وشاهد نيكول في زجاج النافذة تدفع الاغطية عنها وتتمطى. انت الآن اختي في الدم.. حتى ان كنت غير لطيفة معي فنحن متزوجان.. تاتاف اخي وسأضع دماً في قهوة ابي عندما يعود.. ميشو ليس ابي ولذا لااضع في قهوته شيئاً.

*

وفي منتصف شهر شباط احتفل تاتاف بعيد ميلاده واطفأ دفعة واحدة شموعه الاربع عشرة وتساءل لودو في سريرته عما اذا كان سيستطيع هو الاخر أن يفرغ هواء رئتيه في احد الايام امام قالب حلوى تضيئه الشموع. وكان لودو الذي يجهل تاريخ ميلاده يعتقد بكل بساطة انه مرتبط بأول يوم من السنة. وكانت نيكول قد رفضت اقتراحا قدمه ميشو لاقامة حفل صغير على شرفه «ولكن، الا تعرف ذكرى ميلاد السفاح هي ذكرى مدذا؟ أتريد أن أعطيك وصفاً كاملاً؟» وكان ميشو يحاول تعويض ابن زوجته قدر الامكان عن طريق تزويده بالمال او بالثناء على ذراعيه القويتين. كما كان هو من يزود لودو خفية بأقلام التلوين التي تتيح له فرصة الهذيان على الجدران.

اما في المدرسة فقد كان صفراً في مادة الرسم. كان يخربش صور اطفال رضع يحملون قروناً على رؤوسهم ويرسم منازل غريبة يضع ابوابها في الطابق الثاني. وفي احدى المرات اراد ان يرسم المسيح فلطخ بالالوان هاجسه المفضل: وجه امرأة يبرز جزئيا خلف اصابع متباعدة لكف سوداء فحصل على لوحته هذه على صفر جديد اخر.

وفي المساء، عندما كان يختلي بنفسه في حجرته، كان يضع اللمسات الاخيرة على الوجه المتواري ويداعبه ويتحدث اليه ويشتمه ويزيد دون كلل ولاملل من حدة النظرة التي تبرز من خلف اصابع كان عددها يختلف من كف الى اخرى ويتراوح بين سبع وتسع اصابع. ولكن الشكل العام للصورة لم يكن يتغير: الشعر احمر والعينان بلون ازرق مائل الى السواد وبحجم اكبر قليلا من حجمها الطبيعي.

اعرف جيدا ان نانيت لم تمت كانت ستخبرني لو أنها ذهبت الى هناك في الاعلى.. حين ستعود سأروي لها انني وأمي لدينا الدم نفسه.. ترى ماذا ستقول امي لو عرفت اننا متزوجان كالهنود.

ومع اقتراب موعد عيد الفصح، اضطرت السيدة بلانشار الى ان تباعد بين زياراتها الى الدغلية. انهم الباريسيون الذين يعودون، ففي التاسعة من هذا الصباح، لم يعد هناك اي رغيف في المحل. «ثم انه سيكون هناك خلال العطلة وأنا لااريد رؤيته.. متى سترسلينه الى الدار؟»

وفي عصر احد الايام، كانت نيكول تفرز بعض الملابس في المطبخ وقد نشرت رزمة الثياب على الارض واخذت تفصل ماهو ملون عما هو بيض. وعندما رفعت راسها اليا انتبهت الى لودو الذي كان يراقبها من فرجة الباب دون ان ياتي بأي حركة.

اصلقت صرخة فزع ثم قالت:

«ماذا تفعل هنا؟»

فقال وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

«انها العطلة، حتى الاجراس تذهب الى روما من اجل البيض.

ـ منذ متى وانت هنا؟.. لم اعد احتمل!.. لماذا لاتصدر صوتا عندما تمشي؟.. لست سوى شيطان حقير!... انك تتصرف كالجاسوس هنا. لم اعد استطيع الاحتمال، هل فهمت. ان كنت مجنونا فيجب ان تتلقى العلاج».

وفي الليل، عندما استلقت في فراشها رفضت ان يلمسها ميشو: «امي على حق. انه خطر. يجب ارساله الى دار المجانين. لا اريد ان يأكل معنا بعد الآن. انني اشعر بالخوف عندما يكون موجوداً».

وسمع لودو الذي كان يسترق السمع خلف الباب، كل شيء.

وتبرع به أهله خلال الايام اللاحقة لرجل عجوز من الفلاحين في الجوار وامرأته اللذين أذهلهما بقوته في العمل، بشهيته الكبيرة وبشحته في الكلام وبصرخاته اللامبالية التي ينثرها طوال الليل وكأنها قطع اوراق ملونه. أمضى عشرة ايام في تحميض الجزر وقلع الحشائش الضارة وجني البطاطا وحماية اللهانة من الصقيع وعلق على مذراة قديمة فزاعة اخافته هو نفسه وأقضت مضجعه. ثم عاد ببشرة لوحتها الشمس وقد ازدادت قوته وكان راغبا في سرد تفاصيل رحلته لكن احدا لم يسأله عنها. وكان تاتاف قد غادر عشية ذلك اليوم الى بوردو وترك له سمكة نيسان * ثبتها بدبوس على وسادته للذكرى وكان قد إقتطعها من مجلة تنشر صورا لنساء عاريات. وقد بعثت تلك الصورة السمكية العارية الاضطراب في نفس لودو.

* تعبير سمكة نيسان في اللغة الفرنسية يعني اليوم الاول من نيسان لكن الكاتب استخدم التعبير هنا بمعنيه أي سمكة وكذبة. (المترجمة)

كلمـا مضى الـوقت، تجنبت نيكـول ابنهـا وسعى هو الى رؤيتهـا باندفاع اكبر. كانت ترتب الامور خلال ايام الاسبوع كي يتناول عشاءه بمفـرده وتظهـر انـزعاجها ايام الاحد عند تناول طعام الغداء عندما يمد لها صحنه وهو يحدق الى عينيها. ولم يعد يحصل الا على اسوأ قطع الطعام. اما ميشو فكان يتظاهر بعدم الانتباه الى دوره السيء في هذا الوضع.

وكـانت الهـدنـة تحـل صبـاح ايـام الخميس طرقت البـاب وكانت مستلقيـة في سريـرهـا مستيقظـة ومتـزينـة ووشاحها يحيط بكتفيها. . ابتسمت واحتست فنجـان القهـوة وقالت قهوتك طيبة المذاق كالمعتاد يالـودو. . لم تسألني عن حال الطقس ولم تكن ملابسهـا ملقـاة على المقعـد وحين هممت بالجلوس قالت لاداعي للجلوس انـا سأنـزل الصينية. . خرجت ورأيتها تخرج بعد ذلك مع ميشو ثم عادت بحافلة منتصف النهار وكانت تحمل حقيبتها اليدوية وسمعت في المساء انها تتعلم القيادة وانها تريد شراء سيارة بعد الحصول على اجازة السوق.

مالبث تاتاف أن تغير هو الاخر ازاء لودو واخذ جانب السخرية يتغلب على جانب الصـداقـة في علاقتـه به. كان يستغـل لودو كمـا يستغـل الملك مهـرجـه كي يدفـع الضجـر عن نفسه اولا ولكي يفرغ حقده فيه ثانيا. كان يهوى استكشاف عرينه بانتظام وارضاء فضوله امام الجدران المـزخـرفـة بتلك الأعين البـراقـة. وان حدث وفتـح احـد دواليبه وجد اكـداسـا مثيرة للغثيان وان غامر بالقاء نظرة على درج المكتب عثر على قواقـع وقشـور موز متحجـرة تقـريبـا وقـد غطت كتبـا ودفـاتـر مدرسية. «مكتبـك مخـزن طعـام حقيقي!». وفي مسـاء احد ايام السبت اخرج مزدهيـا امـام لودو، الذي صعقه الذهول وسمره الخجل، قطعة قماش وردية اللون ما ان بسطها حتى تبين انها مشد صدر نسائي.

وسخر تاتاف :

ـ «أأنت من يضع هذا؟ . . . »

تلعثم لودو وقال انه عثر عليه مصادفة، نعم، عثر عليه في الشارع .

«غريب. انا لااعثر على مشد صدر نسائي في الشارع .

ـ حسن . وجدته في الممر، لابد انه سقط من كومة الملابس المعدة للكي . .

ـ لست سوى كاذب! والكذب خطيئة قاتلة . اليسوعيون علموني كل شيء. إن مت وانت محمل بخطيئة قاتلة فستذهب الى جهنم لامحالة» .

وقال بعد ان جرب المشد على صدره المنتفخ :

«لأمك جسم جميل فعلا . . هيا اعترف . قل انك قد سرقته منها!

ـ هذا ليس صحيحا قط .

ـ بل صحيح . ان كنت لاتريد الذهاب الى جهنم فعليك ان تعيده اليها حالا وان تطلب منها العفو. وان لم تذهب انت فسأذهب أنا» .

واخذت اسنان لودو تصطك .

«سأرجعه . سأعيده الى حيث كان» .

قلب تاتاف قطعة الملبس بين يديه كما لوكان يسعى الى ايجاد حل لمعضلة اخلاقية شائكة .

ـ « . . . حسن . . موافق . ولكن عليك ان تعترف بذلك اولا» .

وانتهت المسألة بالنسبة للودو عند هذا الحد . لم يعرف ان نيكول اصيبت بالفزع لدى رؤيتها رافعة النهدين المعضوضة والقذرة التي اكتسبت رائحة نتنة بسبب بقائها داخل درج يحوي فواكه تالفة وقطعاً من الصوصج الفاسد . لقد احست حينئذ كما لو ان احدهم قد انتشل ذاكرتها من أعماق هوة سحيقة وان الذكريات تطوقها من كل جانب ـ

الاصـابـع تتجمـع عليهـا وعينـا ويـل الخضـراوان تومضـان والانفاس والضحكـات تطبق على صدرهـا . سمعت صوت تمـزق فستانها تمزقا لارجعـة فيـه وشـاهـدت المصبـاح الاصفر يتأرجح ورأت شعاعا دمويا يتخثر، وكانت هي التي راحوا يمزقون، اغلقت الدرج ثم اغمى عليها وهي تتقيأ .

لم تروشيئـا لزوجهـا لكنهـا لم تعـد ترغب منذ ذلك اليوم في البقاء وحيـدة مع ابنهـا في المنزل بل رفضت ايضا ان يستمر في إعداد طعام الافطار لها .

كان الطقس خلال شهـر حزيـران جميـلا جدا حتى ان لودو فضـل الذهاب الى البحر بدلا من الذهاب الى المدرسة والى دروس التعليم المسيحي مما ادى في نهاية الامر الى طرده من المؤسستين التعليميتين عقـابـا له على جنـونـه التسكعي ، والى تمتعـه بثـلاثة ايام من السعادة الغامرة سبقت وصول كتاب التبليغ الى «الدغلية» وسأل ميشو: «لِمَ لم تبلغنا بالامر؟ـ لم اكن ادري انه كان عليّ ابلاغكم» . لقد انتهت تلك المشاكل المرتبطة بابن زوجته شديد الغباء هذا الى التأثير في حلمه . وخـلال الليـل ، كان لودو يتقـدم داخـل الممـر ويستمـع اليهمـا وهمـا يتجـادلان بسبب هذا الاحمق الـذي يجعل الحياة لاتطاق . والان بعد ان طرد من المــدرسـة ، سيعيش حيـاة رغيـدة والله وحـده يعلم ماذا سيفعـل ايضـا ! لايمكن لمثـل هذا الـوضع ان يستمر اذ ان بامكانه ان يفعـل اي شيء . واضطـر ميشو الى اعطاء وعد بايجاد حل سريع . كم اود لو حصلت على قطع لبان من نوع «غلوبو» وعلى حوض للاسماك مثـل تاتـاف . . . قالت نانيت سآتيك بكل هذا في اعياد الميلاد ولكنها لم تأت وبـذا لم احصـل على أي شيء ، ليس صحيحـا انها ماتت . . لم تكن تقول اذناك بارزتان لم تكن تقول انك معتوه كانت تقول انت

تملك اجمل عينين خضراوين في العالم وانا لست مجنونا. . انهم يقبلون امهاتهم عند الخروج من المدرسة وحتى آباءهم وأنا لا اريد ان اقبل امي. . حين سيعود ابي سأخبره بكل شيء. . أمي تخبر ميشو بكل شيء وأنا سأخبر أبي بكل شيء وسنكون اخوين في الدم.

*

كان صيفاً حارقاً. وفي عصر احد ايام أب كان تاتاف ولودو يتناولان طعام العشاء وحدهما في «الدغلية» وكانت الحرارة خانقة. كانت عاصفة سوداء اكتسبت لون النحاس تمور فوق بحر هادىء نسيته الرياح واخذت تتهيأ دون ان تصل حد الانفجار.

كان ميشو قد وافق على قضاء النهار في بيت اهل زوجته وقد وعدت نيكول قائلة: «لن نتحدث عن الصبي ثم انه لمصدر شؤم ان يتشاحن المرء بسبب ابله».

كان تاتاف جالسا الى منضدة على الشرفة وقد لف جبهته بمنشفة قطنية وهو ينظر الى قطرات العرق التي بدت كحبات اللؤلؤ على ساعديه.

قال وهو يصب لنفسه قدحا من شراب الليمون:

«لدينا موعد الليلة. »

وسأل لودو:

- «اين؟»

فاجاب تاتاف بنبرة يشوبها الغموض:

«يمكنك ان تأتي ان شئت. الموعد في بيت ميلو. ربما ستحدث بعض الامور. لقد ذهب ابواه لحضور عرس في اركاشون».

وبعد انقضاء عشر دقائق، سمع صوت صفير قوي في الخارج.

«انه ميلو. لنذهب قبل ان يهطل المطر!»

وكـان لقب ميلو الحقيقي هو ميلو ـ الطـائـر وذلك لانه خرج مرة عن الطريق بسيارة ڤيسبا مسروقة وطار بها.

صاح عندما شاهد لودو:

-«انه المجنون!» فضحك تاتاف:

ـ «انـه ليس شرسـاً وحتى ان عض احدا فهو يلعب معه. لقد جلبت معي كمامته ورباطه على اية حال.

ـ وهل أُحضرت القلم؟»

فأُجاب تاتاف:

ـ «نعم، انـه معي». ثم عرض قلم حبـر جاف بأربعـة الـوان وحركه فتلألأ بلونه الفضي. ثم قال عندما شاهد ميلو يمد يده:

ـ «ليس الان ياصديقي..

ـحسن، لنذهب الآن. اياكم واصدار اي صوت فقد كدنا في المرة السابقة..».

ساروا في الطـريق العـام مدة خمس دقـائق ثم انعطفـوا في اتجـاه البحـر بين جثم مرتفعـة كان الغسق المنتشر يدثرها، حتى بلغوا فسحة من الارض تقـع داخـل حقـل يشـاهد فيها منزل ابيض ذو طابقين يمتد باستطالة على الجانبين. وكانت هناك نافذة مضاءة في الطابق الارضي وشبح انسان يروح ويجيء خلفها.

همس ميلو:

«انها تنهي غسل الاطباق ولن تلبث ان تتفرغ لنا».

ثم جلس القرفصاء واشار الى صاحبيه ان يتبعاه.

حل الظـلام سريعـا ومبـاغتـا وكـانت عتمة لزجة تبعث على الضيق تنبعث من سماء سوداء مشبعة بالشحنات الكهربائية.

اتخذ الثلاثة مواضعهم الى الجانب الايسر من الحقل، تحت غطاء ماكنـة قص العشب وراحـوا يراقبـون المنزل. وعندما انطفأ الضوء كي ينبعث أحمَـر هذه المـرة من نافذة ابعد، تحمس ميلو: «هيا . . هاهي جيـزيـل». وشـوهـدت فتاة في حوالي العشرين من العمر تضع قميصا قطنيـا وردي اللون وتنـورة خاكيـة وهي تزيح الوشاح الذي يشد شعرها الاحمـر. فتحت النـافـذة على مصـراعيهـا ثم استنـدت بمرفقيها الى العـارضـة السفلى واخـذت تتأمـل حرارة الجو وتستنشق الهواء بصوت مرتفـع. ثم مالبث المتفـرجـون الثـلاثـة الـذين حجـرهم الانتظار في اماكنهم ان شاهدوها تخلع قميصها ببطء وتتراجع الى الوراء في حركة مسـرحيـة مفخمة لتظهر نهديها العاريين وتقف تحت المصباح المثبت بالسقف. انطلق البرق فبدا وكأنه يشق السماء ثم سالت العاصفة التي كانت معلقـة، فوق الليـل الملتهب. فغـرقت جيـزيـل داخل حزم من اشعاعات مضطربة مبللة. وأحس تاتاف الذي غطته قطرات المطر بأنه قد خدع.

فصرخ ميلو: «ولكن. . ألم تر نهديها الجميلين؟

ـ ولكنك وعدتني برؤية نصفها الاسفل عارياً ايها الاحمق!

ـ انا رأيته وهو اقل جمالاً من النهدين ».

وألح تاتاف:

«ولكنني جئت من اجله هو.

ـ سنراه في المرة القادمة. لاتكن سخيفا . هيا، اعطني القلم.

ـ لن اعطيك قلما مثل هذا من اجل ثديين فقط!»

وقاطع الرعد هذا الحوار الصاخب.

ثم صرخ ميلو بأعلى صوتـه: «اسمـع، ستـزورني بيـرتـوغدا، انها قبيحة ولكن لابأس. انا واثق بأنها ستدعنا نرى نصفها الاسفل.

ـ حسن، متى؟

ـ بعد تناول الطعام وان عاد ابواي مبكرين فسيكون موعدنا في المعصرة».

وانتقل القلم من يد الى يد وبعد ذلك الى جيزيل التي كانت تقايض جمالها بهذه الطريقة بالتواطؤ مع أخ كان يرضى بتعويض بسيط وهو قبلة في الفم.

واستيقظ لودو في تلك الليلة من نوم مؤلم. كانت رؤى تهجس داخله: نيكول في المخزن وجيزيل تخلع قميصها ونيكول تتناول طعام الافطار. ثم سرت موجة في جسده على هيئة دفعات فتدحرج نحو الجدار وتكوم على نفسه ثم عاد الى النوم وهو ينشج.

وفي اليوم التالي، جرى بين نيكول وميشو شجار عنيف. اذ لم يغلق لودو شبابيك الصالة عشية ذلك اليوم مما ادى الى تلف قطع الاثاث.

ـ «وقلمي الجميل متعدد الالوان. لقد سرقه.

ـ هكذا اذن. تريدين اتهام ابنك مرة اخرى دون ان تتأكدي من اي شيء.

ـ وكيف لا اتهمه وتاتاف رآه بنفسه وهو يخرج من حجرتي! . . انه لا يكف عن السرقة وعن التلصص وعن التنقيب في اغراضي . . انه مجنون» ثم قالت اخيرا وهي تخفض صوتها:

ـ «تذكر في الاقل وعدكياميشو؟ . . لن تتملص منه . . ».

فرفع الاخر نظره الى السماء وقال:

«نعم . . لم انسه. الا ان الامر يحتاج الى وقت فقط».

***

الفصل السادس

يعيش لودو الآن في الدغلية كما لو كان يقيم بفندق لايحاسبه فيه احد عن اي شيء لكنه يشعر بالحنين الى المهمة التي كانت موكلة اليه صباح ايام الخميس. كان يلتقي امه احيانا فتحييه كما لو كان احد سكنة الجوار. لم يعد يتردد الى القداس لكنه غالبا مايجلس في الكنيسة فترات مابعد الظهر ثم يغفو. كان تاتاف قد اغرم بفتاة من المزارعين فكان يتعطر ويمضي النهار بأكمله في الخارج وكان لودو يبقى بذلك وحيدا في المنزل بدءا بمنتصف النهار يجوب انـ ـاءه ويعزف ألحانا نشازا على الارغن ثم يأخذ عدد من ثمرات التـ ـاح ويخرج للتنزه في ساحل المحيط.

كان يتنزه فوق الرصيف العائم غير آبه للاسلاك الشائكة ولالعلامات التحذير التي تحمل صور جماجم بشرية. وكان الرصيف في حقيقته انبوباً ضخماً لتصريف المياه ينطلق من البر يمتد على مدى النظر ليلقي الفضلات في عرض البحر. وكان لودو كثيراً ماينام في ظل الانبوب المطلي بالقار الذي قرر استكشافه حتى نهايته.

كان نادراً ماينزل الى الساحل بسبب جفوله من السابحين ا ـذين كانوا يتمرغون في الرمال ويسيطرون على المكان الذي تعود ان يتـ ـكع فيه أيام الشتاء كما يتسكع المرء في داره. كان يفضل الذهاب الى الزوايا المقفرة والخطرة التي يمنع الوصول اليها ويستلقي داخل حفرة

تحت الشمس بكـامـل ملابسـه مسنـداً رأسـه الى الـرمال التي تذروها الرياح ويراقب المد الصاعد الذي سرعان مايحول الشاطىء الى رمال متحركة ولايتراجع الا بعد ان يشعر أنه يوشك أن يغوص فيها . كان يسير بمحـاذاة البحـر على امتـداد السـاحل ويرسم على الرمال الرطبة نقوشاً بعصاه سرعان مايأتي رذاذ الامواج المرتدة ليشوهها . ثم كان يعيد الكرة في أماكن اكثر ارتفاعا ويفجعه ارتفاع الماء الذي يعمل من جديد على اتـلاف مايـرسمـه . وكـان يستمـر بتسكعـه على هذا النحـو متجـاهلاً الشمس ومتنـاسيـاً مرور السـاعـات بينمـا يمضـغ الطحـالب المشوية ويلتقـط صمـامـاً محطمـاً لقنبلة يدوية من الجبس ، ويتخيل أن نيكول ستظهـر عنـد منعطف الـرابيـة التالية وينعت البحر بمختلف النعوت أو يركض حتى اللهـاث ، حتى يصـل أحيـانا الى قوس الرمي فلايلبث أن يجـد نفسـه وسـط الاهداف المنصوبة والرصاصات تئز في اذنيه وجنود في البعـد يصـوبـون بنادقهم اليه قالت ان ذلك لمصلحته . ؟ **يجب أن يعـالـج قبـل فوات الاوان . . انـه حزين لانـه يفعـل كل شيء بطريقة معـاكسـة ولانـه مجنـون . . يالـه من مسكين فهو يحطم الاطباق حين يغسـل الصحـون . . ذلـك غيـر صحيح لم اكسر سوى طبق واحد . . وكان به فطر . . لااحد يعرف اين يقضي النهار سيخلق لنا المشاكل من جديد انه يدرك أنه ليس مثلنا . . ماما تقول إنه سقط وحده . . ولكنني لااريد طفلاً بينما المعتوه في المنزل يجب أن يعيش في مكان آخر . . أنـا لااريـد الـذهـاب الى مكان آخر ثم انني لست مجنوناً** . وكان يعود مدفـوعـاً باحسـاسـه بأن الشمس تنحدر نحو الغرب وانه كان وحيدا مع الضجة التي تحدثها خطواته .

وفي منتصف نهـار احـد الايام تقريبا ، عثر لودو ، على الرمال داخل خليـج صغيـر قرب الـرصيف العـائم ، على رجـل لفظته مياه المد الى

الساحل ، ولم يكن قد رأى في حياته جثة . كان الرجل شاباً برونزي اللون يرتدي قميصاً اخضر وفي يده خاتم زواج وساعة شاهد لودو عقرب الثواني مايزال يتحرك فيها . جلس لودو جوار الميت الذي كانت عينه اليسرى مفتوحة على اتساعها ولمس بشرة الذراع الساخنة بسبب حرارة الشمس التي كانت في كبد السماء . كان الرجل قد قدم عن طريق البحر والبحر هو الذي سيأخذه معه . كان البحر بيته ، بيته الشبيه ببيت الاسكيمو، وكان مخبأه الذي نأى عنه . وحين شاهد الذباب يهاجم شفتيه المزرقتين ، سحبه لودو الى الماء وراقب والرضا يغمره ، الزبد وهو يقتاد ميته . ولم يبح بكلمة واحدة بشأن اكتشافه هذا .

*

«هيا ، تعال لمساعدتي . ادفع معي كي ندخل الدراجة . انها ترفض السير ولذلك فسأسيرها أنا» .

كان الظلام قد خيم حين التقى لودو تاتاف وهو يترنح في حالة سكر شديدة قرب الباب الخارجي .

«يالها من حقيرة! . . قالت انها لاتضاجع السمان وانني سمين وغير وسيم بل انني احمل بثوراً سوداً على انفي ايضا . ولكن بيرتو قبيحة ومن المفترض بقبيحة وبسمين ان يتلاءما .

- انا الآخر لست وسيما ثم انني . . . يبدو انني مجنون .

- ويهودي أيضاً» .

فأجاب لودو الذي لم يكن يعرف الكلمة :

«حقا؟

- نعم . يهودي حقير والماني حقيقي! لم اعد اعرف ان كان المرء المانيا فهو يهودي او ان كان يهودياً فهو ليس المانياً . ولكنك ابله حقيقي ايها الاحمق!»

ودمدم لودو الذي كان سعيداً لتطويعه كلمات لم تسبق له معرفتها:
-«. . . يهودي حقير» ثم أضاف وهو ينظر اليه مستغرباً:
-«وماذا يعني ذلك؟
- حين تكون يهودياً . . يقطعون لك ذكرك؟
- هذا ليس صحيحا مطلقاً.

- بل صحيح . وبذلك فهو يقصر. الا ان ذلك لايهمني ولا يمنعني من ان اكون سميناً.
- هناك من هم اسمن منك ثم انك اقل سمنة من ذي قبل».
قهقه تاتاف تاركا نفسه يسقط على العشب:
- « انا اعرف مابي . انه مرض. جسمي كله ماء. انتفاخي سببه الماء. بامكانك الآن ان تدعوني السيد الواحة. واذا مااستمر ذلك فسألد نخلة ايها الاحمق! عكس المسيح الصغير. فأنا اشرب الخمرة واحولها الى ماء. اين امك؟
- لاادري.
- . . ذهبت مرة اخرى لزيارة ابويها العجوزين، ولكنني لااصدق ذلك. فذلك الوالد الذي يعيدها الى البيت مساءً بالسيارة يجعلني اتلوى من الضحك. هيا، تعال سنذهب اليها.
- ومن هي؟

- لاأعني امك ايها الغبي؟ سنذهب الى البالوعة. الانسة بالوعة. اننا محظوظان، اذ ليس هناك احد كما ان ميشو في بيت الخوري مع جوق المنشدين.
- لااريد الذهاب.
- بل تريد. وسنشرب معاً أنا وانت. انك لا تشرب كثيراً مقارنة

بسنك».

فقال لودو بفخر:

«عمري ثلاثة عشر عاما وطولي متر وثمانون سنتمترا.

ـ هذا يعني انــك ابله طويل، هذا كل شيء». قال تاتـاف الـذي كانت اقصى نقطـة في قامتـه تقل عشرة سنتمترات عن اقصى نقطة في قامة لودو.

سارا عبـر المنـزل ولـودو يسنـد تاتـاف الـذي اراد المـرور بقبـو المشـروبـات حيث اسقـط عدداً من القنـاني ثم تنـاول زجاجة تحوي كحـول المـوز ثم خرجـا من باب المطبـخ ومـرا بمحـاذاة الورش التي اشبعها تاتاف ركلاً بقدميه:

«هذه الورش الحقيرة، كان بامكانهم وضعها في مكان آخر».

كانت عتمة شفافة تنير المزارع وتجعل النجوم في متناول اليد حين وصلا أرضا مواتا نبتت فيها مجاميع من نبات الصبير.

قال تاتاف وهو يغلق أنفه: «نهاية الخط!»

وهنا يشاهد المرء على العشب إطاراً خشبياً على شكل مثلث أشبه مايكون بالباب القلاب وقد ظهر في وسطه غطاء يشبه غطاء آنية الحساء نقشت عليـه نقـوش تمثـل اغصان اشجار. رفع تاتاف الغطاء فانبعثت الرائحة النتنة ثم وقف على حافة البالوعة وهو يعب من قنينة الكحول.

«جاء دورك الآن».

ومـا ان ارتشف لودو شيئـا من الكحـول حتى بدا وكأنـه قد وقع على اكتشاف رهيب. دفع رأسه الى الوراء فشاهد العوالم تغرق في دوامة. وكان واثقاً بأنه كان يغرق واقفا، داخل دواة كانت ذاكرته ترقد فيها.

اعاد تاتاف الباب القلاب الى موضعه وأخذ يحوم حول البالوعة.

«اين ذهب ياترى؟ لااستطيع رؤيته، تعال لمساعدتي».

كان منحنياً الى الامـام مستنـداً بيـديـه الى ركبتيـه وهو يحدق الى البالوعة المفتوحة وكانت بضع ذبابات ضخمة تحوم وقد دوختها الروائح .

«وماالذي لا تستطيع رؤيته؟

- إنه الشبح ! . . يحدث أن نراه حين يكون الطقس جيداً .

- وماالشبح ؟

- انظر، أعتقد انه هو ، انظر!»

أمسك تاتاف بيد لودو على حافة البالوعة وراح يحاول إسقاطه فيها . واذ حاول الاخير وهو في حالة ذعر، الابتعاد عن الحافة، انزلقت ساقه فما كان منه الا أن دفع تاتاف كي يحمي نفسه من السقوط وبذا تدحرج الاخير الذي لم يستطع الثبات على قدميه داخل البالوعة وهو يصرخ .

«تاتاف . . تاتاف هل انت بخير ياتاتاف؟

- اخرجني من هنا ياليديو*، اسرع . . . اخرجني من هنا . . .»

انبطح لودو على بطنه ومد له ذراعه وكاد يلمس يد ذلك الماكر بعد أن بدأ يراه على نحو واضح .

«سأحضر العصا، لن أتأخر.

- لاتتركني وحدي ياليديو، اريد ان اخرج، لا تذهب» .

وهرع لودو في اتجاه الورش وصرخات تاتاف تجري في اثره . لم يجد العصا ثم تذكر ان ميشو قد اخفاها وهو يعلن غاضباً انه لم يعد يحتمل ان يكون له ابن يعمل في تنظيف البالوعات . الخطأ خطؤه . . هو مرة اخرى . . هو الذي قتله . . ماما تقول انه سقط وحده . ثم جرى حتى المنزل الذي كانت جميع انواره مضاءة ولكن لم يكن هناك احد

---

* ليديو في الفرنسية تعني الابله وترد هنا تحريفا لاسم لودو . (المترجمة)

فيه. لم ينتبه لودو الى انه كان يصطدم بقطع الاثاث والى ان آنية للزهور قد سقطت وتحطمت عند مروره بها. خرج مرة اخرى ولم يسمع صوت تاتاف فعاد الى المكان مرتعبا وهو يعدو بأقصى سرعته:

«تاتاف، تاتاف، أأنت هنا؟»

وقف فوق البالوعة الا انه لم يسمع غير طنين الذباب. يجب العثور على ميشو. فاتجه نحو الشارع حائراً، مشتت الفكر تحت تأثير الكحول وتأثير القلق ثم انحرف نحو اليمين، بسبب ذكرى، ذكرى واحدة تضع الكنيسة الى اليمين عند مغادرة المنزل، نعم، وبعدها بيهاك، وبعدها التلة والبحر، وبعدها.. ولكن كيف يمكن استخراج ذكرى من مخبئها وهو يرى هذا الجمع الكبير من النجوم.

بدت صالة التعليم غارقة في مزيج من الاضواء ومن الترانيم وشاهد اطفال الجوق برؤوسهم الحليقة وفتياتُ الكورس والكاهن وميشو الذي كان جالساً بكل زهو يقود ارغنه كما يقود الطيار طائرته شيطاناً طويلاً يعدو فزعاً ويصرخ دون ان ينظر الى احد ويحدق الى القبة التي تدلت منها متأرجحة ملائكة ورقية بقيت معلقة في مكانها منذ عيد الميلاد السابق: «ت ا ت ا ف .. ت ا ت ا ف س ق ط ف ي ا ل ب ا ل و ع ة».

ولم يصل رجال المطافىء من مركزهم في بوردو الا بعد عشرين دقيقة انتشل ميشو خلالها ابنه بواسطة سلم ورافعة كانت معروضة في محله. واستفاق تاتاف من الغيبوبة التي ذهب فيها بسبب الغازات النتنة وبسبب الصدمة وهو يرتجف وقد تمدد عاريا على العشب.

وما ان عاد الى وعيه حتى اكد ان لودو هو الذي دفعه داخل البالوعة وانه سينتقم منه إن عاجلا أو آجلا.

وجهت نيكول نظرات رقيقة جدا الى العريف الذي جاء لكتابة

المحضر حتى انه شعر بالبهجة «انها امرأة لطيفة جداً، اليس كذلك يابوسار؟ اذ كنت تخشى المشاكل، ضعه في الدار. . » وتشدد رجل الشرطة في استجواب لودو فقال الطفل انهما احتسيا خمر الموز بصحبة شبح وان الشبح هو من اسقط تاتاف.

وفي اليوم التالي تراجع الاخير عن اقواله دون اصرار كبير وقال أن نيكول تخلط الامور دون ان تكون لها معرفة بحقيقة ماوقع.

«أقلت انه دفعك ام لم تقل ؟

ـ لايمكن الرؤية جيداً في الظلام. .

ـ لاتريد ان ينزل العقاب به، أليس كذلك؟»

فقال ميشو:

«دعي الامر الآن. . فهو ليس خطيْراً على أية حال.

ـ ستكون سعيداً ان حدثت مأساة. سيعم الرضا عندئذ. سيسر وستسر انت وسيكون الجميع مسرورين. هذا ماتؤول اليه الامور عندما يعيش المرء مع مجنون!»

وانتهى الميكانو بدوره الى الشك ايضاً. ماذا لو كان الصبي خطراً بالفعل؟. . ماذا لو كان مجنوناً وانه ينبغي حجزه؟

وعوقب لودو بتناول الخبز وحده لكن تاتاف كان يزوده بالطعام خفية باعطائه البقايا العائلية حينا أو حبيبات تستخدم غذاء للارانب كان المعاقب يعتقد انها قطع بسكت حيناً أخر.

❋

وتألقت نيكول خلال الايام اللاحقة بسبب ابتعاد لودو. كانت تقول لميشو: «ليس الامر بهذه الدرجة من التعقيد! ماعليك سوى اتخاذ قرار بشأن المجنون. انت الرجل هنا ـ ولكن اي قرار. . ـ انت تعرف جيداً. لقد وعدت». وعندما كان يلتئم شمل العائلة يوم الاحد على

مائدة الغداء كان التوتر يشتد رغم الجهود التي يبذلها ميشو.

انجز لودو مهمة الحصاد ونام عشرة ايام في مخزن لحفظ الكلأ وربط حزماً من القش وحمل اكياساً معبأة بالحبوب واصطاد ارنباً بريا بأن وثب عليه ولم يفهم تحرشات عاملة موسمية وهي طالبة حقوق كانت تأتي كل مساء لتنازله وتتحداه في قوته. كان في الثالثة عشرة من العمر تقريبا، سفعته ريح البحر وقدّ جسده العمل في الحقول وانجاز المهمات الصعبة وكانت بنيته الشبيهة ببنية سباح بكتفيها العريضتين تبدو منحنية الى الامام وكأن صاحبها كان يخجل من التنفس. وكانت ساقاه اللتان تبرز على سطحهما عضلاته الطولية تتمتعان بسرعة عظيمة وبحركة رشيقة. وكان شلال القوة هذا ينصب في الرقبة بغزارة وحشية لاتنبىء بدقة عن تلك القسمات التي يتنازعها القلق وذلك الفم الحائر وتلك النظرة الحزينة ذات الألق النابع من اعماق المحيط. كان أمرد وهي صفة كانت مبعث سعادة لتاتاف الذي كان يجز بآلة حلاقة الزغب الخفيف الذي كان ينمو على وجهه.

وحصلت نيكول على رخصة القيادة منذ الاختبار الاول. ولان القصاب كان يقود سيارة مرسيدس فقد ارادت هي سيارة فلوريدا بيضاء ذات سقف متحرك ومقاعد جلدية وقداحة للسجائر ومذياع. وكانت تختفي في بيهاك خلال فترات العصر هاربة من ارغن ميشو، هاربة من تاتاف ومن لودو الذي كانت تكبله بالاعمال الصعبة.

وكانت السيدة بلانشار تقول: «آه... انها انت» ثم تجلس الام وابنتها في الجزء الخلفي من المحل تحتسيان اقداح القهوة بالحليب حتى المساء، ليس لانهما كانتا تشعران بالظمأ بل لانهما كانتا ترويان ما تحملان في داخلهما من مرارة يجمعهما شعورٌ باقتسام سرّ ما.

«اعترف انك لم تكوني محظوظة. تلك القصة اولاً مع.. والآن هذا

الصبي المجنـون. والجنـون لم يرثـه منـا. ليس فينـا من هو مجنون. لست محظـوظـة حقـاً . . سيسـر ابـوك ان بقيت لتنـاول طعـام الغـداء معنـا» . . وكـانت السيـدة بلانشـار تعد الحساء بينما تصعد نيكول الى حجـرتهـا. كانت تمنـع نفسهـا من التعريج على المخزن وهي تحس بقلبها يخفق بشدة. ولمرة واحدة، واحدة فقط، تجرأت وعرّجت على المخـزن مدفـوعة بتلذذها بالشعور بالألم. كان مكاناً ملعوناً ترك ليدي النسيـان. لم تتغيـر رائحتـه، رائحـة لكلب ميت جعلهـا العفن نفاذة. كانت الـريـاح تصفـر من خلال الشبـاك الـذي تزحـزحت زجاجته عن مكـانهـا. وكانت طبقة خضراء قد انتشرت كالغيمة وتموجت مع تموج الفـوضى التي لم تمسهـا يد انسـان منذ أن تركها آخر ساكن فيها. كان هنـاك بعض المـلابس التي تكومت دون نظام امام الدولاب المفتوح. وكـانت المغارة القماشية المتهرئة والشبحية ماتزال تزعج ألواح السقف وكـان وعـاء الفضـلات والحـوض وعـربـة الطفـل والخـزانـة والخوف والسنوات وكل ذكريات تلك الطفولة الملعونة، كانت كلها حية هناك، خبيثة، تقلق آلهة الصدفة التي اضاعتها.

وانتظـرت نيكـول بذاكـرتهـا المتـوقـدة ان تتبـدد الرؤيا، ان تتوقف الصرخات وان يكف جسدها الممزق عن الاحساس بالألم وان ينحسر الشعـور بالخـزي. الا ان شعـورها بالخزي كان يهاجمها دون توقف، يوقظهـا من رقـادها ليلاً وكأنه ضمير ساخر، وماكان يلقي السلاح طوال ثلاثة عشر عاماً الا كي يحاصرها بقوة اكبر.

عادت الى «الـدغليـة» دون ان تقـدم اي تبـريـر وكـادت تصطـدم بالمخبـز بسيـارتهـا وهي تدور داخل الباحة. عادت بأسرع ماتستطيع، ولم يكن ابنهـا هنـاك، احتست كأسا من شراب «السوتيرن» ثم كأسين أخـريين ثم عبت الـزجـاجة نصف المملوءة حتى الثمالة وتوجهت بعد

ذلك الى الحديقة وكان لودو متكوراً داخل بيت الاسكيمو.

«تعال. سنقوم بجولة».

كانت تلك هي المرة الاولى التي يستقل فيها سيارة الفلوريدا. خدشت نيكول الدعامات الحجرية وهي تجتاز الباب الخارجي ثم سارا بسرعة كبيرة في الطريق المؤدي الى بيهاك وحاذيا الطريق الساحلي الذي يؤدي الى شواطىء السباحة وشاهدا الميناء الصغير وراء علامة على شكل سهم ومرا بالقرية دون ان يخففا من سرعة السيارة الاقليلا ثم عادا ادراجهما نحو التلة وسارا في ارض فسيحة مليئة بالنتوءات تنتهي بمنحدر صخري. وضغطت نيكول على الكابح بقوة حين وصلت الى حيث الفراغ. وكانت تلهث بعنف.

«هيا انزل».

اقترب لودو من حافة الهاوية وتبعته امه التي عقدت ذراعيها بسبب البرد. وكان رجع ارتطام الامواج بالمنحدر الصخري يسمع تحت اقدامهما.

«هل جئت الى هذا المكان من قبل؟

- لا.

- لم يكن هناك غير طريق واحد للسيارات في السابق. وللمشاة ايضا. الا ان عددهم لم يكن كبيراً».

التزم لودو الصمت وقد خفض بصره وكانت شمس المغيب امامه، في جهة الغرب تماما، تلامس الأفق.

«لم يكن المكان امينا. كان هناك الكثير من الغرباء المتسكعين. كنا نأتي هنا خصيصاً لمشاهدة اضواء الفنارات. انها ليست مضاءة الآن لاننا جئنا مبكرين قليلا.. هناك كوردوان.. ويمكننا ان نشاهد، ان كانت الرؤية واضحة.. الاشارة العائمة لارشاد السفن.. قرب سان

ـ بيير تماما .

ـ وهنـاك ، ماهـذا؟» سأل لودو فجأة وهو يشير الى جهة اليمين حيث شاهـد سيـاجا متفاوت الارتفاع ثبت بأوتاد متقاربة تكاد تضيع في البعد الضبابي . ولم تجب نيكول . والح لودو: «ماهذا؟»

فأجابت بحدة :

«انها قاعدة عسكرية ، الاترى ذلك!»

فصاح ماداً يده في ذلك الاتجاه :

«وهناك علم فرنسي ايضا ومنازل بيض .

ـ وماذا في ذلك!»

ثم مالبث ان حسمت الموقف حين قالت بصوت أبح :

«هيا ، تعال ، اشعر بالبرد» .

ركبا السيارة من جديد فتوترت اعصابها بسبب محول السرعة الذي لم تكن تعرف قط كيف تستخدمه ثم راحت تصب جام غضبها على المقود .

«اشعر بالظمأ ، هيا بنا نتناول شيئا . هناك مقهى قريب . . الشنال ، هل تعرفه؟

ـ ومن هو؟

ـ انه يقع قرب الميناء على بعد خمس دقائق من هنا» .

وسارا على الطريق الساحلي المؤدي الى بيهاك .

«نحن في فلوريدا فعلا بهذه السيارة ، ألا تعتقد ذلك؟

ـ انا قدت الجرار في الحقل . .

ـ اعرف ذلك . قدته مرة واحدة وأستدرت به في مكان ضيق جدا حتى ان العجلة الخلفية خلعت المقطورة من مكانها فتبعثرت الحبوب كلها في الساقية .

ـ هذا ليس صحيحا مطلقاً!».

كان مقهى الشنال يقع في مواجهة الميناء وقد اقيم فوق فسحة ارض ترابية مستوية تستخدم صيفا لاحتساء المشروبات وتقديم العروض الراقصة. لم توقف السيارة في المكان المخصص لها بل اكتفت بتركها امام المدخل، ثم وضعت نظارتها الشمسية وانزلت لودو.

«الحرارة خانقة اليوم!..»

ولم يكن صوتها طبيعيا. ثم اضافت:

«سر امامي».

وعندما بلغا باب المقهى كانت قد دست يديها في جيبي سترتها واخذت تختبىء خلف ابنها وتوجه خطاه بصوت خفيض والذكريات تصحو في داخلها. كانت تبدو كأنها غريبة عن تلك اللحظة. سارا داخل صالة واسعة كانت الطاولات فيها مرصوفة تحت فتحات اغلقت بالزجاج. كان هناك رجلان وامرأتان يتسكعون على الفسحة الترابية متعانقين، وكانت «غلوريا لاسو» تجأر في مكبرات الصوت. نظر عدد من الشبان الذين بدا عليهم الخدر والخمول الى هذين الغريبين اللذين جلسا بشكل آلي. وبدت نيكول جذلة وهي تملي طلباتها:

«آتينا قدحا من السوتيرن واخر من الجعة..» وكانت نادلة المقهى امرأة في حوالي الستين من العمر، جافة سمراء شبيهه بامرأة هندية عجوز وكانت اجراس لعبة الفليبرز تصرخ وصوت تدحرج وارتطام كرات البولنغ يعذب طبلة الاذن وكان يمكن رؤية السفن، من خلال النافذة، وهي تعود متجهة الى رصيف الميناء. غطت نيكول فمها باحدى كفيها ومضت تراقب لودو الذي شعر بالضيق بسبب النظارة السوداء التي

ألفت وجود العينين . . وحملت نادلة المقهى قدحي الشراب اليهما.

قالت نيكول ببشاشة :

ـ «قدح الجعة لك . اعرف انك تحبها» .

ولم يكن لودو قد تذوقها من قبل . حاول انهاء هذا الشراب ذي الطعم المر الذي كان يدفعه الى السعال . اما هي فقد احتست قدح النبيذ الابيض دفعة واحدة .

«لقد تغير النظام هنا ، لم تكن كل هذه الآلات وكل هذه الضجة موجودة في السابق . كان يمكننا التحدث دون حاجة الى الزعيق . أيعجبك المكان؟»

فأجاب لودو الذي كان شارد الفكر بسبب الاغاني :

ـ«ـ انه مكان لطيف .

ـ والدة صاحب المقهى هي التي تخدم الزبائن . لم تتقدم كثيراً في العمر . كان الجميع يخافونها في السابق . كانت تطرد السكاري خارجا ولم يكن احد ليعترض . كانت تحبني كثيرا وتسميني «شمسها» مع انني لم اكن اتردد كثيرا الى المكان الا في اثناء الصيف بعد الذهاب الى الساحل . كنا نشرب عصير الرمان بالليمون وهم يدعونه الان «ديابولو» . كان ابواي يعرفانها ايضا . وعندما كانت تقام حفلة ما او حفل زواج كان لي الحق في حضورها بصحبة ماري ـ جو . . »

وسأل لودو فجأة :

ـ «ومن هي ماري ـ جو؟»

صمتت نيكول كأنها شاهدت شبحا . ثم استأنفت بنبرة كسيرة :

ـ «لقد نسيتك . ظننت اني نسيتك . . الجو هنا حار بعض الشيء» .

وطلبت قدحا اخر من المشروب نفسه ثم اخذت تدخن.

«كنت في الثالثة عندما بدأنا نلعب معا. كانت تقول لي إن يديّ قبيحتان لانها كانت تغار من شعري..»

وغمغم لودو وقد طرب لصوت امه الذي بدا كأنه قادم من بعيد.

«انهم يغارون.

- كانت تشعر بالغيرة مني دائما. كنا نملك مالاً اكثر منهم وكان والدها عاملا في الورشة البحرية. كنت املك فساتين جميلة وأحذية انيقة وكان هذا يملؤها غيظاً. ومع انها تكبرني بسنتين لكنها اقصر مني وكان هذا يزعجها ايضا. كانت تحاول تقليدي في كل شيء فتراها ترتب شعرها مثلي وتتحدث مثلي وتفعل كل ما افعل. ان وضعت مشابك شعر وردية فعلت هي الشيء نفسه وان حملت حقيبة يد عند الذهاب الى القداس حملت هي واحدة ايضا. كانت تقول للاولاد اننا شقيقتان الا انهم كانوا يسخرون منها.. اذ لم نكن نشبه بعضنا في شيء على الاطلاق».

راحت نيكول تطفىء سجائرها بعد اشعالها مباشرة وبعد ان تسحب منها انفاسا طويلة وتتحدث وتصمت وتنظر بعصبية الى الجانبين. وارتخى لودو تحت تأثير الكحول فابتسم لأمه وبدأ الخدر يدب في اوصاله.

«... ثم ذهبت الى المدرسة الداخلية ولم نعد نلتقي انا وصديقتي الا في اثناء العطل. كنا نذهب الى الساحل معا وغالبا ما نلتقي في مقهى الشنال. هنا التقيناه انا وماري - جو، على تلك الطاولة التي تقع الى جانب البولنغ. كان يثير ضحكنا بلكنته..»

وسأل لودو دون سابق تفكير:

- «ومن هو؟»

فقالت نيكول بصوت كسير:

«ولكن عجبا. . إنه الامريكي».

كانت نظارتها السوداء تلمع رغم الدخان المتصاعد من منفضة السجائر التي امتلأت بالاعقاب. اخرجت قلم احمر الشفاه وتزينت بتمهل وكان تيار السحر الذي كان يسري بينهما قد انقطع. وحين احس بالنظرة اللامرئية تقع عليه حاول لودو ان يبتسم من جديد فبدت نيكول كأن شللاً قد اصابها. تقلصت زاويتا شفتيها المخضبتين واطلت دمعتان تحت النظارة وراحتا تتدحرجان بهدوء على خديها. تأثر لودو فمد يده نحو امه التي سرعان ما ابتعدت الى الخلف بكل عنف دافعة المقعد جانباً.

«لاتلمسني ايها السافل» صرخت بصوت مجنون ثم اتجهت نحو باب الخروج وهي تترنح.

* * *

الفصل السابع

غادر تاتـاف في نهـاية الصيف الى المـدرسة الداخلية وامضى لودو الخريف في انجاز عدد من الاعمال اليدوية كان ميشو يطلب منه انجازها يوما بعد اخر. اقتلع جذوراً وردم حفراً وشق اخاديد لتمرير الاسلاك الكهـربـائية وكشط طلاء الشبابيك ثم اعاد طلاءها من جديد الا ان اللون لم يرق لهم فاضطر الى اعادة الكرة مرة اخرى. واستعان الكاهن بقوته العضلية لاسناد السقف الذي كان يوشك ان يسقط ويسرب المياه عند اول هطول للامطار فبلغت النتائج درجة من الروعة اقنعته بضرورة الاستفادة من هذا الصبي ذي القوة الخارقة والكلفة القليلة لانجاز بعض الاعمال البسيطة. اما فيما يخص الاجر فقد دعا لودو ذات مساء لتناول طبق من الاومليت معه. وقال الخوري لميشو «لايبدو الصبي شريراً ولا حتى مجنوناً. لنقل انه خائف».

وخلال تلك الفترة، ثارت ثائرة نيكول عليه عدة مرات دون ان تكون مدفوعة الى ذلك بغضب حقيقي كما لو كان الطلاق قد تم بينهما فعلا وكما لو كانت الـدملة قد افرغت من قيحها وكما لو كان الامر لم يعد يستحق الغضب. وكانت عندما ننام تغلق بابها بالمفتاح.

وفي شهر تشرين الاول، احس بألم في اسنانه الا انه لم يجرؤ على

الشكوى فاقتاده ميشو الى مستوصف في بوردو بعد ان انتبه الى وجود ورم في خده وهناك اكتشف ان عشراً من اسنانه منخورة وان نخر بعضها قديم، عمره ثماني سنوات. واستغرق العلاج شهرين. كان لودويعاني ايضا من تحرقات في المعدة لم يكن يتحدث عنها قط ارادت بيرتو ان **تتمشى قليلا في الدرب الريفي الا ان صديقتها لم تشأ ذلك وقالت لا. ليس معه، انه المجنون. . ليس صحيحاً انني مجنون فانا اعرف القراءة والحساب. . انا استخدم ذاكرتي جيدا والفتيات سخرن عندما قرأت السلام عليك يامريم الى آخرها. . انت ترى انه مجنون فهو يأتي دائما للتلصص امام المدرسة وفي الواقع فان امه لم تعد تريده.**

وسمع ذات ليلة صوتي نيكول وميشو فنهض كي يسترق السمع. قال ميشو:

«أنا اريد. لايمكنني ان انام عندما اريد.

وأنا لااريد. مادام انه هنا فلن اريد.

- انت لاتريدين اذن؟

- حتماً لا! أأنت من يعاني من الكوابيس، وطوال الليل احيانا؟ لديّ احساس بانني لاانام وانني مستيقظة تماما. انني ارى اعينا خضراً تنتفخ كالبالونات وفي كل بالون ترى المجنون، ترى المجنون بعينيه الخضراوين اللتين تحومان، طوال الليل».

وسمع ميشو يتنهد ليقول بعد فترة من الصمت:

- «لديّ فكرة.

- انك لاتعدم الافكار البتة.

- لي ابنة خالة لم التق بها منذ زمن بعيد تعمل في دار للمجانين. لااعني انها دار للمجانين تماما، فهي تعنى باطفال الاغنياء الذين

يعانون مساً في الدماغ.

- ولماذا لم تحضر العرس ان كانت ابنة خالتك حقاً.

- انت التي رفضت دعوة احد».

فرق صوت نيكول:

- «ولِمَ لم تقل ذلك قبلاً؟

- لم افكر في الامر. كنت اظن ان وضع الصبي سيتحسن. سأكتب الى ابنة خالتي وسنرى.

- اتفقنا اذن ياميشو.

- وسنعيده في أيام الاحاد وخلال العطل ولن يكون تعساً.

- ثم سيبقى الامر ضمن العائلة ولن يكلفنا كثيراً».

مرت بضع لحظات لم يسمع خلالها اي صوت ثم مالبثت نيكول ان استأنفت بصوت هامس:

- «هي دار للمجانين اذن!

- انهم ليسوا مجانين بل يعانون مساً خفيفاً. ثم انها دار خاصة. ابنة خالتي ممرضة ويبدو انها كانت على علاقة بالمدير قبل ان يموت.. سيكون الصبي بخير هناك.

- انها فكرة جيدة حقا ياميشو. فكرة جيدة حقا. هيا تعال ان كنت تريد».

❋

وعاد تاتاف في منتصف شهر كانون الاول لقضاء عطلة اعياد الميلاد ورأس السنة. وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر قال للودو بنبرة ماكرة بعد ان تناول طعام الغداء معه:

-«لدي اقتراح لك.

- ومامعنى اقتراح؟

ـ ان نقوم بجولة عند البالوعة كي نحتفل بعيد الميلاد. . هل انت موافق؟»

فرفض لودو متذرعاً بترتيب المائدة وتنظيف البازلاء.

ـ«انك خائف . نعم. خائف . ولكنني احذرك. ان لم تأت معي. . »

ثم غمز بعينه غمزة ماكرة واحتسى قدحاً كبيرا من الجعة قبل ان يختفي طوال فترة مابعد الظهر.

وفي ذلك المساء، كان الجدّان بلانشار قد تخليا عن تعنتهما بشأن ليلة عيد الميلاد بعد الاتفاق على ان لايكون الولد السفاح موجوداً. لكن تاتاف اضاف صحن لودو الى المائدة دون استشارة احد: «هذا يكفي الان، أريده ان يكون موجوداً!» ثم ذهب بعد القداس كي ينتزع لودو من سبات عميق بسبب المنوم الذي اعطته اياه امه كي تحتفل بعيد الميلاد في سلام. فقهقه وهويزيح الغطاء عنه «لم تشأ مرافقتي الى البالوعة. والآن انهض! انه عيد الميلاد ولديّ مفاجأة لك. . »

كان الديك الرومي محروقاً وفصيد لحم الدجاج غير مطهي بشكل جيد وكان مزاج نيكول عكراً جداً «لوكنت قد استمعت اليّ في الماضي ياابنتي لكنت الآن في حال افضل ولما كنت الآن أماً لطفلين.

ـ دعيني وشأني ياأماه.»

وقال ميشو كي يضع حداً للتوتر:

«ـ هيا، انه عيد الميلاد!

ـ وعيد الميلاد هو عيد الميلاد» قال السيد بلانشار الذي حرص على الا تلتقي نظراته بنظرات السفاح على الرغم من انه كان قد اقسم انه لن يراه أبداً.

كانت شجرة التنوب تتوهج باللونين الازرق والاخضر وتلقي بانوارها على الارغن وكان هذا يضغط على اعصاب نيكول وعلى ذكرياتها ايضاً: كانت اضواء الفنارات تومض هي الاخرى وتلقي بوهجها على سطح البحر وكانت تومض داخل رأسها ايضا كلما تتابعت الذكريات. انها تمقت الفنارات وتمقت شجرات التنوب وتمقت الذكريات.

وعندما حان موعد تناول الحلويات قطع ميشو حطبة عيد الميلاد التي احضرها السيد بلانشار معه واحتسى الجميع زجاجة شمبانيا ثم تبادلوا هدايا العيد فحصل تاتاف على طائرة ذات محرك يوجه عن بعد وعلى علبة من نوع جديد من قطع اللبان، «ليه مالابار»، وعلى كتاب مقدس مطبوع في القدس وعلى ظرف سارع الى فتحه كي يرى مقدار مافيه. وفتح الكبار هداياهم بجلبة وقد دب الاسترخاء في اعصابهم تحت تأثير الخمر الفوارة فحصل السيد بلانشار على قصبة صيد جديدة وحصلت نيكول على حافظة نقود من جلد التمساح وحصل ميشو على بندقية ونشستر. وفجأة صاح تاتاف معلناً أن دور أخيه قد جاء.

كان الميكانيكي قد غلف كيفما اتفق لعبة المهرج التي أهداها الى ابن زوجته عشية ذلك اليوم، من اجل الحفاظ على المظاهر ثم قال بصوت خفيض كي لاتسمعه نيكول «باسم العائلة» فاسترجع لودو المهرج من جديد.

واعلن تاتاف: «هاهي هديتي.. يمكنك ان تأكلها.. وهنا اكرر: يمكنك...»

قدم له متضاحكاً علبة جميلة ربطها بشريط مذّهب فبدت كعلبة حلوى من نوع بورجوا وشغل ماكنة الضحك ثم صفع لودو وقال: «تذكر مافعلت».

وما ان فتح لودو العلبة حتى تعرف على رائحة البالوعة النتنة فغاص

قلبـه. وانتشـرت الـرائحـة الاخطبـوطيـة العفنة على شكل ابخرة نفاذة لأجبـان وخمـور فاسـدة ثم تحـولت الى رائحـة اقـل حدة أشبه برائحة الكنيف فتسمر الجالسون في أماكنهم.

صرخ ميشو بقوة:

«ماذا فعلت بحق السماء؟»

وكـان الهيكـل العظمي الازلي الابيض الـذي يعرفه لودو جيداً يقبع في قعر العلبة على فراش من القاذورات.

وصاح تاتاف:

«انه انتقامي. قذارة بالحلوى دون حلوى. انها بالوعة حقيقية...»

ارتعشت نيكـول وعضت شفتيهـا ونظرت الى ابنها، ابنها هي الذي بدا مأخـوذاً بفعـل المنـوم وبفعـل الغبن وكم بيجامته يسبح في صحن الحلوى. هو، الـذي وضـع قبـل ساعـات امام باب حجرتها حزمة من نبات الفوجير المعقود بنبات العكرش.

وردد تاتاف وهو يقهقه:

«انهـا بالوعة حقيقية...» فباغتته صفعة قوية بثلاث اصابع ونهض ميشـو واقفـاً وهـو يرتجف غضبـاً واستعـرض الجـالسين بنظره ثم صاح بصـوت أجش: «اغـربوا عن وجهي.. اغربوا عن وجهي كلكم» وكان هو الذي خرج.

*

وفي عمق الظلام الدامس راح جسد ما يتحرك متلمساً طريقه. تقدم لودو في الممـر وهـو واثق بأنـه سمع نيكول وميشو يتناقشان. كان تاتاف نائمـاً في الحجـرة المجـاورة وهـو يصـدر شخيراً كان قد لازمه منذ عيد الميـلاد السـابق وبـدا وكأنـه يصـدر عن ماكنة زيتت جيداً وكان شبيهاً

بصوت محرك الطائرة التي احتضنها تاتاف خلال الليل وكأنها طفل صغير.

«ليس الذنب ذنبي ان كانت الرسالة قد عادت.

- ولماذا قلت انك بعثتها؟

- ولكنني كنت واثقاً تماماً.. كنت واثقاً..

- لاتكذب ياميشو فقد عثرت عليها في جيب سترتك، حتى انك لم تغير العنوان.

- حسن، حسن.. سأبعثها غداً».

وسمع صوت حفيف الاغطية وهي تقلب ثم نيكول تستطرد بصوت خفيض:

«ومااسمها؟

- اسمعي.. انني اشعر بالنعاس. اسمها بوبيت. وبوبيت ليس اسمها الحقيقي على اية حال. انها تحمل اسماً غريباً: راكوف.. هيلين راكوف.

- يبدو اسماً روسياً. أهي من هناك؟»

فتثاءب ميشو:

- «ربما جدها أو جد جدها أو أبعد من ذلك وقد بقي في فرنسا لاادري بعد اية حرب وكان يعمل مروض دببة في بوردو.

- سترى انه سيكون بخير هناك. سنذهب لرؤيته ايام الاحد وسنعيده خلال العطل. ستكون حياته صعبة ان بقي هنا».

وحين سمع صوت انفاسهم يتحول الى شخير عاد لودو الى حجرته ورسم بعض الوقت على الحائط ثم لاذ بالاغطية.

لست مجنونا. اسمي ليس ليديو بل لودو استطيع قراءة العلامات

وحتى الكتـابـة قليـلا . . وأنـا اتـذكر جيدا . . قهوة جيدة مستوردة من افضل الدول المنتجة في العالم، القهوة العربية الجيدة ينتجان مزيجا لذيـذاً واصيـلا ست سمكـات ساردين بالـزيت وبـالصِبْـر ثلاث حقن تؤخـذ خلال اربـع وعشـرين ساعـة في قليـل من المـاء قبل الوجبات تعمـل على تقـوية الالياف العضلية والمسيح ثمرة احشائك مبارك في طنجـرة اخلط الطحين وبقيـة السكـر واضف البيضـات كلهـا وقشـر البـرتقـال المنقوع في الحليب وستحصل على عجينة سميكة . . حين يشتـد بي الجـوع اذهب لقطف التفـاح من بيت الجارة . . ستكون لي مهنـة ودار ايضـا، استطيع تسلق الاشجار وصناعة المقاليع وانا افضل من يقفز في البوركة* وابعد من يابصق* قبل ايام صعدت على ظهر بقرة فانطلقت حين دغدغها تاتاف من الخلف بعصا استطيع قطع الخشب وتـاتـاف لايستطيـع وتـاشحيم* نصـل المنشـار وحـد المنجل لحصد البـرسيم ولأن امي قالت انني خطـر فلم يعـد لي الحق . . . لااريـد مغـادرة المنـزل لااريـد الـذهـاب الى حيث يتحدثان خلال الليل . . تاتاف قال ليس الذنب ذنبه ان كان مجنونا .

وفي صباح احد الايام وصل جواب هيلين راكوف

مركز سان ـ پول
١٩٦١/٢/١١

«عزيزي ميشيل :

اليـوم هوعيـد ظهـورمريم العـذراء في اللورد . وصلتني رسـالتـك فبعثت في نفسي السرور. لااكاد اتذكر ان لي ابن خالة قريبا مني على

---

* أخطاء املائية تعمدها الكاتب . (المترجمة)

الصعيد المكاني. صحيح اننا نعيش في سان ـ پول، منعزلين داخل عالمنا الخاص، عالم البراءة والصداقة، ولكن ليس هناك في المركز كما قلت في رسالتك، وبالفظاعة ماقلت، «مجانين»! . ان كان الله قد خلق الابرياء فليس ذلك كي نعدهم نحن مجانين ولذا فليس لدينا هنا سوى اطفال، أياً كان عمرهم. هذا المركز ملك لهم وانا الاخرى ملك للاطفال والروح القدس هو الذي يحمينا. هل لك ان تبعث لي بالملف الطبي للطفل الذي تحدثت عنه وان تصلني بعائلته؟ أهو معمد؟ ارسل لك طيا ورقة تعليمات تبين اسلوب القبول في المركز. اماتزال تعزف على الارغن في الكنيسة كما كنت تفعل في السابق؟ سأكون شديدة الامتنان لك ان ارسلت ايضا عدداً من الكتب المقدسة القديمة أوكتباً للصلوات. تحياتي اليكم جميعا والى الطفل ايضا وليغمركم الله برحمته الواسعة.

ابنة الخالة

هيلين راكوف»

وقال ميشو مشهداً اياها: «انظري... ليغمركم الله برحمته الواسعة.. لقد تغيرت بوبيت تماما.. كانت امرأة لعوباً عندما كنت اعرفها».

وفي الليلة اللاحقة، داهم لودو الحوار الآتي:

«لست امه مادام الامر كان حادثاً.

ـ ربما كنت انا امه اذن او ربما كان تاتاف! اعتقد ان علينا ان نخبر بوبيت.

ـ سنبعث اليها هويته الشخصية مع اسمك وهذا يكفي.

ـ ولكنها تريد دفتر العائلة والهوية الصحية ايضا.

ـ ولماذا لاتخبرها بكل شيء اذن مادمت تصر على ذلك. قل لها

انهم كانوا ثلاثة . . !

ـ اصمتي .

ـ وطوال الليل، أتسمع؟ ثلاثة طوال الليل .

ـ قلت لك اصمتي .

ـ اخبرها ايضا بكل مافعلوه بي . ولِمَ لا ! وبكل ما اضطررت الى فعله ايضا» .

وارتفع صوت ضجة مخنوقة اعقبه صوت صرخة فاختفى لودو.

وفي صباح اليوم التالي دعته امه الى حجرتها مبكرا . كانت تقف الى جوار النافذة بقميص النوم وكانت تزيل الطلاء عن اظافرها بواحد من اظافرها وتزم شفتيها وهي تتطلع الى اصابعها وكأنها تتفحص اوراق لعب التاروت .

«انني جائعة . هيء لي بعض الطعام ولتكن القهوة مركزة جداً . هل الطقس جيد اليوم او لا ؟»

فأجاب لودو دون تفكير:

«انه بارد .

ـ كنت واثقة بذلك» .

تأمل لودو امه، تأمل شعرها المنسدل على كتفيها، ذلك الذهب الجميل المنثور الذي اخذت خطوط بيض تشوهه . وكانت هناك جيوب منتفخة تحت عينيها وحبة حديثة النتوء على شفتها السفلى .

«ما الذي تنظر اليه؟

ـ لاشيء

ـ انها البثرة ايها الكاذب . انها اثر حمي وستذهب كما جاءت . هل فهمت؟ . . وانت؟ . . هل رأيت اذنيك؟ هيا، اسرع الآن!» .

ابي يقود الحافلة ويملك مسدسا ويقود الطائرات ايضا . . حتى

السفن الحربية يستطيع قيادتها وحين يطلب مني أن اساعده اقودها انا ولكنني اقـود بمهـارة اقـل . . الفلوريـدا لايـريـدهـا ابي . . شاهدت طائـرات في التلفـزيـون وهو الذي كان يقودها . . امي كانت تعرف انه

هو . . يقـول تاتـاف ان الطـائـرة اكبر من جرار بل اكبر من حاصدة . . لاعـرف اين ابي . . بل اعرف . . لاوقت لديه للتوقف ولكنه سيتوقف يومـا وانـا سأفعـل كل شيء مثله. وحين حمـل الطعام الى امه وجدها مستلقية على السرير وقد برز عنق زجاجة من خلف الوسادة.

«اجلس . اريـد التحـدث اليـك . انـه من اجـل مصلحتك . نادراً مانتبادل الحديث الا ان الخطأ ليس خطئي . لك الحق في ان تعرف الحقيقة على اية حال . . وهاهي . عندما كنت في الرابعة اشتركت في مسـابقـة غنـائيـة امـام الناس في إيكيم . الموضوع بعيد لكنه مهم مع ذلك . وفزت بزلاجة . . وفي احد الايام اصطحبتني نانيت الى السينما في بوردو. أتـذكـر نانيت؟ انهـا ميتـة الآن . نمت طوال فتـرة العـرض وتناولت المرطبات خلال فترة الاستراحة . . تناولت «كورينكسي» . . . لم أكن احب مرافقة ابي الى الصيد البتة . كان ذلك يزعجني ، ولكل ذوقه على اية حال . . كنت ألعب لعبة الماركيزة مع ماري ـ جو . . كنت في العـاشـرة حين تجمـدت شجـرة الكـرز وتكسرت وكان ذلك يشكل خطـراً . وضـع ابي الاسمنت على جذعهـا فلم اعد احب اكل الكرز. كنت اقـول انـه يحمـل طعم الاسمنت . مثـل قهـوتـك . أتسمع؟ في قهـوتـك طعم الاسمنت! لم اعـد احب القهوة . لقد صنعت قهوة سيئة عمداً . إنك تتعمد الخبث وعدم وضع مايكفي من الزبدة على الخبز! بل انـك لاتصغي عنـدمـا اتحدث . انك عديم الاحساس يالودو، هذا هو انت، عديم الاحساس، وستكون سعيداً عندما ستكون سببا في

موتي».

*

الدغلية في ١٩٦١/٢/٢٣

«عزيزتي بوبيت:

انني افضل ان تكوني مطلعة على كل شيء. لقد تعرضت زوجتي نيكول عندما كانت طفلة صغيرة، وكما يقال في لغة الصحافة، الى اعتداء على يد نفر من الشباب الفاجر. وهنا تدركين ان طفلا قد نتج عن ذلك. اسمه لودوفيك الا اننا ندعوه لودو. وهو اسم غريب اذ انه اسم الزورق نفسه الذي قمنا بجولة فيه في البحريوم وقع حادث موريسيت. بامكاننا القول اذن انه بلا اب. اخذناه الى الاطباء عدة مرات وفي كل مرة يروون لناقصة جديدة ويرددون كلمات لايتمكن المرء من حفظها ولااعادتها. نيكول تجد الحياة صعبة بوجوده كما ان ذلك يثير في نفسها ذكريات أليمة. ارسل اليك سلفاً على اية حال صكاً بالمبلغ وأرجو ان تعلميني بموعد ارسال لودو. قبلاتي وقبلات نيكول اليك.

ابن الخال

ميشو»

وأجابت هيلين راكوف.

سان - پول في ١٩٦١/٢/٢٧

عزيزيَّ نيكول وميشو:

اليوم هويوم القديسة اونورين، يوم البهجة. السماء زرقاء هذا الصباح فوق سان - پول والرب يهدي هذا النهار الجميل الى الاطفال. كم نود لو شاركتمونا فيه. لقد اعلنت للصغار عن قرب موعد وصول

طفـل جديـد وجعلتهم يصلون كي يكـون بيننا في اسرع وقت ممكن. انني اتلهف للتعـرف الى لودو. سنستغني عن الاوراق وينتهي الامـر. لايكـون الاطبـاء متفهمين بمـا يكفي حين يتعلق الامر بالبراءة ولذا فانا اثق في هذا المجال بحكمي انا اكثر مما اثق بحكمهم.

لدينـا طبيب نفسـاني رائع يزورنا في سان ـ پول مرة واحدة كل شهر وهـو من سيخبـرنـا بشكـل صريح، مِمَّ يشكو لودو. وعندها سنرى هل يكتب الله له العيش في المجتمع او ان مكانه الحقيقي سيكون بيننا في المستقبـل. ان البـراءة في الواقع، هبة لايخطىء اولئك الذين يدعون أسوياء ان غبطونا عليها. اما بالنسبة لموعد وصول لودو فانني اترك لك مهمـة تحـديده ويستحسن ان يكون ذلك في نهاية شهر آذار وذلك لان غالبيـة الاطفـال يقضون ايام العطلة الحالية بين ذويهم وأنا اريدهم ان يكـونـوا هنـا جميعـاً كي يكـونـوا في استقبـال اخيهم الصغيـر الجديد. ليغمركم الله برحمته الواسعة.

ابنة خالتك وصديقتك

هيلين راكوف

(ملحوظة: شكرا على الصك.)

*

ماكـان تاتـاف سيتخـذ موقفاً لامبالياً ازاء رحيل كبش فدائه الا انهم حجبوا الحقيقة عنه واخفوا رسائل هيلين راكوف كما حرصوا على عدم ذكـر السجن العقلي الـذي قررت نيكـول ارسـال ابنهـا اليـه. وكـان الحـديث يجـري احيـانـا على مائدة الغداء في ايام الاحد عن مدرسة داخليـة، مدرسـة ككـل المـدارس، كغيـرهـا من المـدارس الداخلية

الاخـــرى. سيكـون لودو اسعـد هنـاك، سيتعلم وسينضبـط وسيكـّون صداقـات جديـدة وسيعـود ايام الاحد. قد لايحدث ذلك في البداية، لكنه سيعود الى المنزل حتما كما انهم سيزورونه هناك. مارأيك يالودو؟ وكان الطفل المعني يخفض رأسه ويلتزم صمتا يشوبه القلق.

وعـد تاتـاف بأننـا سنـذهب الى المينـاء اثناء الليل وسنصعد الى سفن الصيـادين الـراسيـة بمحـاذاة الـرصيف. كانت سفنـاً سوداً تماماً.. ماهـذا الـذي يصـدر ضجـة.. انهـا الريح تصفر.. واشار تاتاف الى مركب ضخم ثم حل حبـالـه في المقـدمـة وفي المؤخـرة وقال لي هذا المـركب هو لودوفيـك وهـو الاطـول في المينـاء انظـر جيدا يالودو انه يرحـل مثلك، جلس تاتـاف على الـرصيف ودفـع المركب بقدميه.. ودفعتـه انـا ايضـا بقـدميّ فاندفعت الريح في الصاري وابتعد المركب وسمعنـــاه يرتطم بواحـــد آخـر ثم اختفى في الظـلام.. وسأل رجـال الشـرطـة هذا الصبـاح ان كان تاتاف هو من اطلق القوارب ليلا، وقال تاتاف انه ربما كان لودو وعندئذ اجابت نيكول: اطمئنوا، سيرحل الى الدار، سيكون لي بيت اذن.

لم يعـد ميشـو يعرف للنوم طعماً. كان يعاني الارق وتأنيب الضمير والمساومات في العلاقة الجنسية فيقضي الليل يتقلب ويتعذب بسبب ابن زوجته. ربما كان مجنونا فعلا وربما كان غير مجنون. وإن لم يكن مجنونا فيجب عدم ارساله الى بوبيت، تلك العجوز التي أغرمت بالله مؤخـراً خشيـة ان يتقدم اليها بكشف مليء بخطاياها الدنسة فيما بعد. وكان يتحرق رغبة في نيكول ايضا وينزعج لانها كانت تستطيع الذهاب في سبات عميق حتى ان صوت انفاسها ما كان يسمع.

وفي احد الايام، لاحظ ميشو ان لودو لم يعد يزعج احدا وإنه يمكن تأجيل موعد إرساله الى هناك «لست سوى رجل هرم لايفهم شيئا. سأتزوج آخر اصغر منك سناً. لن اقضي حياتي مع عجوز لايقدر قيمة النعمة التي بين يديه. انني حامل وسأذهب هذه المرة الى سويسرا كي أجهض!» واستشاط ميشو غضباً لانه كان واحداً من اولئك الرجال الذين يطيرون فرحا عندما يعلمون ان وريثاً في الطريق. «ستذهبين كي تفعلي ماذا في سويسرا! بل ستنجبين الطفل، نعم، كالنساء الاخريات!» فأرغت وازبدت وقالت ان وجود لودو سيقضي على مشاعر الامومة لديها وانها ستذهب الى سويسرا ولو سيراً على الاقدام ان تطلب منها الامر ذلك.

وفي اليوم التالي، اكد الميكانو خطياً وصول لودو الى سان - پول.

*

وبدأت مرحلة مضنية في حياة نيكول. سيرحل. ومع اقتراب موعد رحيله، راح ماكان حبيس اللاوعي بسبب الكبرياء، يطفو على السطح. لم تر في حياتها احلاماً كتلك التي تراها الآن. شاهدت وجوه غرقى تطفو على سطح بحر هادىء والعينين الخضراوين تنفتحان وتنغلقان ببطء مثل فكي قوقعة يتقاذفها تياران متصارعان وكان النوم هو من يبتلع وجوه اولئك الموتى.

اخذت تعد الايام وتشطبها علانية على التقويم المعلق على جدار المدخل وهي مقتنعة كل الاقتناع بأنها ستسترد برحيل لودو ثمن شبابها القتيل، وان الحياة ستعود الى مجاريها الطبيعية، وان حالة الشجار الدائم التي تعيشها مع ابويها ستمضي الى غير رجعة. ستجد الجرأة من جديد على اقامة علاقات صداقة جديدة مع أناس جدد وستدعوهم الى بيتها وربما ستعيد علاقتها بماري - جو أيضا، وستنفصل عن ميشو

في حجرة نوم أخرى مادام انه اخذ يشخر مصدّراً ضجة اعلى ، وسينام هو في الحجــرة التي ستخلو بعـد تنظيفهـا وتعقيمهـا واعـادة طلائهـا للتخلص من الـرسـومات القبيحة التي تشوه جدرانها . وستفعل الشيء نفسـه مع المخـزن في بيهـاك . ويمكن للودو ان ينـام ايـام الاحـد في حجرة تاتاف او على الاريكة في الصالة .

مايـزال أمـامهـا عشرون يوماً . . من حسن الحظ أن لديها الفلوريدا كي تستخـدمهـا في اطـلاق العنـان لمـا تكبتـه في نفسها . كانت تزور والـديهـا او تمضي النهار في بوردو تحلم على رصيف قهوة «لوريجون» او تحتسي المارتيني كي تتأمل على نحو افضل ، تلك الجموع الشغوفة باللحظـات الخـاويـة وبـالكـآبة المفضـوحة وهي تلقي عليهم نظرات سرعان ماتنفصل كالفقاعات وتطير كي تنفجر في مكان ماعند قدميها .

كان الجـوع يعضهـا بأنيـابه احيانا فتطلب «شكروت» او «كروك مسيو» ولا تأكلهـا او تؤجـر غرفـة في فنـدق تنيـر مصـابيحها وتسدل ستائرها ثم تحبس نفسها فيها حبساً جديداً بصحبة شياطينها وهي تدخن السجائر الـواحـدة تلو الاخـرى وتهـرب من ذاكـرتها ثم تطاردها كي تتعثر بصور ترعبهـا . كانت ترى نفسهـا في الثـالثـة عشـرة من العمر ، جثة مخضبة بالدماء تحت مصباح اصفر ، ثم تطرد الكابوس بأن تخلع ملابسها أمام المـرآة وتتلذذ بقسـوة مقتهـا لجسدها الذي ذبل قبل اوانه كما لو لم يعد أمام هذا الجسد الذي هجرته الاحاسيس سوى ان يموت .

وفي خضم تلك الاوهـام كان يحـدث أحيـانـا أن تصبـح هي وابنها شخصاً واحداً وان تجد نفسها مضطرة الى قتل نفسها كي تنساه .

وكان ميشو يتذمر عندما تعود بعد هبوط الظلام : «أتخرجين مع رجل اخـر أم ماذا؟ ـ ولمـاذا اذهب مع آخـر مادمت لا ارغب ! » . وكـان ذلـك صحيحـاً اذ كان اي رجـل يهـوى المغـامـرة وتدفعه الجرأة الى محاولة

التقرب منها، يعود خائباً. كان لنيكول نظرة خاوية ثلجية تماماً حتى أن أياً منهم لم يكن يذهب بعيداً في الحاحه. وكان الناس في مقهى «لوريجون» التي يرتادها زبائن من طبقة رفيعة المستوى في الغالب، يسمونها «امرأة الفلوريدا البرجوازية». كانت اقداح الشراب واطباق الطعام الرائحة والغادية التي لايمسها احد، وفترات مابعد الظهر التي تقضيها وحيدة، تدفع الاخرين الى الثرثرة. وعندما كان النذل في المقهى يلاحظون كآبتها وتصنعها وبخلها رغم الاوراق المالية الضخمة التي كانت تحب ان تستعرضها، كانوا يعتقدون انها ارملة تلاحقها ألسن السوء.

*

ولم يكن لودو يعرف متى سيرحل أو الى اين، اذ لم يخبره أحد بأي شيء. وكان ينتظر. كان يستيقظ كل ليلة كي يسترق السمع لكن نيكول وميشو راحا يتحدثان في كل مرة بصوت اكثر انخفاضاً. ماهي طبيعة تلك المدرسة الداخلية التي اختاروها له؟ ومن هي ابنة خالة ميشو؟ لم يكن مجنونا. فيم يختلف عن الاخرين اذن حتى انهم كانوا ينبذونه دائما؟ وفي احد الايام ذهب الى الورشة لرؤية ميشو.

وسأل لودو فجأة: «متى سأرحل؟»

كان الميكانو يناضل تحت جرار يحتاج الى الفحص. فأجاب متملصاً:

- «ماذا تعني، متى سترحل! وماذا تفعل هنا اولاً، لورأتك امك لقامت القيامة!»

كان ميشو ينظر اليه من مكانه، تحت الجرار، حين انحدر من المحرك خيط طويل من الزيت الاسود وخط اخدوداً في وجهه فنهض ومسح يديه بجنبيه ثم قطب جبينه وازال الزيت عن وجهه بمنديل.

«ها انت تجعلني اشرب الزيت بأسئلتك. انك تزعجني يالودو!» ثم التقط مفاتيحه من الارض المتربة.

«اعلم انني لست غاضباً عليك» ثم استأنف ملاطفاً إياه: «الله هو الذي يمد قلبي بالرحمة».

واضاف متفادياً النظر الى الصبي ومتصنعاً الانهماك بالعمل على مكتبه:

-« وكيف عرفت أنك سترحل قريباً؟

- في الليل. عندما تتحدثان».

فقال ميشو:

«آه.. في الليل». ثم اخفى انزعاجه بأن نفخ من خلال شفته السفلى على خصلة من الشعر كانت قد تدلت على وجهه.

واستأنف بصوت مبحوح:

«سأقول لك شيئا ياليديو. انني احبك كثيراً ولا أريد ارسالك الى هناك.. هل فهمت؟»

فأجاب لودو الذي لم يفهم شيئاً:

- «نعم».

فاستدار الميكانو اليه:

«اردتها أن تأتي معك الى بيتنا. منزلتك عندي مثل منزلة تاتاف. كنت اريد ان نمحو كل شيء وان نبدأ من جديد. أتفهم؟.. حتى ان كنت فاشلاً في الدراسة، يمكننا ان نتدبر الامر وان تعمل صبياً عندي. الا ان الرياح لم تجر بما تشتهي السفن. تقول هي ان بك مسّاً في الدماغ.. وربما كنت كذلك بعض الشيء فعلا. لكن الامر ليس خطيراً جداً، ولن تقضي هناك فترة طويلة. ربما ستكون اسعد هناك وستلقى العلاج اللازم. لننتظر ونرى كيف ستجري الامور. ثم ان امك

لن تعود الى ملاحقتك بعد الان .

فدمدم لودو الذي احس بجفاف في حلقه .

«نعم ، ومتى أذهب؟»

فرسم ميشو ابتسامة على وجهه :

«ليس الامر أكيداً ياليديو. فانا لا ارغب في ذلك . »

كان ميشو يحاول عندما يكون بعيدا عن زوجته ان يسترد نفوذه على شؤون منزل كانت تديرها هي وكأنها مُرزبان* غير آبهة لهذره التمردي . سيتمكن من تدبير الامر من الان وحتى عيد الفصح . لقد ولد كي يدبر الامور دائماً اذ طالما رتق المضخات المثقوبة بالخيوط الحديدية واصلح كل شيء وهو الان يملك مايكفي من الوقت كي يصلح مصير الصبي .

وسأل لودو:

ـ «وماهو المكان الذي سأذهب اليه؟

ـ ليس الامر اكيداً بعد ولكنه مركز على اية حال . »

ثم هز رأسه واستأنف بهدوء :

«انه مركز فيه اطفال .

ـ ولكنني لم اعد طفلا .

ـ لا . ليس انت؟ انت تلميذ كبير. ولكن الاخرين . . »

فدمدم لودو:

ـ«انهم يغارون . وهل أتمكن من العودة؟»

فقال ميشو مازحاً :

ـ «ياله من سؤال! ان لم تعد انت أتيت انا لاعادتك .

ـ وهل تزورني هناك؟

---

* المرزبان : وظيفة في المجتمع الفارسي أيام الحكم الساساني وهي تعني القائد أو الوالي دون الملك . (المترجمة)

ـ من المؤكد، سأفعل! لن انتظر ولن ينتظر تاتاف مجيء القديس غلانغلان*».

سأختبىء في بيت الاسكيمو وبذا لن ارحل او سأختبىء فوق انبوب الـرصيف العـائم وسـآكـل البيـوض كي لاامـوت ولكن البوم ستأكلني حتما.. مامعنى مركز فيه اطفال ومن هو القديس غلانغلان؟...

وفي مسـاء ذلـك اليـوم عادت نيكول في منتصف الليل تقريبا وكان لودو قد اضطجع في فراشه قبل ذلك بقليل. كان كالسجين الذي حكم عليه بالاعدام ولايعرف متى سينفذ فيه الحكم اوكرجل في ارذل العمر تملكـه السأم من انتظـار المـوت فأخـذ يستـرجع إحساسه بلذة العيش ويرفض التفكير في المستقبل. سمع صوت الفلوريدا وهي تقترب من بعيـد وتتـوقف مصدرة ضوضاء عالية تلاها صوت اصطفاق باب السيارة وصـوت المـزلاج العمـودي للبـاب الخـارجي يرتطم بالحصى وصوت اصطدام البوابة بعمودي الغرانيت: لقد افرطت نيكول في الشرب مرة اخـرى وهـاهي سيارتها تبدو الآن وكأنها عربة قديمة. لاذ بأغطيته حين سمعهـا تصـرخ وهي تنـاديـه باسمـه من الطابق الارضي ثم تستمر في الزعيق وهي ترتقي درجات السلم.

«لودو!»

ووقفت على العتبـة وهي تلهث وقـد تجسـدت هيأتهـا بفعل الضوء المنبعث من نور مصباح الممر الذي كان خلفها:

«لودو!.. لااريد ان اراك بعد الآن».

وسمع عندئذ صوت ميشو وهو يحتج دون اصرار كبير وصوت نيكول

---

* قول يضرب للدلالة على استحالة وقوع شيء ما. (المترجمة)

وهي تصـرخ مرسلة اياه الى الجحيم ثم وقـع الاقـدام وهي تخفت ثم سمـع تلك الكلمـات التي كانت بمثـابة امر اصدره صوت اضاع رشده ووجهه من بعيد:
«غداً يالودو، غداً ستحمل القهوة الى امك . المهم ألا تنسى ذلك».

هناك ريح فوق الرصيف العائم ولا ادري ان كنت سأصل نهايته او لا ان استدرت فلن ارى الساحل وستهاجمني البوم. . انها لاتحب ان يسحق احـد اعشـاشهـا ولكنني يجب ان اتقـدم . . في الاسفـل هناك البَحـر وهـو رمـادي اللون يصـدر ضجـة مزعجة عند ارتطامه بالدعائم سأخفي رأسي داخـل كيس بطـاطـا فيه ثقوب كي ارى وسأضع مناديل تحت قميصي وحول يديّ وستسير الامور على مايرام. . اريد ان اصل نهـايـة الانبـوب لم يذهب هناك احد قط يبدو ان هناك اسماكا عملاقة تأتي كي تأكـل القمـامـة عنـد مخـرج الانبـوب وحتى حيتـانا واسماك قرش. . ليس صحيحـا أن هنـاك قططـا سرطانية ولاوجود للغواصات ايضا. . أمي لن تصدقني ان قلت إنني رأيت حيتانا عند نهاية الرصيف العائم هناك حيث تسير سفن الشحن متقاطرة في الافق. . أنا وأمي متزوجان.

*

وضـع لودو الصينيـة فوق المنضـدة ذات القائمة الواحدة وكان هدوء ثلجي يلف المـرأة ذات العينين نصف المغمضتين التي راحت تنظـر اليه وهو يتحرك وقد صقل النعاس ملامحها.
«اجلس الآن. قبالتي أيها الغبي. ولكن لم يعد لذلك أي اهمية الآن».
ادار لودو الكرسي الهزاز نحو السرير:

«لاتخف . . لاداعي لأن تخاف» .

رفع رأسه وقد اخذته الدهشة لرقة صوتها ولم تكن عينا نيكول ترمشان كما لو أن العينين الخضراوين لم تعودا تدفعان ذكرياتها الى الانتفاض .

«سترحل بعد غد الى مركز سان ـ پول . إنها داريقيم فيها الاطفال . . الصعاب وسيصطحبك ميشو الى هناك . اعتقد انك كبير بما يكفي كي تفهم . لم يعد الامر ممكنا هنا . ستكون هناك في حال أفضل . أحد افراد العائلة ، من اقرباء ميشو، هو الذي سيعنى بأمرك على أية حال» .

لم يقل شيئا واستمر يحملق اليها بينما راحت نيكول تعدل من وضع وسائدها .

«كل هذا من أجل مصلحتك . لقد اتخذنا هذا القرار على مضض لان مثل هذا النوع من المؤسسسات يكلف غاليا ولكنهم متخصصون وستلقى العلاج اللازم ايها الصغير المسكين . اذهب الآن . . لاادري ان كنت تدرك الى اي حد انت مريض» .

دفعت برأسها الى الوراء واصبحت نبرة صوتها اكثر قسوة :

« وماذا تريد! انها ليست حياة تلك التي اعيشها مع طفل مثلك ، يطرد من كل مكان ، كاذب ولص ومتطفل ولااحد يعرف فيم تفكر . لم تقل لي ماما قط . هل تعرف في الاقل أنني أنا أمك؟ . . حتى ان كنت تعرف فإن ذلك لايهمك! . . »

كانت تصرخ تقريبا ثم اشعلت لفافة تبغ بيد مرتعشة ونظراتها تهيم وكأنها طير لايعرف اين يحط .

«هات الصينية قبل ان يبرد الطعام» .

فأطاع .

«لاشـك في ان القهـوة قد بردت الآن. يالك من خبيث! وكالمعتاد لاتقـول شيئـا ابـدا.. لاتأخـذ معـك سوى اقل مايمكن من الامتعة اذ انهم سيـزودونـك بالمـلابس هناك. انه يقع على مسافة ساعة بالسيارة وسيكـون احـد العاملين في المركز في انتظارك. حاول ان تكون مؤدبا في الاقـل وستعـود في عطلة نهـاية الاسبوع. لااعرف حتى الآن كيف سيتم ترتيب الامور على وجه التحديد،، ولكنني اؤكد لك انني لست مسرورة بكل هذا».

ثم تفحصت الخبز المطلي بالزبدة باستياء.

«انـك لاتضـع ابـدا مايكفي من الـزبدة». قالت ذلك وهي تغمس قطعة الخبز في الفنجان فتموجت القهوة ثم طفحت. واضافت: «كنت اتناول في البيت كل صباح كرواسونا طازجا وجلي الكرز الذي تعدّه أمي.»

لقـد سمـع مائـة مرة رثـاء الزمن الذي مضى هذا وشاهدها مائة مرة وهي تحول قطعة الخبز المطلية بالزبدة الى قطعة من الاسفنج قبل ان تحملهـا الى فمهـا والقهـوة تقطـر منها. مائة مرة شعر بالخجل من هذا الافطار الذي تتعمد ازدراده بابتذال كي تهينه وكانت تنسى نفسها احيانا كما لو كان غير موجود بالمرة. واحتدت من جديد:

«هل تسمعني في الاقل؟.. انني اتحدث اليك يالودو، هل تسمعني؟»

فقال:

-«نعم.

ـ قل نعم ياماما يالودو».

انهـارت قطعـة الخبز المطلية بالزبدة برخاوة على غطاء الصينية بعد

ان نسيتها داخل الفنجان . ولم يجب لودو .

«صحيح . حين يكون المرء مؤدبا فانه يقول : نعم ياماما . . ماذا تنتظر؟ . . . هيا ، قل ماما يالودو»

وكان لودو ينظر الى الارض ويصر اسنانه .

وعاودت نيكول الكلام بنبرة غير معبرة :

«هه يالودو . لم تقل ماما قط . لماذا؟ هيا أيها الاحمق . . قلها . . . قلها ولو مرة واحدة! قل ماما لأمك . مرة واحدة فقط ، قلها!»

ثارت ثائرتها وشحب لونها غضبا وهي تنظر الى ابنها الذي تكوم داخل مقعده وهو يرتجف دون ان ينبس ببنت شفة .

« . . انت على حق! انت المحق . لاتريد قولها لانني لست امك . وهذا صحيح يالودو! لست أمك . . لقد رفضت الكلام! سترى الان اذن! امك مجرد حادث ، اتسمع ، كما لوكنت انت ، أتسمع؟ . . . كلما رأيتك ، كل مرة ، رأيتهم ، هم الثلاثة ، سمعتهم ، تحت المصباح الاصفر ، كلما رأيتك رأيت الانذال ، الاوغاد الثلاثة ، وكما لوكنت انت من ضربني واغتصبني . لست امك ، اتفهم! . . أمك هم الاوغاد الثلاثة» .

وكان صوتها مبحوحا مسموماً بالكراهية .

«والآن ، أخرج من هنا ايها الحقير ، اخرج من حياتي » .

كانت تصرخ وهي تنتصب داخل سريرها حتى ان الفنجان انقلب على الاغطية .

خرج كالآلة واتجه نحو السلم دونما احساس فزلت قدمه على احدى السلمات وتدحرج حتى الاسفل على ظهره دون ان يحس بأي شيء . خيل اليه انه يشعر بالظمأ ففتح الحنفيتين في المطبخ وشاهد الماء وهو يتلون بألوان قزحية وينهمر بشكل لولبي في قعر الحوض .

اغلقهما وهو يشعر بالضياع غير قادر على تذكر ماكان ينوي فعله في البداية. حقير، حقير. راح قلبه ينبض بالشتيمة. ضرب صدغيه بقبضتي كفيه وهو يردد حقير، حقير وغشاوة حمراء تغطي عينيه. وجد نفسه على الشرفة حيث بدا الصمت وكأنه ينكمش تحت الشمس. وعلى زاوية الجدار المحيط بالشرفة، تلك الزاوية الخارجية البارزة الحادة، اخذ ينطح الحجر، اخرج ايها الحقير! وحين تدفق الدم احس لودو بأنه في حال افضل الا انه استمر في توجيه ضربات قوية الى الجدار، ضربات قوية مميتة كتلك التي يوجهها المرء عندما يسحق افعى بكل نشوة.

كانوا ثلاثة يحملون فؤوساً. بدأوا بالذراعين.. كانوا يقطعون الحطب تحت المصباح الاصفر ويصنعون منه حطبات صغيرة كحطبات عيد الميلاد.. يقطعون حتى الكتفين ثم يقطعون الساقين ويقطعون الجذع الا ان حطبات عيد الميلاد عادت لتصبح ذراعين وساقين من جديد فعاد الثلاثة الى قطعها بفؤوسهم تحت المصباح الاصفر والرأس الذي لم يقطعوه كان ينظر اليهم وهم يقطعون.. كانوا ثلاثة يحملون فؤوساً.

استعاد لودو وعيه بعد ساعة وكانت الفلوريدا قد رحلت. لم تخطر له على بال فكرة أن نيكول كان يمكنها ان تسعفه. ولاحظ بكل سرور وهو ينظر الى نفسه في المرآة أنه لم يخطىء إصابة الهدف. كان وجهه قد اسود من الدم وكان شجٌ قبيح يقطع جبهته افقيا. وبدا قميصه وكأنه قد التحم بجسمه. لم يغتسل وانزلق حتى الارض مستندا الى الجدار **ليس هذا صحيحا، ليس لي ثلاثة آباء.. ولكن، ان كان ذلك**

صحيحـــا ، فيجب ان اقـــول لهم اين أنـا ، يجب ان يأتـوا ليأخـذوني معهم . . يقـول تاتـاف انهم المان ويهود وأنا لم آت بسوء الذنب ليس ذنبي انـا لم اولـد في بطنهـا وحدي . . ولكن هذا ليس صحيحا انا لم اولد في بطنها . . لابد ان البرد كان قارسا هناك في الداخل . . . لابد انني لم اكن استطيع النوم في بيتها . . بيت الاسكيمو.

وحين عاد ميشو في المساء تألم لانه وجد المنزل خاليا مرة اخرى . انهــا حبلى ولكن ماجــدوى ذلـك، فالمـرء لايـراهـا مطلقـاً . ارادت الحصول على السيارة؟ . . وهاهي السيارة . الا انها تستخدم الفلوريدا كي تهجـر منـزلهـا بالـدرجـة الاولى . وفي احـد الايام سيعثرون عليها داخـل حفـرة وسيموت الطفل . المرأة الحامل تخلد الى الراحة عموماً ولاتتسكع في الطرقات بعد مغيب الشمس . ولكن، أهي حامل حقاً؟ عزف على الارغن النغمات الاولى لنشيد «هلمّ ايها الروح القدس» ثم عزف عن ذلك اذ انتهت أعز تسلية لديه الى بعث الضجر في نفسه .

هيأ المائدة لشخصين مفكراً في احتمال عودتها في الوقت المناسب لتنـاول العشـاء . وقال في نفسه وهو يفكر في لودو الذي سيغادر بعد غد ان عليـه اضـافـة صحنـه هو الاخر . ولكنه لايريد تعريضه الى مشاكل جديدة كما ان الصبي لابد انه يفضل الاحتماء بغرفته بكل هدوء ولابد انـه اخـذ معه قطعة من الجبن وانه سيقضي ساعات كاملة في الهذيان على الجدران . . هكذا تسير الامور ولكن الوضع لن يلبث ان يتحسن بعد بضعة ايام . سيكون لنيكول طفل اخر وهذا هو ماتحتاج اليه فعلا ، طفل لاخلل في رأسه . طفل يكون طفلها حقا وليس مجرد أبله مسكين لايخشى شره أبدا لكنه مجنون، مجنون تماما حتى انه ليس باستطاعة المـرء ان يفعـل اي شيء من اجله . حتى تاتـاف لم يعـد قادرا خلال

الفترة الاخيرة على التفاهم معه كالسابق.

كانت هزيمته في المهاترات الكلامية مع زوجته قد غلظت بعض الشيء من طبعه فأخذ يتحاشى بحذر بالغ مناقشة المسائل المتعلقة بابن زوجته الذي كان سببا في جميع الاهانات التي يتجرعها داخل المنزل وأخذ يحمل له شيئا من الضغينة ايضا كانت نتيجة لجبنه الخاص. انه ولد مختلف على اي حال، مختلف تماما. لقد سبق أن فكر فعلا في تشغيله صبيا عنده ولكن، ماذا سيقول الناس ياترى؟ عند زواجه بابنة بلانشار هجره بعض الزبائن وغير عدد من المترددين الى الكنيسة التي يعزف فيها كنسيتهم، بينما اعرب بعضهم الاخر عن تذمره.

وعند التاسعة تقريبا شغل جهاز التلفزيون وسخن محتوى علبة من هريس الفاصولياء وتناول العشاء بلااستمتاع وهو ينظر بغير اهتمام الى الصور التي كانت تتتابع على شاشة التلفزيون الذي لم يرفع صوته كي يتمكن من سماع صوت وصول السيارة على نحو افضل، إذ أنه يخاف كلما تأخرت في العودة، من وقوع حادثة ما. ولم ينه عشاءه بسرعة كي يمنح نيكول فرصة اخيرة علها تأتي وتشاركه العشاء. ووصلت اخيرا عندما كان ينهي تقشير تفاحته.

قال لها وهو ينهض واقفا كي يقبلها:

«هاقد وصلت اخيراً».

فاعلنت له وهي تقف بعيدا عنه:

«سنتناول طعام الغداء في المخبز يوم الاحد. لاتتأخر في ايصال لودو. انني اشعر بالانهاك...»

ولم يستطع منع نفسه من السؤال:

«واين كنت حتى الان؟

ـ كنت حيث اشـــاء. دعني وشأني. لست جائعـــة على ايـة حال. يمكنك ان ترفع المائدة الآن. هيا، طابت ليلتك. سأذهب للنوم».

القت معطفهـــا على الاريكـة ثم استـدارت بعـد ان ارسلت له قبلة سريعـة من اطـراف اصـابعهـا. ظل هنـاك، مسمـراً في مكانه، وربع التفـاحـة في يده مجبـراً على كتم اضطـرابه. سمع وقع خطواتها على درجات السلم ثم على طول الممر ثم صوت الباب يفتح ثم. . صرخة مفـاجئـة جعلتـه يفلت تفـاحته ويثب بقفزة واحدة حتى الطابق الاول. كانت الحجـرة مضـاءة تمـامـا وكـانت نيكـول ماتزال تصرخ امام باب الحجرة واضعة قبضتي يديها على صدغيها. دفعها جانبا ثم تسمر على العتبة امام منظر لودو النائم في فراشهما ورأسه مغطىً بالدماء.

***

الجزء الثاني

الفصل الثامن

يقع مركز سان ـ پول داخل غابة يحيط به الصمت والادغال وأشجار الصنوبر وتربطه طريق ترابية بالشارع الرئيس الذي يبعد مسافة كيلومتر واحد باتجاه الجنوب. وتنفتح بوابته الحديدية المصنوعة على الطراز الموروسكي * على ممر مغطى بالحصباء يمتد مستقيماً حتى القصر الريفي الذي كان يستخدم سابقاً في مواسم الصيد ويبدو باسطاً جناحيه على الجانبين. ويضم المبنى الذي يتكون من طابق واحد مع ملحقاته، بسقفه الحديث من الاردواز وواجهته التي تميل الى التشقق، اربعين حجرة احداها صالة الطعام التي تحوي موقداً لم يعد يستخدمه احد منذ تلك الأيام الموغلة في القدم التي لم تعد تعيها الذاكرة. ويطل مدخلا القصر على شرفة أمامية من الآجر الصلب يُسمع وقع الخطوات عليها عالياً.

وتمتد ساحة ترابية مجهزة بشبكة كرة مضرب لم تعد صالحة للاستعمال، من الطرف المنحدر من الشرفة حتى شاطىء النهر. ويشاهد في أقصى الساحة سيارة فرساي كانت تعود للكولونيل دوماساك، مؤسس المركز، وقد رفعت على ركائز الى جانب مغطس

* نسبة الى المورو وهو المسلم الاندلسي في المدن المسيحية. (المترجمة)

مائل. وكانت قطة هرمة تدعى كلوشي تقيم تحت السيارة.

في هذا المبنى الغـافي في الغـابـة، يعيش «الاطفـال» الذين يبلغ اصغرهم سن الرشد واكبرهم سن الخمسين.

انهم اطفـالٌ في ذهنيتهم، بسطاء في نفوسهم، يقدمون اروع مثال على البـراءة الفـردوسيـة ويجسـدون أمـل التكفير الناصع، أصلاء في انتسـابهم الى عظـات الجبـل التي القـاهـا السيد المسيح، وذات يوم سينقذون العالم من الهلاك. هكذا كان الكولونيل يتحدث في زمانه.

لم يكن أحـد في المـركـز يتلفـظ بكلمـة «فتـاة أو صبي» بل يقولون «طفـل» دائمـاً الا ان اجـراءات تمييـز جنسي مشددة كانت تطبق بحزم لمنع الاختلاط.

وينحـدر جميـع أطفال المركز من عائلات ميسورة الحال قادرة على تأمين متطلبـات الاقـامـة كافة على مدى الحياة في مؤسسة مثل هذه. ويكن ذوو الاطفـال لهم حبـاً جمـاً تكتنفه التعاسة ويتكفلون من خلال صناديق مشتركة بدفع تكاليف الحالات المهملة.

وكان المتخلفون جداً منهم إما يعادون الى اهلهم وإما ينقلون الى مستشفى فالمنياك للأمراض العقلية.

وقـد تسلمت الآنسـة راكـوف، الممـرضـة، ادارة المـركـز بعد وفاة الكـولـونيـل بينمـا اقتسم المستخـدمان دودو وادولفين الواجبات داخل المركز ومسؤولية مراقبة أجنحة نوم الفتيان والفتيات التي تفصل بعضها عن بعض صالة الطعام.

ويقـوم عدد من المقيمين داخـل القصـر، كل حسب درجة تخلفه، بانجاز بعض الأعمال ايضاً لتخفيف العبء عن المستخدمين.

وكان قس اعتراف متقدم في السن يأتي كل يوم أحد ممتطياً دراجته الهوائية كي يفلّي النفوس ويقرأ القداس ويتناول طعام الغداء في المركز مع ذوي الاطفال. وكانت الانسة راكوف تستبقيه عصراً، تبعاً لتغير المواسم، كي يلعبا الدومينو او الكروكي.

★

مضى شهر على وصول لودو الى المركز وكان قد غادر الدغلية في اليوم المحدد خلافاً لرأي الطبيب الذي حضر كي يخيط له جرحه. وقد رفضت نيكول توديعه وعدّت الطلب غير مقبول اطلاقاً وقالت معنفة زوجها الذي توسل اليها: «انه لا يذهب الى السجن. سأودعه في المرة القادمة». أما تاتاف فقد اعطاه فردة جورب معقودة وقال: «حافظ عليها جيداً، انها مدخراتي... هيا... الى اللقاء!...» وكان مصدر هذه المدخرات وكلها قطع نقدية من فئة الخمسة فرنكات، حصالة نقود على هيئة بيت تعود لنيكول، وقد حلت مسامير محل النقود المسروقة.

اصطحبه ميشو بالسيارة حتى مدخل الطريق الذي يمر عبر الغابة ليؤدي الى مركز سان - پول واستغرق الطريق ساعة لم ينبس خلالها ميشو ببنت شفة وكانت امرأة ضخمة في انتظارهما قالت لهما: «انها لمتاهة حقيقية يجب على المرء ان يكون عارفاً بدهاليزها. هذا هو اذن!» ونظر ميشو الى ساعته فجأة واخذ يتململ في وقفته: «ذلك ان أمامي ساعة لقطع طريق العودة... ثم انت تعرف امك!...» ثم عانق لودو ووعده بالمجيء يوم الأحد اللاحق والآحد الذي يليه واكد انهم سيعيدونه الى المنزل في العطل. ثم اختفت السيارة.

قالت المرأة وهي تستدير صوب الغابة: «هيا، تعال. . . أمامنا مسافة طويلة حتى نصل القصر، يبدو أنك تملك ساقين طويلتين. اسمي فين والاطفال يحبونني كثيراً. أنا اقوم بالطبخ وبالتنظيف وفي الواقع فانا انجز كل ما يطلب مني، وابذل في ذلك جهداً كبيراً. ولكن، لابأس فالانسة راكوف تريد ان يسير كل شيء على ما يرام. وانت. . . ما اسمك؟

- لودو

- ولم لا. . . ستعتاد المكان. قد يبدو لك الأمر غريباً في البداية لكنكم الاسعد رغم ذلك، لا هموم ولا مسؤوليات ولا مشاكل مع أحد، لا شيء على الاطلاق، مجرد عصافير صغيرة نعتني بها. . . وما هو مرضك؟

- انهم الآخرون. . . يقولون انني مجنون».

كانت الحمى قد بثت الخدر في جسم لودو فبدا الدرب وكأنه يتوارى تحت خطواته لم تقل لي وداعاً ولكنني رأيتها تنظر من النافذة وانا لم اعطها هديتها. . . أنا الرابح اذن.

- «وماذا فعلت برأسك؟. . . » فروى لها كيف آذى نفسه.

- «ليس هذا بالعمل الجميل. . . يجب ان تسيطر على اعصابك ان كنت لا تريد الدخول في مشاكل مع أحد.

- هي التي سعت الى ذلك.

- ومع فتاة ايضاً. ياله من أمر جميل!. . .

- انها ليست فتاة. انها أمي».

فهزت فين رأسها مستنكرة:

ـ «ينبغي ألا يشاكس المرء امه فذلك أمر يبعث على الشؤم. أعز بأي عين تراني فانا ابدو عجوزاً، اليس كذلك! حتماً. . . بعد كل هذه السنوات من الكدح. . . لم اكن قد بلغت سن العشرين حين جئت الى المركز. كان ذلك منذ عشرين عاماً، وها آنذا اليوم في الاربعين، بل اكثر قليلاً وقد امتلأ رأسي شيباً. ما ازال أذكر تلك اللحظة كما لو انها حدثت في الامس فقط. لم تكن راكوف قد وصلت ولم اكن افكر في البقاء في الواقع اذ كان في نيتي قضاء فترة من الزمن حتى اتمكن من تدبير امري. هذا ما قلته للكولونيل ولكن المسكين مات وانا لم اغادر حتى الآن.»

كانت فين امرأة ذات سحنة حمراء منتفخة الجسم تبرز أمشاطٌ صغيرة تحت خمارها الوردي الباهت وتكبل عروق ناتئة يديها الملتفتين على حقيبة سوداء من الجلد الصناعي. وكانت تبدو ثقيلة الجسم ذات بشرة ذابلة. الا ان ذلك الجسد المهمل الذي تفوح منه رائحة العرق ورائحة حوض غسل الصحون كان ما يزال محتفظاً ببقية من سحر قديم. «. . . قالوا لي في البيت، هيا. . . اخرجي ايتها المومس! اما الرصيف واما غسل الصحون، ولا فلس للاكل. . . لا خيار للمرء دائماً في الحياة. . . كان الرجال لطفاء هناك. اكتشفت بعد ذلك غسل الصحون وما زلت اغسل حتى الان. كان الكولونيل وزوجه يقومان على شؤون الأطفال في البداية. سترى توأميهما، انهم يدعونهما «القوارير الخشبية!»

ثم ضحكت ضحكة متعبة.

«هذان الاثنان ينهكان قواي. . . لم ار أحداً بمثل شهيتهما. فانت

تجـدهمـا دائمـاً بين ساقيـك يخطفان أرغفة الخبز، هذا إذا لم يخطفا الصحـون التي اتـركهـا جانباً كي تبرد! . . . ان كنت جائعاً فلا تقلق، ستأكل عندما نصل، نكاد نصل على أية حال. . . »

تحسس لودو جرحــه في حذر قال ميشــو انني سأعــود قريبــاً الى الـدغليـة. . . ربما سيعود أبي أيضاً ولكن، ليس صحيحاً ان لي ثلاثة آبـاء كمـا انهم ليسوا الاوغاد الثلاثة. . . انها تكذب. . . كي تجعلني ارحـل. . . قالت ان ذلـك لمصلحتك وانا لا أريد مصلحتي، لا أريد ان تلتقي أمي بأبي وانـا غيـر موجـود، لا أريـد ان تقـول له انه مجنون ولذلك وضعناه في الدار.

★

كانوا عشرين طفلاً تقريباً يقفون على درجات سلم المدخل يهللون وينظرون الى لودو وهو يقترب مشيعين بزقزقاتهم جواً من المرح. راحوا يتفحصـونـه من قمـة رأسه حتى اخمص قدميه دون ان يبارحوا اماكنهم وبـدوا كالعصـافيـر الملونـة التي يحتفـظ تاتـاف بصورها داخل البوم: مجمـوعـة من الوان متألقة تعلق فيها العين بقبعات وبوردات عنق على هيئـة فراشـات بدت وكأنهـا تنبض بالحياة. وكان ثمة ممر ضيق يفصل بين الصبيــان والفتيــات اللواتي وقفن حاسـرات الـرأس وقـد خفضن أبصـارهن ورائحـة الكـولونيا تفوح منهن. قدمت لهم فين لودو فتعالت اصـوات تصفيق وهتـاف ثم ما لبث ان خرج احـدهـم عن الصف وكان قزماً تقريباً، يرتدي سترة حمراء مضحكة الشكل واقترب منه ماداً له يده التي تشبــه المضـرب ثم اعـرب باسم جميـع الاطفـال عن سعـادتـه لاستقبـالـه في سان ـ پول. وكان الماركيز ديغرمون اكبرهم سناً بأعوامه

الخمسين ويعود نسبه الى احدى عائلات مدينة نانت الوجيهة.

وفجأة، بدد صوت صافرة جو المرح ذاك تبديداً كاملاً وظهرت هيلين راكوف خلفهم مبتسمة هي الاخرى لكن ملامحها كانت تدل على القسوة والحزم بطقمها الرمادي الذي كانت ترتديه. وقالت: «هذا هو اذن صديقنا لودوفيك. اقترب قليلاً يا بني».

ارتقى لودو درجات سلم المدخل مصافحاً لا على التعيين الايادي التي امتدت نحوه وقد اكتسحه الذهول لسيل العواطف العارم ذاك.

«ولكنك كبير!... لقد نفد صبرنا في انتظارك. آمل انك كنت كذلك ايضاً.. ان وصول طفل جديد هو بمثابة عيد بالنسبة الينا. ستكتشف سريعاً ان مركز سان ـ پول، عائلتك الجديدة، هو نزل قائم على التوافق والانسجام».

وتحلق الاطفال الذين استمروا بثرثرتهم حوله بينما راح لودو يستمع اليهم وهم يضحكون ويتهامسون.

وقالت الانسة راكوف وهي تصفق بيديها: «هيا، والا اصبتم بالبرد. ستتعرفون الى لودوفيك على نحو افضل هذا المساء. عليّ الآن ان اطلعه على تفاصيل حياته الجديدة. أما انتم فستخرجون في نزهة بصحبة فين».

فكرر الماركيز بنبرة مفخمة:

ـ «... جون في نزهة بصحبة فين.

ـ أما انت يالودوفيك فتعال معي».

وجد لودو نفسه وهو في حالة من الذهول في الطابق الأول من القصر الريفي داخل حجرة صغيرة يسودها نظام مكاتب العمل الدقيق وفوضى

مخـازن المهمـلات في الـوقت نفسه، وشعر ان ساقيه ما عادتا تقدران على حمله فنظـر بشـوق الى الارضيـة الصقيلة الا انـه لم يجـرؤ على الاستلقاء عليها.

ألقت الانسـة راكـوف نظـرات صارمـة عليه وتفحصته بدقة من وراء مكتبها الذي كان مرتباً تماماً وقد بدت فيه سيدة المكان.

- «هل انت مريض؟ . . . »

فقال لودو بصوت واهن جداً:

- «اسمي لودوفيـك بوسـار وطولي متر وثمانون سنتمتراً ولكنني لست مجنوناً، امي هي التي . . .

- لا تخلط بين الامور رجاء . . . حدثني اولاً عن الجرح في جبهتك».

فقال لودو:

- «إنهـا امي، لا، بل هي نانيت! انهـا ميتـة الآن . . . الا ان ذلـك ليس صحيحاً قط . . .

- حسن، ستدعوني من الآن فصاعداً الآنسة راكوف . . . هل فهمت؟»

فأومأ بحركة من ذقنه.

قالت منزعجة:

- «نعم يا آنسة راكوف.

- نعم يا آنسة روف . . .

- را - كوف. ان كان ذلك لايضايقك، آنسة راكوف».

كانت في الخمسين من العمر حتماً ذات شعر قصير كثيف وأشيب،

ضخمة الملامح ذات وجه يكسوه الشعر وعينين رماديتين ثاقبتين، ربعة القامة ترتدي طقماً اغلق رمزياً بسلسلة صغيرة في منطقة الصدر. وكانت ابتسامة عذبة تسبق كلماتها دائماً.

«ها قد تعرفت الى فين وبعد قليل سأقدم لك دودو، اقدم مستخدم لدينا.. انه اسود».

فدمدم لودو:

- «وانت؟»

فأجابت الآنسة راكوف بسرعة وبنبرة لطيفة:

- «وانا ايضاً بلا شك».

ولاحظ لودو فجأة الحجر الكبير متعدد الاوجه الذي كان يزين الاصبع الوسطى في يدها اليسرى ويبدو اشبه ما يكون بعين ثالثة لشدة بريقه. ويخيل الى الناظر اليه انه عبارة عن سائل وردي اللون تتخلله خيوط متخثرة من الدماء.

أعلنت الممرضة وهي تضع يديها على المكتب:

«.. انه حجر سالموردين، كان ملك الكولونيل دومواساك مؤسس المركز وقد أعطاني إياه قبل وفاته ببضعة أيام. يبدو أنه حجر سحري وهو على أية حال جوهرة نادرة.. ولكن لنعد إليك الآن. يقول ميشو إنك ولد قوي. حسنٌ، سنرى. ستوقظك فين صباحاً لتساعدها في تحضير الكاكاو بالحليب للأطفال ثم ستسهم بعد الافطار في مختلف الورش مع بقية الاطفال».

كانت الكلمات تنبت على شفتيها بطيئة حزينة سرعان ما اكتسبت فجأة نبرة خناء فيما كانت تعبث بالصفارة المعلقة برباط جلدي حول

رقبتها. ولم يعد لودو الذي انهكه التعب يصغي اليها. شاهد على يمينه ناراً بدت له من خلال شبكة من معدن الميكا المثبتة في مدفأة معدنية، وكأنها تمضغ فحم الانتراسيت مصدرة ضجيجاً يشبه صوت عظام تسحق قال ميشو انه سيأتي يوم الأحد مع نيكول وتاتاف وقال انني سأعود بعد ذلك الى هناك... ولكنني لست مثلهم، لست طفلاً، انا قدت الجرار في الحقل بل انني اعرف كيف اقود سيارة أمي.. أمي لاتعرف كيف تغير السرع وستتلف في أحد الايام مغير السرعة.

«والان، إليك بعض التعليمات الخاصة بالنظام. عليك ترتيب سريرك كل صباح. ان كنت تعرف كيف تفعل ذلك فهو أمر جيد وان كنت لاتعرف فستتولى فين تعليمك».

رد بشراسة:

- «بلى، أعرف»

فنظرت إليه مستغربة ثم واصلت حديثها:

«لديك حديقة واسعة تتجول فيها كما تشاء الا ان تجاوزها ممنوع بل خطر أيضاً، الركض ممنوع والاختباء ممنوع والاقتراب من جناح الفتيات ممنوع والتكاسل في الفراش والاستلقاء فيه أثناء النهار ممنوع. وما عدا ذلك، اعتبر نفسك في بيتك، وسترى أننا سعداء هنا. ألديك اسئلة؟»

فأجاب لودو:

- «لا... وماذا نأكل؟

- يختلف ذلك بحسب الايام... لكننا نقدم أيام الأحد كعكاً بعد

الطعام».

فغمغم لودو:

ـ «كنت أتناول قطعاً من الكرواسون ومربى كل صباح في البيت.

ـ حقاً؟

ـ وكانت أمي تحمل إليّ إفطاري الى السرير. . .».

فابتسمت الآنسة راكوف بخبث واكملت حديثه كما لو كان ما يقوله لودو غير جديد عليها:

ـ «. . . وكانت تطهو لك أيام العيد طبق العدس المتبل. . .

ـ . . . بالبرتقال.

ـ انك تمزح ولا شك! . . . أهذا هو كل ما تريد قوله؟

ـ وما معنى الأطفال؟»

فأشرق وجه الممرضة وقالت وهي تمسد شعرها:

ـ «واخيراً طرحت سؤالاً جيداً. الأطفال كائنات يخلقها الله على الارض. . . كي يكونوا الانموذج. انموذج ماذا؟ النقاء واالصدق والبساطة والبراءة حتماً. لقد اصطفيت كي تكون انموذجاً.»

نظر اليها لودو فرآها اكثر من واحدة بسبب الحمى ثم قال:

«إنهم يغارون كل هؤلاء. الفريسيون كانوا يغارون وإنا عمري خمسة عشر عاماً. حتى تاتاف قال إنهم كانوا معتوهين وانا لست معتوها.

ـ ما هذا الذي ترويه عن تاتاف هذا! اعتقد انه هو من يغار. هيا، لا تبتئس فلم يعد لذلك أيّ أهمية الآن. تعال الآن كي ترى الحجرة الجميلة التي هيأناها لك».

هبط السلم وسار خلف الانسة راكوف عبر صالة كبيرة بإمكان المرء ان يرى فيها أكواباً وملاعق خشبية صفت بانتظام فوق عدد من الموائد. وفي اقصى الصالة، كان هناك موقد ضخم يضم مغارة عيد الميلاد.

قالت دون أن تتوقف: «انه الضمير. سأشرح لك ذلك في المساء بحضور الاطفال».

ولفت أحد التفاصيل انتباه لودو. فقد شاهد قطعة ملونة من القماش ذات ثنيات دائرية معلقة على الجدار وقد تدلت منها مجموعة من الكرات الذهبية تمثل تشكيلة النجوم والكواكب. ولم يشاهد في اسفل القطعة القماشية ملوك المجوس بل قطيعاً من الغنم سيء الصنع يبدو وكأنه قادم من بعيد يسير في عجلة من أمره.

تقدما داخل ممر تصدر فيه الخطوات صوتاً مطاطياً.

«نحن الآن في جناح الصبيان. اما جناح الفتيات فيقع في الجانب الآخر».

وفتحت باباً مزيناً بورق زجاجي.

«... . هذه هي قاعة اللعب، وهناك حيث اشارة الصليب الأحمر، غرفة التمريض. يقيم دودو في الجهة المقابلة تماماً. والآن، ها هي حجرتك، انها تطل على الحديقة».

وولجت حجرة ذات جدران فاتحة اللون وستائر مسدلة وأثاث تقليدي تحوي خزانة ومنضدة ومقعداً بلا مساند وسريراً. وكانت هناك علبة غريبة الشكل فوق الوسادة.

«لاتخف، افتحها! ... انها من جميع الأطفال».

وجد لودو في داخلها لعبة صغيرة صنعت من الصوف ومن الورق

الخراف التي راها في الموقد. خروفٍ بحجم الجرذ. وكان اسمه منقوشاً بالأحرف الغوطية على لوح صغير من الخشب المرصع.

سأل بحذر: «ما هذا؟»

فأشرق وجه الممرضة اشراقة ملائكية وهمست قائلة:

«الاطفال هم حماة النقاء. والحمل هو رمز النقاء. انه... ولكنك ستفهم اكثر هذا المساء. لاتنس ان تجلبه معك الى العشاء... ملاحظة أخيرة: نافذتك لا تُفتح. اما الباب فيظل مفتوحاً دائماً حتى خلال الليل الا ان باب الممر يغلق كل مساء بعد منع التجول حتى صباح اليوم التالي. سأتركك الآن. لديك خزانة وصناديق تحت السرير. لا أريد أن أرى أي شيء في غير محله. والآن أسرع فهناك جلسة موسيقية في الكنيسة. انها ذلك المبنى الذي تراه في الخارج.

ـ وفي ايّ ساعة؟»

أطلقت الآنسة راكوف ضحكة سريعة:

«الساعة؟... وأين تظن نفسك يا بني؟ ليس هناك ساعة في سان ـ پول. لن ترى هنا ساعة أبداً. وماذا ستفعل بها؟... أنا من يحدد موعد بدء وانتهاء الفعاليات هنا باشارة من صفارتي... والآن، هل لديك اسئلة اخرى؟

ـ أين البحر؟

ـ ولكنك لست على شاطىء البحر هنا. البحر بعيد جداً. انت ترى جيداً اننا نعيش وسط الغابة».

فقال لودو:

«ليس ذلك صحيحاً قط».

فاغمضت الانسة راكوف عينيها بانزعاج ثم قالت بلهجة فظة:

«انني اطلب اليك ان تكون مؤدبا. لا تنس في الاقل أنك من ذوي الحظوة في سان ـ پول. كان بامكان والديك ان يرسلاك الى مستشفى للأمراض العقلية... كما إنني انبهك، إن حاولت أن تكون مشاكساً فستنال عقابك» ثم خرجت دون ان تغلق الباب وراءها.

كانت الحمى تتراقص داخل جسم لودو الذي تفحص الحجرة بنظرات متعبة: كانت هناك صورة للمسيح مصلوباً على الجدار فوق السرير وكان لون مركز الصورة ازرق والجوانب أبيض بلون القشطة وكانت الارضية تبعث رائحة صديقة. استرجع مشاهد حياته في الدغلية وهو يسوّي الزبدة فوق الخبز بصفحة سكين مبللة واستنشق رائحة القهوة وعطر الملاء وطيب والدته النائمة. لابد أنها استغلت جمال الطقس كي تذهب الى الساحل بالسيارة. وستعود متأخرة. انها تحب العودة متأخرة دائماً الا انه لن يسمعها هذا المساء.

خيل اليه انه رأى خلف النافذة وجهاً ضاحكاً خلف قبعة خضراء.

فتح حقيبته وافرغ محتوياتها داخل الخزانة كما لو كان يفرغ كيس قمامة. وكان ميشو هو من جهزه للرحيل في العشية واضاف الى أمتعته الخاصة بعض الطعام وأقلاماً للرسم.

ظل لودو واقفاً في مكانه مشتت الفكر غير قادر على الثبات على قدميه ثم سحب من جيبه عقداً من القواقع والمحّار رفعه الى فمه وقبله بعينين مغمضتين. لقد امضى اشهراً كاملة في اختيار قطع المحار

وتنسيقهـا وازالـة الشوائب منها وتنظيفها وثقبها ونظمها في خيط مطاطي وطليهـا. وضـع الحليـة البحـريـة حول عنقـه كي يجربها وكله ثقة بأنه سيتمكن اخيراً من ان يبهر والدته وأن ينال الصفح منها.

خبأ العقـد تحت الفـراش مع صورة أمـه التي سرقهـا من أحـد الالبـومـات كمـا اخفى الجورب المليء بالنقود ايضاً ثم استلقى على الارض بعـد ان أحس بتـزايـد الـدوار داخل رأسه ثم مالبث ان نام وقد أحـاط رأسـه بذراعيـه. ولكن لا. انـه ليس مجنوناً، انظري قليلاً الى عينيـه النـابضتين بالحيـاة. . ماما تقـول إنه سقط وحده. . . لايمكن سمـاع البحـر كمـا في المخـزن لان البحـر منخفض. . . كان يرتطم بالجـدار أحيـانـاً يجب ان يستنـد كي لايسقط. . . انا كنت أكلمه عبر الحـائـط وأحـك بالمسمار كي يدخل ولكنني لم اكن اعرف من هو. . سأسأل فين: أين يمكنني أن أراه.

★

انتهت العاصفة الى ابتلاع الرصيف العائم فبعثرت بيوض البوم في جميع الاتجاهات وجرفت لودو عند وصوله نهاية الانبوب فهزته الأمواج بعنف دفعـه الى فتـح عينيـه فشاهد وجه البومة قبالته تماماً وكانت على وشك ان تهاجمه الآنه ما ان تعرف الى الماركيز ديغرمون حتى حبس صرخته.

سمع صوتاً مزماري النغمة يقول:

«الاستلقـاء ممنـوع. . انـا لن أقـول شيئـاً ولكن الآخـرين. . لقـد خسرتم جلسة موسيقية جميلة على أية حال. . . سنتناول العشاء الآن

والجميع في انتظاركم في صالة الطعام».

كان الوقت ليلاً والنور مضاء.

«والأهم هو ألا تنسوا خروفك».

وعندما دخلا القاعة حياهما الاطفال الجالسين الى موا .هم بالتصفيق وكانت القبعات المعلقة على المشاجب تبدو كأنها عصافير واقفة، وانوار خافتة تتوج المغارة. وكان ثمة رجل اسود ذو كرش بارزة يدفع عربة ذات عجلات تحمل اطباقاً يتصاعد منها البخار.

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وقال:

«أنا دودو. وانت؟»

كان ذا نظرة طفولية أشيب الشعر وقد برزت صرته تحت القميص وكأنها حلمة.

«اسمي لودو».

ثم شد على يد الأسود خائفاً تقريباً اذ كان ذلك هو أول أسود يراه عن كثب.

اشرأب الأطفال بأعناقهم كي يروا لودو على نحو أفضل وأشار الماركيز الى المقعد الخالي الى جانب مقعده بحركة مسرحية استعراضية.

«أنا أوديلون والى يساركم.. غراسيان. انه ليس ثرثاراً ولكننا نحبه كثيراً».

فالتفت لودو ليشاهد شخصاً تبدو على ملامحه الكآبة ذا جبهة يظللها حاجبان اسودان غليظان.

وهمس الماركيز في اذنه «غراسيان لا يملك الحق في امتلاك

قبعة».

وسمع عندئذ صوت صفارة خافت ونهضت الآنسة راكوف واقفة من مائدة الفتيات الممتدة جنب المغارة فصمت الجميع.

«انتم تعـرفـون الآن لودوفيـك، رفيقنا الجديد. سأطلب اليه التقدم مع خروفه...».

فغادر لودو مكانه وهو يرتجف بفعل الحمى وبسبب القلق ووقف الى جانب الممرضة امام المغارة. وخلال ذلك، التقت نظراته بنظرات فتاة مراهقة سوداء الشعر سرعان ما احمرت خجلاً. كانت جميلة الملامح الا أنها تحمل آثار جرح قبيح في الفم.

شاهـد لودو مسيحـاً سميناً وحمـاراً وبقرة وموكباً كاملاً من الحملان التي تشبه حمله

وقـالت الممـرضـة: «انظـروا جيـداً يا اولادي. لودو يملك روحـاً، مثلكم جميعاً». ثم رفعت الدمية وحركتها في جميع الاتجاهات وكأنها القربان المقدس.

فارتفع همس مؤيد من جميع الجالسين.

«سأضع خروفه اليوم قريباً جداً من المسيح الصغير احتفاء بمقدمه. سيكـون الى جانب ميڤـون وروزالي، خلف اوديلون تمـامـاً. إنهمـا تشغلان ذات المكان منذ اثني عشر عاما ولنأمل أن يفعل لودو مثلهما».

أمـا ميڤـون وروزالي فهمـا فتـاتان مسكينتان تحولتا الى آلتين تماماً ليس بامكـان أي نسمـة من الحـريـة ان تتسـرب الى عاداتهمـا وهمـا تشعران بلا مبالاة كاملة عمياء إزاء اي شيء.

ـ «والآن سأعطي لودو قبعته... لكل طفل قبعة في سان ـ پول».

ثم كررت بصوت اعلى :

«لكل طفل قبعة، ولكل طفل خروف. . . »

فسرت بعد هذه الكلمات جلبة في القاعة.

« . . . نعم يا أطفالي، ما عدا غراسيان. لقد أخذ غراسيان خروفه من المغارة، سرق روحه من الرب. ولن ترى روحه المسيح الصغير بعد الآن».

ما هو اكيد هو ان غراسيان طفلٌ متخلفٌ عقلياً جنى عليه اضطراب الكروموسومات الا ان بصيصاً من نور كان ينبعث فجأة من عمق الضباب الذي يعيش فيه. كان خروفه يحتل الموقع الاخير في المغارة دائماً وقد بذل الجهود لتغيير ذلك عبثاً. عبثاً لاعبه وداعبه ووضعه دون علم أحد امام ميفون وروزالي الا ان الخروف كان يعود الى المؤخرة كل صباح. وفي أحد الأيام اختفى الحيوان ولم يستطع أحد اماطة اللثام عن الحقيقة. وكان غراسيان قد وضعه داخل عش عصفور مهجور في عهدة انموذج مصغر جداً للمسيح حصل عليه في مسابقة على الحلوى بعد ان ربط الدمية الى الخروف بخيط. وبذا فلن يكون لروحه المربوطة الى الله ان تخشى بعد الآن شيئاً.

«الا اذا اخبرنا غراسيان بالحقيقة. . . » فتوجهت الأنظار كلها الى الصبيّ التعيس ذي الحاجبين الغليظين الذي بدا وكأنه يتأمل متعبداً ملعقته الخشبية.

«لن تقول شيئاً اذن؟»

ولم يكلف نفسه حتى عناء رفع عينيه. لم يكن غراسيان قد افشى سرّ سرقته الروحية لأحد بل سرعان ما نسبها بعد اقترافها مباشرة الا انه

واصل لاارادياً زيارة خروف لم يعد له وجود بعد أن عملت تقلبات الجو على تحليله فكان يرتق العش المتداعي بفتات الخبز كي يحافظ، بكل ما في داخله من مشاعر، على سرٍ ما عاد يتذكره هو نفسه.

«حسنٌ... فليكن!... لا اعتراف، لا قبعة».

وكان غراسيان يعوض حرمانه خلال الليل سراً بارتداء قبعة حمراء عثر عليها في الكنيسة.

«بقي ان نعطي لودو قبعته كي نبدأ بتناول العشاء».

ثم اخرجت غطاء رأس ذا خصلة من خيوط صفر فعلت ذلك كما لو كانت تخرج تاجاً، ثم طوقت بها بجلال، جبهة الوافد الجديد.

وعند الاشارة، انطلق الصبيان والفتيات في نشيد جماعي عاد لودو في اثنائه الى مكانه وقد حال لونه الى لون القرمز.

تناول لودو طعام العشاء في شرود وابتلع قبل ذلك كالآخرين قرصاً ابيض. لم يكن قد أكل شيئاً منذ الفجر لكنه لم يكن جائعاً. وكانت ثرثرة الماركيز ديغرمون البليدة تزعجه ونظرات وضحكات الآكلين المتيقظين لكل حركة من حركاته تقتله انه في الدار الآن... هذا ما يحتاج اليه... هذا ما يستحقه... لمصلحته وضع... هناك لن يعود الى كسر الصحون... لن يطلق الصرخات... لن يسترق السمع خلف الابواب... عند مغادرة عيادة الطبيب كانت تقول كلهم جبناء بشأن التأييد الا انك مجنون يالودو انت تعرف جيداً انك مجنون... هذا ليس صحيحاً وأنا لست ادري...

وبعد تناول الحلويات أطلق صوت الصفارة سراح الاطفال وقالت الانسة راكوف: «أسرعوا الآن الى الكنيسة مع فين وسألحق بكم بعد

قليل للصلاة».

كانت تعيد ترتيب المغارة وفق مزاجها كل مساء وتدفع ببعض الخراف الى الوراء، الى حيث العار. وكان تراجع بعضهم هو الذي يفتح الطريق أمام تقدم بعضهم الآخر. كانوا يأتون كل صباح لمعرفة موقعهم اليومي الجديد بالنسبة الى الخالق. وكانت تستعين بسيطرتها تلك على الأطفال كي تتقبل مصيرها. كانت في السابق عشيقة الكولونيل دومواساك. انها تفكر في ذلك ليل نهار، كمن يذكي النار، كي تنتقم من ذاكرتها الى الأبد ومن الوحدة التي خلفها فيها عندما مات. ترى هل أحبها فعلاً؟... ربما فعل ذلك في البداية فقط. كم كان ذرب اللسان عندما كان يأتي لاصطحابها من مستشفى انغوليم... كان يريد الزواج بها ورائحة بُنّ «مخا»* تنبعث من فمه. كانت في الاربعين وكان هو في الستين وكان ينوي صنع حياته من جديد. كان متزوجاً وكانت تلك، غلطة شباب دفع ثمنها غالياً جداً بابنين غير سويين، وهو يريد الآن طفلاً منها هي. ولكن يجب ان يتم كل شيء في هدوء، دون عجالة او فضائح ودون ان يفشيا سر حبهما. وحتى تتم تسوية المسألة مع زوجته بإمكانها الاهتمام بالمرضى في مركز سان ـ پول.

وانطلت عليها الخدعة. أحبّت وأعطت كل شيء وتخلت عن كل شيء وأعادت بكل وقاحة زي رئيسة الممرضات الى الدولة.

ترى هل صدقته! نعم!

وبعد أربع سنوات ماتت السيدة مواساك بسبب انسداد الأوعية

---

* مخا مدينة في اليمن تنتج البنّ (المترجمة)

الدموية واطلق زوجها اليائس على نفسه رصاصة من مسدس حشره في فمه. وكانت هي أول من اكتشف المجزرة.

منذ ذلك اليوم وهي تقضي لياليها في ألم فظيع تتنازعها الأحاسيس ويبكي لحمها داخل جسدها مثل حيوان يتضور جوعاً. كانت تستيقظ متعرقة ملتهبة الحواس تحلم بعشيقها يضمها بين ذراعيه ويتوسل اليها لكنها ما تلبث أن ترى الجثة وقد تحولت الى هباء ومخيلتها الى مرتع للهذيان فكانت تخرج عندئذ كي تتمشى.

ومنذ ذلك الوقت وهي تنام والنور مضاء في حجرتها... وتلك الحجرة في القبو التي يستخدمها للتصوير، حجرة إرضاء الرغبات في الواقع اذ كانت تحوي سريراً سهل الطي مخبأ تحت مناضد العمل. وكانت تخشى دائماً رؤية زوجة الكولونيل تدخل من الباب.

ياله من جبان!... لقد فضل الموت على الوفاء بوعده فكان بذلك قاضياً من الطراز الاول، قاضياً لم يخسر قضيته عندما استطاع الحفاظ على بيته وعائلته. أما علاقته بها هي فلم تكن حتى علاقة عاطفية بل مجرد طبق حلوى يتناوله كي يشعر بالراحة بناء على توصية طبيب. وبذا كانت هي تحلية رجل اراد التمتع في أيام شيخوخته كي ينام قرير العين.

وبعد وفاته، مرت سنتان كاملتان لم تذهب خلالهما الى حلاقها في ميرنياك، حتى حلَّ اليوم الذي تملكها فيه ظمأ الشباب فاتصلت بصالون الحلاقة هاتفياً وضربت موعداً لايڤان، ذلك الفتى الوسيم ذي الرأس الحليق الذي كان يحيطها باهتمامه في السابق. ومنذ ذلك اليوم

وهي تتردد اليه مرة واحدة كل اسبوع، بعد ظهر يوم السبت. ما أجمل وما أروع أن تسلم رأسها الى يدين ذكريتين تغسلانه وتعتنيان به، أن تغمض عينيها، وان تحرر روحها، وان تخترع الزواج الذي لم تنله ودعوات العشاء في «البريفيكتور» وان تشعر بالغيرة التي تشعر بها زوجة سابقة وان تهتم بتلك المشاغل الرائعة المرتبطة بحياة ذات موقع مميزً.

★★★

الفصل التاسع

لم يستطع لودو التمييز قط بين الانطوائيين ومختلي العقل والمصابين بالكآبة اوبالهلوسة، ولم يكلف أحد نفسه في الواقع عناء إطلاعه على اي شيء. وكانوا اذا ما قالوا في سان - پول ان فلاناً مريض، فذلك يعني انه يشكو من أوجاع شائعة جداً كتسوس الاسنان او التواء المفاصل أو آلام العنق. اذ يفاخر الأطفال متباهين بعرض ضماد كبير يتيح لهم التأكيد دون مواربة: «أنا مريض». وكانت تلك صيغة سحرية تلغي مؤقتاً تلك الهوة التي يسقط فيها العقل ويتحول الى نثار.

كان الزمن يمر عليهم لامرئياً، بلا حاضر ولا مستقبل، ليضع الكبار منهم والصغار في الفئة العمرية نفسها وليعتقهم من الذكريات ومن فكرة الموت، فتراهم يشيبون دون ان يكبروا، بلا مستقبل، غير تلك اللحظة التي يعيشون وهي الاخرى خاضعة للشك أيضاً.

عرف لودو غراسيان وميفون وروزالي وليز التي تلتزم الصمت دائماً وماكسونس وانطوان والتوأمين برنار وبارنبي اللذين يسرقان الطعام وينشدان القداس بصوت كصوت العندليب، بأسمائهم فقط. لكنه لاحظ أن شخصيات بعض الاطفال ممسوحة تماماً حتى انهم يكتسبون لون الجدار الذي يجلسون عنده، معتكفين في صمتهم،

منغلقين على أنفسهم وكأنهم طرود بريدية قديمة ما عاد أحد يفكر في فتحها. وكانت تلك حال الكثير من الفتيات اللواتي لم يعرف لودو على الاطلاق من منهن نادين او انجليك او ميراي. وكانت تلك الفتيات اللواتي يتجنب الاقتراب منهن بسبب هاجس غيبي، يُحسِنَّ فن التكوم على انفسهن والغوص داخل جسم يلفه الغياب حتى ان العين لا تسعى الى البحث عنهن فيه أبداً.

أحس لودو بميل الى انطوان وهو فتىً متوحد نفور يبدو وحيداً دائماً وان كان في صحبة الاخرين، ذو عينين مغرورقتين على الدوام بدموع يمكن ان تنحدر على خديه فجأة دون سبب ظاهر. كان يحلق الجانب الأيمن من وجهه ويحتفظ بالثاني ملتحياً وينظف اسنانه العليا بالفرشاة ويترك السفلى دون تنظيف ولا يستحم الا مكرهاً. وفي احد الايام ارادت الانسة راكوف ودودو حلق عارضيه واجباره على الاستحمام بالقوة فتحول الى حيوان متوحش وعض الممرضة حتى سالت منها الدماء مما اضطرهما الى تأجيل المشروع. وكانت لأنطوان أيضاً عادة القيام بمحاولات إنتحار سلمية عن طريق شنق نفسه فكان يقف على مقعد ويشد رباط عنقه بحامل مصباح شداً خفيفاً ثم ينتظر في الظلام بكل صبر ان تقوم المشنقة بعملها. وكانت علاقته هذه بالغيب، رغم اصطناعها، تمنحه في نفوس الآخرين جاذبية كان القزم يغتاظ منها.

وكان هناك لوسيان ايضاً الذي يقرأ منذ الصباح حتى المساء كتاب «الكونت كوستيا» لفكتور شير بولييز وقد قال له لودو يوماً: «انت كاذب. انت لا تعرف القراءة...» فأخذ الاخر يقرأ بصوت مرتفع وبسرعة جعلت لودو ينسحب منزعجاً. الا ان مأثرة لوسيان لم تكن تتجاوز هذا

الحد اذ انه لم يكن يفهم ما يقرأ، لا كلمات ولا قصة، ويعيد قراءة الكتاب عينه منذ عشر سنوات، كالقس الذي يردد دائما كتاب الصلوات نفسه.

أما اوديلون فهو قائد الاطفال السري وهو يستخدم، عند التحدث اليهم، صيغة الاحترام جهاراً، تعالياً منه عليهم ويستعمل لهجة خطابية متغطرسة كانت نتيجة لاحساسه بصغر حجمه. وكان اوديلون ذا وجه شاحب كالمصاب بالسل يشبه ثمرة لفتٍ ضخمة توزعت فيها شعرات طويلة سميكة وشفتها عرضياً ابتسامة ماكرة متوترة حتى انها تبدو وكأنها تجعيدة في الوجه. كان مولعاً بالموسيقى ويقول ان كورتو* كان استاذاً له ولكنه لم يعد يتذكر لاية آلة ويظن نفسه صديقاً حميماً للانسة راكوف التي تعده اكثر المخبرين مكراً واخلاصاً. كان ينقل الاخبار حباً بالمديح ويتبجح أمامها وهو يأتي بحركات مغفل بليد. كانت الفتيات هاجسه الاول وهو يدعي أنّهن يبغضنه ولذا لم يكن يجازف البتة في التوغل داخل ممرات الحديقة يقيناً منه أنّهن يتربصن به هناك كي يمزقنه إرباً إرباً. وكان يمارس ايضاً عمليات ابتزاز تجاه اولئك الذين يتقربون اليهن.

كان بامكان الفتيات والصبيان، على أية حال، التحدث بعضهم الى بعض على الشرفة في انتظار موعد تناول الطعام لكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يستخدمون تلك الحرية الممنوحة لهم بسبب القلق وبسبب ثقل الممنوعات التي تنوء تحتها اجسادهم.

---

* الفريد كورتو ١٨٧٧ - ١٩٦٢، عازف شهير على آلة البيانو اشتهر بتدريس الموسيقى وهو الذي اسس معهد الموسيقى في باريس. (المترجمة)

«صنعته أنا، وهو لأمي، نحن متزوجان كالهنود، لقد وضعت دماً في قهوتها».

لمست ليز الأصداف واحدة تلو الاخرى كما لو كانت طلاسم دون أن تقول شيئاً. كانت ليز في الثامنة عشرة من العمر، يقولون انها عديمة الشهية للطعام وقد جاءت الى سان ـ پول بمحض ارادتها لانها لم تستطع احتمال الحرية ولم تستطع كذلك احتمال البقاء مع عائلتها. وكان شق في شفتها العليا يشوه فمها لكنه يبرز جمال شفتها السفلى المرسومة على نحو رائع. وكان من عاداتها أن تحتفظ بيديها باستمرار داخل جيبي قميص فضفاف يحجب عن الناظر معالمها الانثوية وتسحق داخلها فتات خبز أو تضم قبضتيها بقوة.

واستأنف لودو:

«سأصنع واحداً لك عندما اعود الى المنزل. هناك أصداف كثيرة قرب دعامات الرصيف العائم. لقد توغلت حتى نهايته تقريباً».

وعندما سمع لودو صوت الصفارة توجه الى مكانه في صالة الطعام الى جانب القزم الذي بدا الاستياء على وجهه. وقال له القزم أثناء تناول الحلويات: «لا أريدكم أن تتحدثوا الى تلك الفتاة. إنها سيئة... وان اردتم الحق فكلهن سيئات».

وكانت صفارة الانسة راكوف تعمل عمل الساعة طيلة النهار وتنظم توزيع الوقت.

كانت انشطة الأطفال في الهواء الطلق تستغرق الصباح بأكمله اما فترة ما بعد الظهر فتبدأ بنزهة يقوم بها الأطفال في صفوف منتظمة

لتسهيل عملية هضم الطعام ثم يتوجهون الى الورش التي تقع خلف الكنيسة وهي ورش لصناعة الخزف والرسم والغزل او البريد تبعاً لأيام الاسبوع. وكان الموهوبون منهم يبعثون الى عوائلهم رسائل يرفقون بها عدداً من رسوماتهم وكان ذلك يمنحهم شعوراً بالابداع وباستمرار التواصل مع ذويهم. وعند المساء، يصغي الاطفال الى الموسيقى ويشاهدون عروضاً سينمائية في الوقت نفسه من خلال عملية توليف سمعية ـ مرئية تجمع بين أوبرا لموزارت أو ماهلر ومناظر تجسد التكوين ثم البراءة ـ بحر الأيام الاولى الطاهر طهارة الصحراء. ويعقب ذلك الاستحمام اليومي الاجباري قبل الجلوس الى المائدة حيث تعطى الأولوية للذكور. وقد رآهم لودو عراة كما ولدتهم أمهاتهم بلحمهم الرخو وبطونهم الشمعية البيض.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام يقوم الاطفال بترديد الصلاة والأناشيد الجماعية في الهواء الطلق صيفاً حتى ان منظرهم يذكر الرائي بصور تسبيح الملائكة. وعندها يمكن لكل طفل العودة الى حجرته أو التوجه الى القاعة المشتركة، في انتظار موعد منع التجول.

وكان كل يوم من ايام الاسبوع يكرس لمعالجة موضوع من الموضوعات المفيدة الذي تعاد مناقشته مرة كل اسبوعين لتمرين ذاكرة الاطفال. كان يوم الاثنين يكرس للسكون اذ يشجع الاطفال على التزام الهدوء عن طريق التعبد، ويوم الثلاثاء للطيبة حيث ينبغي على المرء ان يكرس نفسه للآخرين وكان الاربعاء هو يوم الأمل الذي يخصص لتمجيد المسيح، أب البراءة وقاهر الشيطان، ويوم الخميس يوم التوبة الجماعية حيث يلتقي المرء في الممرات اطفالاً احمرت

وجوههم خجلاً بعد تنبيههم على ذنوب صغيرة ارتكبوها مثل سرقة قطعة بسكت او تناول الطعام بشراهة. وكان يوم الجمعة يكرس لصلاة من اجل «الغرباء». اما يوم السبت فهو يوم الاحتفال بالفرح حيث يظهر الجميع حبوراً يتناقض تناقضاً تاماً مع مشاعرهم الداخلية.

وسأل لودو: «ما الفرح؟

- الفرح هو ان نكون معاً في مأمن من الغرباء... ألذيك ما تلوم نفسك عليه؟

- لا أدري. انني لا أتذكر ابداً.

- ومع ذلك فانني اطلب اليك ان تُظهر للآخرين وجهاً اكثر بشاشة في مثل هذا اليوم».

أما يوم الاحد فيخصص لذوي الاطفال الذين يصلون منذ الصباح الباكر لحضور القداس ويوقفون سياراتهم في ساحة كرة المضرب بين المغطس وسيارة الفرساي العائدة للكولونيل ويتجولون في ممرات الحديقة حتى المساء برفقة الأطفال الذين يقولون أشياء كثيرة او لا يقولون شيئاً على الاطلاق. والأمران سيّان لأن مصيرهم كان قد تقرر وانتهى الامر فهم أناس لم يحالفهم الحظ في هذه الحياة. وما ان يحل الظلام حتى يناضل الآباء في الغالب من اجل إقناع زوجاتهم بالموافقة على عملية التخلي من جديد: ترك الابنة او الابن على سطح كوكب حجر عليه فيه كالمنبوذ.

★

قال القزم بلهجة بوليسية: «الرسم على الجدار ممنوع. من المؤكد انني لن اقول شيئاً للانسة راكوف... ولكنها تفتش الحجرات، ثم

هناك ألسنة السوء ايضاً . . . جئت كي اتمنى لكم ليلة طيبة فقط».

فأجاب لودو بفظاظة:

«لست كالآخرين. لست مجنوناً وبقائي هنا لن يطول».

كانت الايام الستة التي قضاها في المركز حتى الآن قد حطّمت أعصابه وقد امضى عصر ذلك اليوم في لعب لعبة البطريق وهو عبارة عن دمية باهتة الالوان صنعت من مادة السليلويد. وتقتضي قواعد اللعبة ان يلبس الأطفال الحيوان قبعاتٍ الا أن اصابة الهدف من عدمها ليس بالأمر المهم في سان - بول اذ تطير القبعات لا على التعيين فيلتقطها الأطفال من جديد وهم يثرثرون وقد حنطتهم البلادة وانغلقت أنفسهم امام الاحساس بالضجر، حتى يدبَّ النعاس في أجفانهم.

«إنه لأمر مؤسف حقاً فالجميع سعداء لوجودكم بينهم . . . ولكن من يدري! . . . هل لاحظتم أنني الاول دائماً في المغارة؟».

كان يتحدث بتبجح داخل سترته الحمراء:

«لقد عاودتم التحدث الى . . . ليز . . . انها أسوأهن جميعاً والانسة راكوف تكرهها . . . أيمكنني الجلوس؟»

استبق الرد وجلس فوق السرير بكامل ملابسه:

«انكم تجيدون الرسم وانا أفهم في الرسم! كنت أفوز بجميع الجوائز والميداليات وأشارك في جميع مسابقات الفروسية. إنني أُحبُّ كثيراً زهوركم السود».

فقال لودو الذي بدا عليه الانزعاج:

«انها ليست زهوراً. إنها كف.

«كفٌّ سوداء. انا افهم في مثل هذه الامور! . . . وخلفها يوجد

زهور. انا احب الزهور كثيراً وبخاصة الورود.

- انها ليست زهوراً. انه شعر.

- نعم ولكنه أحمر. رائع! كالنار... هذا هو المهم... النار».

وعاد لودو الذي عض على لسانه الى الرسم.

ثم سأل بهدوء.

«اين البحر؟»

فبدا القزم وكأنه قد صعق.

«البحر؟... ومن أين لي أن اعرف. انه بعيد جداً حتماً... ليس مهمــاً على أيـة حال ومن الأفضـل لكم ان تفكروا في نصائح انكم تخطئـون بتحـدثكم الى الفتيـات. هذا ممنوع في الواقع. خطرات... صدقني .ألم تروا النظرات التي يرمقنني بها؟...».

ولم يكن لودو قد لاحظ شيئاً.

«حاولوا الانتباه الى ذلك من الآن فصاعداً اذن. لا يمكن للمر يكون على ما يكفي من الحذر معهن ابداً. انظروا الى غراسيان!.

- ذلك الصبي الذي لا يملك قبعة؟

- ولا يملك خروفاً أيضاً».

وحاول اوديلون كتم ضحكة صدرت عنه بوضع يده على فمه:

«غريب... هناك خصلة ناتئة في الشعر».

ظهـر ماكسـونس في تلك اللحظـة يحمـل تحت ابطـه دفتراً للر فاحمر وجهه عند رؤيته القزم وقال معتذراً:

«مساء الخير، اردت فقط ان أري لودفيك رسومي المائية ولكن

انني ازعجكم . . . » .

وكـان ماكسـونس فتىً اشقـر ذا هيئـة حالمة يتحدث بصوت هامس وتبـدو منـامتـه كمـا لو كانت تقيده . أجاب أوديلون بنبرة متعالية : «لا . ابداً . هيا . تعالوا ما دمتم قد أتيتم» .

ثم استأنف بصوت خفيض :

«ماذا يفعل دودو؟

ـ اعتقد أنه نائم . لقد انصت جيداً .

ـ رائع . سأريكم شيئاً بعد قليل . . . انا اعرف ذلك بجهازي » .

وكـان اوديلون يملك بارومتراً بحـريـاً يسميه «جهازي» يحدق اليه كمن ينظر في كرة بلورية ويعتقده قادراً على التكهن بأشياء كثيرة .

وكان ماكسونس قد تسمّر دهشة امام جدار لودو.

ـ «انها كف، أليس كذلك . . . ولكن في الخلف، هناك شخص ما!»

فتدخل اوديلون :

«انها كف سوداء مع زهور» .

فصحح له لودو:

«انها ليست زهوراً بل هو شعر» .

مرّ ماكسونس بأطراف أصابعه على الجدار وهو يردد بصوت واهن ومستسلم :

«هناك أحد ما في الخلف . أنا سان ـ ميشيل قاتل التنين . . . أنا . . »

فقاطعه اوديلون :

«انا أرسم أيضا ولوحاتي معلقة كلها في صالة الطعام».

فتح ماكسونس حافظة أوراقه على المكتب وراح يقلّب بحب صفحات بيضاً او مخربشة بخطوط وحشية خطّت بقلم رصاص غاضب، وفي ذيل كل واحدة منها تتكرر الاسطورة نفسها ويتكرر الخطأ نفسه: «سان ـ ميشيل يصرع التنينة» ثم اسم الرسام الذي خط بحروف ضخمة غير متساوية الحجم.

وقال القزم بنبرة من يعد نفسه شخصية مهمة:

«والآن أصغوا اليّ.. سنرى نحن الثلاثة شيئاً. ولا تنسوا أنني حارسكم»..

ثم اراهم مفتاحاً ضخماً كان في يده. لقد آل به خوفه الشديد من الفتيات الى ان يكون اكثر السجانين حرصاً وكانت مهمة التأكد كل مساء بعد دودو مما اذا كان باب الممر مغلقاً او لا موكلة اليه.

واحتج ماكسونس: «ولكنها مجازفة. ماذا لو فاجأتنا الانسة راكوف؟...

ـ لست سوى رعديد ياماكسونس ومثلكم لا يذهب بعيداً ابداً!».

ثم وثب على قدميه وفتح الباب واشار الى صاحبيه ان اتبعاني. كانت هناك اصوات ضجة بعيدة تطرز العتمة. وعندما وصلوا الى نهاية الممر دس المفتاح داخل القفل فبانت امامهم صالة الطعام التي كانت الاقداح تلتمع فيها فوق الموائد عاكسة اضواءً فضية كما بدا زجاج النوافذ واضحاً وهو يبعث ظلالاً شبحية بسبب الليل المقمر في الخارج.

وكان ماكسونس قد تخلى عن مصاحبتهما.

همس اوديلون: «فليذهب الى الجحيم» ثم تقدم كالسمكة حاملاً بيده مصباحاً يدوياً واخذ يتسلل بين الموائد الغارقة في العتمة فلحق به لودو حتى الموقد الذي يضم المغارة. ومشطت حزمة المصباح الضوئية المغارة الورقية والحمار والبقرة والمسيح الصغير وجميع الخراف المصطفة واحداً خلف الآخر.

قال القزم باعجاب: «ما أجملها! أرأيتم، انا في المقدمة. أنا الأول دائماً. انظروا... اننا متجاوران...».

ثم، اذ لم يستطع كبح دهشته:

«يا الهي. لقد تراجعتم مقارنة بالبارحة!... فقدتم ست نقاط. ذلك امر خطير جداً!... لابد ان ذلك بسبب تحدثكم الى ليز».

ثم استمر باستعراض المغارة وهو يعلق على مواقع الخراف بصوت خفيض: «صحيح ان انطوان لم يسرقه... ولكن لماذا يأتي موقع مريام أمام «قارورتي الخشب» دائماً!... ها هن الفتيات يشغلن موقعاً أفضل مرة أخرى! انظروا! موقع ماكسونس جيد، بل جيد جداً...» ثم همهم ومدّ ذراعه نحو الخروف وتردد قليلاً لكنه ما لبث أن حمله برفق كقطعة شطرنج ونقله بعيداً الى الوراء.

وعاد لودو كي ينام وهو يشعر بالكآبة قال ميشو انه سيعود يوم الأحد وهذا يعني يومين آخرين هنا مع المجانين والخراف والبطاريق... لا اريد هذا.. القهوة العربية الجيدة ينتجان مزيجاً لذيذاً وأصيلاً، ست سمكات ساردين بالزيت وبالصِبْر، ثلاث حقن تؤخذ خلال اربع وعشرين ساعة في قليل من الماء قبل الوجبات تعمل على تقوية الألياف والمسيح ثمرة أحشائك مبارك.

وحلَّ أول يوم أحد فشعر لودو بالدوار بسبب القلق. وفي الساعة السابعة صباحاً حملت اليه فين في حجرته بدلة استخرجت من رزمة للملابس المستعملة اهداها ذوو الاطفال الى المركز.

«انها ليست جديدة تماماً ولكنها ليست قديمة جداً. ستجد الرباط داخل الجيب ولكن لا تقلق بشأن العقدة فهو مزود بشريط مطاطي».

فقال لودو إنه يعرف كيف يربط جميع أنواع العقد وبضمنها العقد البحرية وانه كان يضع رباط عنق كل يوم في الدغلية.

كانت رائحة مبيد العث تنبعث من البدلة التي كانت قديمة الطراز وكان بنطالها قصيراً وطيته السفلى عريضة لكنه وجد نفسه مع ذلك جميل المظهر وداعب الوردة الحمراء الصغيرة التي نسيتها فين في عروة السترة. الا انه تجنب النظر بكل بساطة الى حذائه الذي كان ضخماً من النوع الذي يستخدم للسير على الثلج وكان يعود لميشو في السابق. كانت تلك هي المرة الاولى التي يرتدي فيها ملابس الرجال مثل تاتاف في ايام العطل، لم يعد يشك في أن أمه ستأتي وأنها ستنبهر به ثم وضع العقد باعتناء وفخر في جيبه قبل ان يخرج متوجهاً نحو صالة الطعام.

قالت له فين: «لقد استغرقت وقتاً طويلاً في ارتداء ملابسك. لقد برد الطعام... الاطفال على وشك المجيء».

ثم استأنفت بعد أن لاحظت الوردة:

«ووضعت وساماً أيضاً. ولكنك لم تفعل شيئاً كي...» ثم نزعت عنه زينته دون أن تسأله رأيه.

حمل لودو الذي أحس بالمهانة أقداح الكاكاو على العربة ذات

العجلات وشرب نصف قدح من الحليب الحار وقضم قطعة خبز مطلية بالـزبـدة ثم هرع دون علم أحـد ليتخـذ موقعـه مثـل جندي الرصد في مدخل الحديقة كي ينتظر وصول ذوي الاطفال.

وفي حوالي العاشرة وصلت سيارة سوداء كان في داخلها رجل وامرأة سألاه عن اسمه فاخفى قبعته وأجاب بنبرة جافة أنه ليس كالآخرين وإن أباه سيحضر كي يأخذه.

وما لبث أن شاهد في البعد سيارة فلوريدا زرقاء بلون السماء والغبار يحيـط بهـا وتعرف صوت المحرك فأحسّ بقلبه يغوص في أحشائه وقال في نفسه ها هم قد أتوا. إنهم هم، وأقسم أن لون السيارة سيتحول الى أبيض ما إن تقترب وأنه يكاد يراهم داخلها وهم يلوحون له بل انه يكاد يلمسهم... وكان داخل سيارة الفلوريدا التي اصرت على الاحتفاظ بلونها الازرق سيدة متقدمة في السن قالت له بلكنة مميزة انه سيسقط صريع المرض ان بقي في الخارج في مثل هذا الطقس.

وتتـابـع وصـول ذوي الاطفـال من آباء واجداد واخوة واخوات حتى منتصف النهـار واستقبلهم الاطفـال بحفـاوة على الشـرفـة الأمـامية ثم رافقوهم حتى صالة الطعام حيث كانت فين في انتظارهم مع انواع من الـوجبـات الخفيفـة الباردة... وراحت الانسة راكوف تمر على جميع الجالسين ملاطفة افراد رعيتها وناقلة عنهم اخباراً مؤثرة رائعة.

وبعثت الممـرضـة اوديلون ثم دودو كي يقنعـا لودو بالـدخول وتناول طعام الغداء، لكنه رفض.

وعنـد المســاء بعـد أن أرغم حلول الظلام الزائرين على الانصراف وراحت السيـارات تتتـابـع بطيئـة نحو البوابة، ظل لودو واقفاً في مكانه

بكـل عنـاد وغضب، ينتظر ويتوقع كما يتوقع الراصد في السفينة، أن يشاهد، بين لحظة واخرى، اميركا.

وقالت له الانسة راكوف: «انها طريقة جيدة للاصابة بالبرد».

فأيدها دودو:

«قلنا له ذلك عشرين مرة ولكنه أشد عناداً من الحمار».

ففقد لودو اعصابه:

«لست حمـاراً وهم سيأتـون. ربمـا ثقبت عجلة السيارة فقد حدث ذلك لأمي مرة وكنت انا من ابدل العجلة».

وفي تلك اللحظــة، توقفت سيــارة الفلوريـدا إلى جانبهم وقـالت المرأة ذات اللكنة المميّزة وهي تمزح: «يبدو أنكم قد استخدمتم عمود إشارة جديد. إنه لطيف، آمل أن أراه يوم الأحد المقبل».

ولم يمس لودو طعام العشاء فعنفته فين بعد ان لا حظت ان صحنه ما يزال مليئاً بهريس البطاطا.

«لم تأكـل شيئـاً» ثم انفجـرت ضاحكـة: «أكـلّ هذا لأن أمـك لم تحضـر؟... ولكن ذلـك امـر سيحـدث كثيـراً... انـا لم أر أمي منذ ثلاثين عاماً لكنني لم امت بسبب ذلك... لا تبتئس، ستراها في احد الأيـام اذ قد يغبن احيـاناً أشهراً طويلة... هيا، تناول شيئاً من الطعام وستصبح في حال افضل». وقال اوديلون ايضاً: «نحن متشابهان اذ لا يزورنا أحد. لكن ذلك ليس بالأمر السيء جداً فهؤلاء الغرباء يتعبونني كثيراً.».

وعنـد تنـاول الحلويـات ردد لودو آليـاً الصـلاة الجمـاعية الا انه لم يسمـع كلمـة واحـدة من خطبة الآنسة راكوف التي هنأت فيها الاطفال

على حسن تصرفهم.

ثم التقاها وهو في طريقه الى جناح النوم:

«عـدم قدوم والـديـك أمـر جيد اذ سيدفعك ذلك الى التفكير. . .» قالـت ذلــك بصــوت عذب متعــاطف وهي تحملق الى عينيــه، ثم استأنفت: «تبـدو تعسـاً جداً يالـودو. . . انك شديد الحساسية. . . لا تتـردد في المجيء والتحـدث اليَّ ان شعرت بحاجة الى ذلك. . تذكر أننا عائلتك حالياً، عائلتك الحقيقية».

فأجاب بحدة:

«ليس هذا صحيحـاً قط» وعنـدمـا استـدار كي يمضي، أحس بيـد تلمس يده.

اسـتقبلتــه في حجـرتــه موجــة من التصفيق ومن الضحكــات والصـرخـات. كان «قارورتا الخشب» ينهقان بالقداس وهما مستلقيان على فراشـه ولـوسيـان يقـرأ روايتـه بصـوت مرتفـع وغـراسيان يضحك وماكسونس ينظر دون ان يأتي باي فعل. اما اوديلون الذي كان يضبط الانغـام بحـركـات من ذراعيـه القصيرتين المتوترتين فقد بدا كمن يقود جماعة الطرب هذه.

وصاح اوديلون: «كانوا في انتظاركم كي يحتفلوا بأول يوم احد لكم في المركز. انظروا كم هم سعداء».

وفي تلك اللحظة صرخ لودو صرخة كانت من القوة حتى أنها أوقفت كل ذلك الضجيج. ثم قال مختنقاً والدموع في عينيه: «كفى. كلكم تغارون وأنا لا. انا لا أغار ولا أحب هذا، أتسمعون، لا أريد ان يدخل احد حجرتي وامي غير موجودة، لا اريد ان اراكم، هيا،

اخرجوا. . . ».

فتـح الأطفـال أعينهم حتى استدارت حدقاتهم رعباً ثم قفز اوديلون فوق السرير وأشرأب بعنقه الى امام.

«مـا دام الأمـر كذلـك، ومـا دمتم، وهنـا سأقـول، العقـل المـدبر للمسألة، نعم، هذا ما أعني، فليس امامنا من خيار سوى أن نخرج. . . ».

ثم انغلق الباب.

خلع لودو سترتـه بمشقـة وهـو يسحبهـا من اليـاقة وكأنه يخلع كنزة صوفيـة ثم كومهـا حتى اتخذت شكل صمام قنينة من الفلين ورمى بها نحـو النـافـذة. ارتمى بعـد ذلك على سريره غير المرتب ثم اقترب من المكتب واخرج من الدرج دفتراً للمسودات.

أنت أمي ولـذلـك اكتب اليـك، لأن المـرأة ارغمتني ولانـك لم تحضري أيضاً. قال لي ميشو انه سيأتي مع تاتاف وانت قلت سأودعه في المـرة القـادمة اذ سمعت عند الباب. لماذا لم تأتي اذن؟ يجب ان تأتي. لقد صنعت لك عقداً من الاصداف ومن القواقع ولونتها بنفسي ولكنك ان لم تأتي فلن استطيع اعطاءك اياه. قالت الانسة راكوف ان وجـودي هنـا بلا جدوى، لم تعـد هنـاك حاجـة للذهـاب الى الطبيب للتأكد. يمكنني ان اعمل صبياً عند ميشو وبما انني اعرف كيف اصلح الفلوريـدا فلن يكلف تغييـر العجلات كثيراً. الآن عرفت كيف يكون

المجـانين ولم اكن قد رأيتهم في السـابق . لست مثلهم . انهم ليسـوا اشـراراً بل هم لطفـاء تشبـه عيـونهم عيـون اسمـاك البـوريّ التي كنا نصطـادهـا انـا وتاتاف . حصلت اليوم على رباط عنق يشبه رباط ميشو وانا اعرف كيف اعقده ايضاً .

لودو



[illegible]

[illegible]

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

كان الاطفـال يرسمـون في مســاء يوم واحد من ايام الشهر «الغرباء» وهـو ذلـك العالم الخارجي الذي يدور حول مركز سان ـ پول كالعصابة والذي يصوره الاطفال بمختلف صوره واشكاله.

وكانت اعمال اكثر الاطفال خصوبة في الخيال تعلق حول المغارة.

رسم لودو الـذي اطلق له العنـان في هذا المضمـار لوحتـه المعتادة فبدت الآنسة راكوف مبهورة بها.

«هـذا اذن انمـوذج الغـريب بالنسبـة اليـك... انه لمثير حقاً... وماذا يوجد خلف الكف؟»

فأجاب لودو:

ـ «لا ادري.

ـ ولكن... ألا تعتقد أنه لن يستطيع التنفس بهذا الوضع وان اليد تكتم انفاسه؟ لماذا يا ترى؟»

فكرر لودو الذي بدا وكأنه يرى لوحته للمرة الاولى:

ـ «لا ادري. كان لدى ساعي البريد اليوم رسائل كثيرة...

ـ نعم. ولكن لا شيء لك. سبق لك أن طرحت هذا السؤال.

فهمهم قائلاً:

- «إن كتبت اليّ امي فاعطيني الرسالة ولا تسلميها للأطفال».

لمست الانسة راكوف ذقنه ورفعته بتأثر:

- «لـم يمض ما يكـفـي من الـوقت لتسلّم الـرد. . . ثم ان اهلك سيأتـون يوم الاحـد ولـذا فلا حاجـة بهم الى الكتـابة. . . المهم أنك رسمت لنا غريباً جميلاً. . . غريباً لم ار مثله الا ما ندر».

ثم اطلقت صفيراً خفيفاً من صفارتها جعل الرؤوس المحيطة بهما ترتفع.

- «هيا ايها الاطفال، اعيدوا اليّ رسوماتكم. حان وقت الاستحمام. . .»

ثم اضافت بنبرة خطابية:

«لودوفيك رسم لنا غريباً جميلاً هذا المساء. . .»

وبعد ان خرج الاطفال، تفحصت من جديد رمز التعاسة ذاك: تلك الكف التي تبـدو مثـل صفعـة موجهـة الى العدم، وهذا الشعر الملون بلون احمر كأنه لون دم حقيقي.

دم.

وبعثت دودو كي يستدعي لودو حالاً.

«اردت ان اخبرك بأنني سأعرض لوحتك في صالة الطعام. . . انها لوحة ناجحة».

فقال بشرود:

- «وانتِ؟

- قل لي. . بم لونت الشعر؟» ثم نظرت الى جرح جبهته الذي بدا ملتئماً تماماً.

ـ «انه من انفي. فحين افكر كثيراً ينزف».

ستأتي يوم الاحد... لن اعطيها العقد ولن اتحدث اليها كان عليها المجيء في المرة السابقة... كان عليها الرد على رسالتي، ان تسلّمت جواباً اليوم فسأعطيها العقد... لا يهمني إن اتت أو لم تأت سأكتب اليها رسالة اخرى اقول لها فيها انها ليست مرغمة على المجيء... سأقول لها انني لا اريد اي شيء وسأقول لها انني كبير بما يكفي كي اذهب بمفردي الى الدغلية... سأقول لها ان تذهب الى بيهاك الى القهوة التي ذهبنا اليها على شاطىء البحر حين قلبتِ كأسكِ امام الناس.

«.. حين أتحدث اليك اجب بدل ان تقتلع شعرات من حاجبيك. فيم تفكر؟»

وشعرت فجأة انها انما تتحدث في صحراء من الانتباه الكاذب.

«كنا نذهب انا وتاتاف الى الجلالات ولم تكن امي تحب ان نأخذ الملاعق من خزانة الاواني».

فقاطعته الآنسة راكوف: «ومع ذلك، أرجو ألا تعود الى استخدام انفك في الرسم... سمعت ايضاً انك تمارس موهبتك على جدران غرفتك. انصحك بعدم معاودة ذلك. وشيء آخر ايضاً... تبدو مهتماً بـ... ليز...».

ثم رقت نبرة صوتها وعقدت ذراعيها:

«... عليك ان تحذرها... احذر جميع الفتيات بشكل عام».

كانت مجموعة الفتيات تلك، اللواتي يعشن كالحريم دون ان يمسسهن بشر واللواتي يخلون من اي رغبة واعية، تفتنها. كن جميعاً

عذارى وكـانـت هي تفكـر في ذلـك ليـل نهـار وتتأمـل في براءة أحاسيسهن. كن جميعاً عذارى إلا من مد الدم الاعتيادي الذي حُكم به عليهن كالبحر، الوحيد الذي يخترق بطونهن ويجعل بريق الخطيئة يلتمع في أعينهن.

وأشرق وجهها بابتسامة:

«انت تجدها جميلة اذن... هذه الليز؟... ألم تلاحظ أن فمها مشوه؟»

فقال فجأة:

- «وأمي، لماذا لا تريدين التحدث اليها؟

- ما هذا الـذي تقـول... أنـا أريـد التحـدث الى أمك. ما عليها سوى المجيء وسترى...»

★

وفي يوم الأحـد التـالي، لم يأت احـد لرؤية لودو ايضاً فعاود الكتابة الى الدغلية.

جاء ابي قبل ايام وسيعود يوم الاحد القادم. يجب ان تأتي انت ايضاً اذن. قال لي انـه يريـد التحـدث اليـك بشأن عملي صبي ميكـانيكي والمـرأة في المـركـز قالت انهـا تريـد التحـدث اليك ايضاً. انا ارسم اجمـل اللوحـات. وبمـا انني اكتب رسـائـل فهـذا يعني انني اعـرف الكتـابـة. ستعلمني الطباخة كيف اصنع المربى وبذلك يمكنني صنع مربى الكـرر في الـدغلية. لقد رأيت رجلاً أسود ولم أكن أصدق حين

كان تاتاف يقول لي إن ذلك حقيقة.

لودو

ومرت خمسة عشر يوماً لم يحصل لودو خلالها على اي رد من اهله وطلبت منه الانسة راكوف ألا يقلق. وقد قرأ اوديلون في بارومتره انه لن يرى اهله بعد ذلك ابداً واكد له صداقته في المقابل. وفي مساء احد ايام الجمعة استدعي لودو الى قاعة الاستقبال في اخر النهار. كان تاتاف وميشو قد وصلا تواً. وما ان لمحهما لودو من بعيد من خلال فرجة باب القاعة حتى حث الخطى.

وقالت الممرضة: «من صبر ظفر».

لكن لودو اندفع داخل الحجرة دون ان يسمع كلماتها وفاجأ ميشو بالقول:

- «واين امي؟»

تقدم منه الاخير وعانقه بارتباك:

«كم نحن مسرورون برؤيتك!... بل نحن سعداء جداً انا وتاتاف. أليس كذلك ياتاتاف؟...

- المسافة بعيدة فقط... احسست بألم في بطني وانا في السيارة... ثم اننا ضللنا الطريق داخل الغابات...»

وحين اراد لودو معانقته، مدّ له يداً رخوة.

«انه لأمر غريب ان نلتقي بك هنا. ما كنت اظن ان المجانين هكذا. ثم... هناك رائحة غريبة».

وأصر ميشو:

«اننا سعداء حقاً وقد جئناك ببعض الاطعمة ايضاً».
ثم أراه حقيبة ثقيلة.

«جئناك بهريس لحم الارانب وشراب الرمان. . . زجاجة كاملة منه. . . وبحذاء ايضاً. . يبدو ان حذاءك القديم قد بلي. . . اننا سعداء حقاً!».
وراح ينقل نظراته بين ابنة خالته ولودو.

«اردنا المجيء خلال الاسبوع الماضي بل الاسبوع الذي سبقه أيضاً. . لكن امك كانت مريضة. . . لا تقلق فالأمر ليس بخطير! . . . كانت متوعكة فقط! . . . . . وهي الآن في حال افضل».

وكرر لودو: «ولماذا لم تأتِ؟

ـ انها الآن في وضع أفضل. . . ولكنها ما تزال لا تستطيع. . . !»

ثم ربت ميشو على كتفه بمرح.

«لاتقلق، ستأتي في المرة القادمة وقد طلبت منا ان. . . ننقل اليك تحياتها. . . وقبلاتها ايضاً!»

فدمدم لودو:

«ذلك ليس صحيحاً قط».

ونظر الى تاتاف الذي كان يرتدي زياً يظهر بوضوح انه كان يتابع نزوات موضة تناقض تماماً هيئته: بنطالاً وقميصاً اسودين مع جزمة ذات لون مناسب.

فسأل قلقاً: «هل مات أحد؟»

فقهقه ميشو:

«لك كل الحق في ان تقول ذلك! يبدو تاتاف كحفار قبور. . ولكن

يبدو ان ذلك يروق الفتيات. . . وما عدا ذلك فالجميع بخير».

ضحكت الانسة راكوف بدورها وكانت تبدو ذات مزاج رائق ثم اعتذرت لاضطرارها الى مغادرتهم لانها لا تملك دقيقة واحدة تضيعه خلال الاسبوع.

وقالت: «هيا يالودو! . . . ارهم الحديقة ما دام الظلام لم يهبط بعد وأرهم حجرتك ايضاً. ولكن الأهم هو ألا تتأخر عن موعد العشاء. . .».

وبعد ان خرجت ضحك تاتاف وسأل:

«واين المجانين؟

ـ في الحمام. . . ثم انهم ليسوا مجانين. بعضهم يستطيع القراءة والكتابة وأحدهم. . . ماركيز ايضاً».

وقال ميشو الذي انتبه الى فكرته الخاطئة عن صغر ابن زوجته: «لقد كبرت. . . كبرت ولكنك ما تزال شاحباً. . . أرنا حديقتك. . . هيا. . .».

ولم يلتقوا أحداً عند هبوطهم السلم.

راح لودو يفتش عبثاً وهو يحس بانقباض في نفسه عن الكلمات التي ظل يتهيأ طيلة أيام الشهر، ليلاً ونهاراً، لقولها. الكلمات التي يجب عليه ان يقولها كي يعيدونه الى الدغلية.

تفحص ميشو واجهة القصر الريفي الضخمة التي استطالت بفعل الظل الصاعد.

«يبدو أنهم يأكلون الكثير من الكعك هنا*.

* عبارة تعني أنهم أثرياء. (المترجمة)

ـ انهم يقدمون كعكا يوم الاحد فقط ولكنه ليس لذيذا .

ـ ولديهم اشجار جميلة ايضاً بجمال الاشجار في منطقتنا . . . وكيف سكنك؟

ـ قالت المرأة ان المكان ضيق . ولكن بما انكم قد اتيتم . . . يمكنني العودة الى المنزل اذن» .

فنظر اليه ميشو مستغرباً

«ماذا تعني يمكنك العودة؟ . . .

ـ نعم ، سأعود معكما . . . كنت اعرف انكم ستأتون لأخذي» .

ولم يجب الاخر حالاً الا انه قال بعد قليل :

«اسمع ياصغيري . . نحن مسرورون جداً برؤيتك! كن مطمئناً . . . سنحضر لأخذك ، انه وعد . الا ان عليك الانتظار قليلاً . . انت تتعلم هنا اشياء كثيرة كما انك تتلقى العناية الكافية ولديك اصدقاء . لست تعساً في الحقيقة» .

ضم لودو قبضتيه ثم دمدم :

«يمكنني ان اعمل صانعاً . المرأة قالت يمكنني ان اعمل صانعاً» .

فغير ميشو الموضوع وقال وهو يشير الى المكان الذي يقفون فيه :

«ما هذا! أتلعبون لعبة الكرات المعدنية .

ـ انها لا صابة البطاريق» .

فشاهد لودو تاتاف وهو يستدير ويشيح بوجهه مشمئزاً .

استأنف الميكانو الذي كان في المكان ينظر صوب الحديقة :

ـ «وماذا يمكننا أن نرى ايضاً؟

ـ هناك ساحة كرة مضرب للسيارات» .

فقال تاتاف الذي بدا كمّن يسحب الكلام من بين أسنانه سحباً:

- «ساحة كرة المضرب للسيارات اسمها مرآب».

ثم سارا في الممر الواسع الذي يتوغل بين أشجار الصنوبر المعتمة وكان الصمت المنبعث من الأحراش يضفي على طريقهم طابعاً من الحميمية ضايقهم بعض الشيء. أزعج رذاذ مطرٍ الهواء الذي برد فجأة ثم ظهرت الساحة المليئة بالحفر التي كان يغطيها الضباب مع العربة القديمة والمغطس المائل الذي بدا كأنه قارب لنقل المسافرين من سفينة تقف في البعد الى الميناء.

وسخر تاتاف: « أهذا هو الحمام؟»

ثم توقفوا على حافة الساحة ولم يتقدموا كما لو كانوا يقفون على حافة بحيرة.

وقال ميشو بنبرة أرادها أن تكون مرحة:

«حسنٌ. وما أخبارك الاخرى؟

- متى ستعودون لأخذي.

- سندرس الأمر.. مع ابنة خالتي، وايضاً مع...»

واستعاض عن الكلمة الاخيرة بتنهيدة عميقة وطويلة ودمدم تاتاف الذي اخذ يحس بالضجر:

«بدأ الجو يبرد».

فعادوا ادراجهم.

- «ولماذا لم يجب احد على رسائلي؟»

فأقسم ميشو انه لم يرها قط. «ربما نسيت ان تريني اياها... لم تتعمد ذلك ولكنها نسيت.. لقد تغيرت الآن!»

بدا كأن الظـلام قد هبـط حولـهم فجأة، مخمليـاً وكثيفـاً بسبب الضبـاب والبـرد. وبعد ان تجاوزوا منطقة الاحراش عاد الآجر الصلب الى الطقطقة تحت اقدامهم.

كانت انوار صالة الطعام ودرج المدخل تتألق رخوة امامهم.

«نريد أن نرى حجرتك قبل ان نرحل».

فأُعترض تاتاف: «لا أريد ان ارى المجانين».

وعند ارتقائهم السلم تقدم اوديلون بلباسه الاحمر لاستقبالهم وكأنه سيد القصر وقال وهو ينحني أمامهم:

«اهلاً بكم ايها السادة. كثيراً ما حدثنا لودوفيك عنكم».

وكانت مجموعة خجلة من الأطفال تراقب الزوار باهتمام عند مدخل صالة الطعام.

همس لودو: «إنه الماركيز ديغرمون».

وتجاهل تاتاف اليد الممدودة اليه.

وقال الميكانو في حجرة لودو:

«أما زلت تخربش على الجدران؟ حجرتك جميلة على أية حال اذا غضضنا النظر عن هذه الخرابيش».

ثم اكـد ان الفـراش مريـح تماماً وان المرء ليظن نفسه في فندق وان بوده لو قضى بضعة ايام هنا كي يسترجع عافيته.

ثم غمـز بابتـذال وقـال: «واين الأسقفية؟» وكانت تلك هي طريقته في الاشارة الى المرافق الصحية.

«انهـا في الخـارج... ولكنني ان عملت صانعـاً فسأربح مالاً ولن ازعج احداً. لماذا لم تأتِ؟»

كانت هناك جمهرة واصوات ضحك تصدر من الممر اعقبها صوت صفير طويل. وكان ميشو الجالس على السرير ينظر الى أرضية الحجرة.

قطب جبينه ثم ردد كلمات لودو:

«لماذا لم تأتِ؟ إنك تتحدث عن امك، اليس كذلك؟... لك كل الحق.. كل الحق تماماً!... كادت تفعل... كادت فعلاً. لكننا سننقل اليها جميع اخبارك».

فدمدم لودو:

«لست مجنوناً».

سعل تاتاف الذي كان قد عقد ذراعيه وراح يبتسم هازلاً، فكاد ميشو يأتي بردة فعل حين دلفت الآنسة راكوف.

«سنجلس الى المائدة الآن... أتريدون البقاء لتناول طعام العشاء مع الأطفال؟»

فسارع ميشو الى القول: «يا الهي، لايمكننا رفض عرض مثل هذا. ما رأيك ياتاتاف لو بقينا لتناول الطعام؟

- لست جائعاً. كما اننا وعدنا نيكون بعدم التأخر»

فأجاب ميشو بلهجة فظة: «وماذا في ذلك! انا افعل ما يحلو لي!... لم يحل، اليوم الذي ادع فيه امرأة تقودني!... ولكن اسمع... انت على حق... ربما ستشعر بالقلق فعلاً. انها تخاف حين تكون وحيدة... نعم... ثم ان الطريق طويلة أمامنا. لا بأس.. سنبقى لتناول الطعام في المرة القادمة».

أحسّ لودو بالألم وبالضياع فجأة ورافقهم دون ان تبدر منه كلمة

واحدة وقد نسي الكلمات التي كان عليه ان يقولها وتشتت ذهنه واحسّ كما لو ان تياراً يجذبه. لكنه لم يفعل شيئاً كي يتخلص منه. اجتازوا صالة االطعام حيث صفق الاطفال الجالسون الى موائدهم بانتظام احتفاءً بمرورهم ونهض اوديلون بحجة إنارة الشرفة الأمامية وكان المطر المصحوب ببعض الريح ينهمر في الخارج. التزموا الصمت حتى البوابة حيث كانت تقف السيارة.

قال لودو وهو يندفع نحوها: «انها سيارة أمي».

فقال ميشو: «انت على حق. لقد اصبحت مبعجة الا انها ما تزال سريعة».

كان مشهد الوداع قصيراً ساعد على اختصاره اكثر هطول مطر قوي وغزير.

وخلال الفترة التي استغرقها جلوس الرجلين في مقعديهما داخل السيارة، مرر لودو يديه على السقف القماشي اللامع وعلى العجلات، وعندما شغل ميشو المحرك ثقبت انوار السيارة المثلثة، العتمة ثم قال مؤكداً بعد ان انزل زجاج النافذة:

- «سنعود يوم الاحد حتماً! اننا سعداء جداً برؤيتك!»

ضغط لودو اسنانه وتشبث بيديه بباب السيارة وراح يحاول ادخال رأسه من النافذة ثم صاح:

«ما تزال ماسحات الزجاج تصدر الضجة نفسها. يجب اصلاحها. يمكنني ان اتعلم...

- يمكنك ذلك حتماً يا صغيري... وسنعود يوم الاحد حتماً وسنروي كل شيء لأمك... هيا... كن مطمئناً ايها الصغير...»

ثم رفع ميشو زجاجة النافذة بهدوء.

وصرخ لودو: «انتظر. اعطها هذا» ثم ناوله العقد.

«قل لها انني صنعته بنفسي كي تتزين به يوم الاحد في القداس».

ولم ير لودو وجه الميكانو الذي كساه الذهول. وقال الاخير:

«سأعطيها اياه. ستكون سعيدة جداً به».

ثم انغلقت النافذة ولوح تاتاف بيده دون اهتمام كبير. كان ميشو ما يزال يتحدث الا ان لودو لم يتمكن من سماعه. وما لبث ان اطلق السيارة التي راحت تغذ السير وهي تهتز فوق الطريق الترابية. وعندما شاهد الضوء الأحمر ادرك انه سيبقى وحيداً فحاول الجري كي يلحق بها، حاول ان يصرخ وان يقول لهم انهم يتناسونه وانه ليس مجنوناً. ولكن، سرعان ما زادت سيارة الفلوريدا من سرعتها وبدت كما لو انها تنتقل الى عالم آخر. ثم ما لبث الضوء ان اختفى.



عند دخوله، قالت له الآنسة راكوف بحدة:

«وصلنا الى الحلويات».

لكنه توجه الى مكانه جوار القزم دون ان يجيب

فقال الاخير موضحاً:

«التأخر ممنوع».

فقال لودو بصوت سمعته الممرضة:

«لايهمني ذلك.

ـ لست سوى شخص قليل الاخلاق. ستحرم من القشطة بالڤانيللا عقاباً لك. . وبما ان مجيء اهلك يجعلك في مثل هذه الحالة فسأكتب اليهم منذ هذه الليلة كي لا يأتوا حتى اشعار آخر».

ساد الجالسين صمت مشحون بالقلق ولم يكن يسمع غير الجلبة التي كان غراسيان يحدثها وهو يرتشف قدحه.

وقال اوديلون بصوت اراده ان يبدو حكيماً:

«الرد على الآنسة ممنوعُ أيضاً».

وحينها لمح لودو طرف صورة تعرفها في الحال، يبرز من الجيب الاحمر، وكانت تلك صورة نيكول، الصورة التي ظنها في مأمن تحت فراشه. فوثب على القزم الذي سقط ارضاً وهو يصرخ طالباً النجدة. واضطر الرجل الاسود الذي نبهه صوت الصفارة، الى صرع لودو تقريباً كي يجبره على ترك خناق الآخر.

وأرعدت الممرضة: «بسببك سأضطر الى اعطائهم جرعة مضاعفة من المهدئات. سيستمر أثر الصدمة لديهم لأشهر قادمة».

وكان اوديلون يتمخط في منديل واسع من قماش ذي مربعات.

«كفى الآن. . . ايها السيد الماركيز! سيعتذر لودو اليك الآن أمام الجميع ثم سيذهب كي ينام دون عشاء».

احتج لودو وذراع الرجل الاسود تطوق عنقه وتضايقه: «لقد سرق صورتي.

ـ اتركه يا دودو. . . ايّ صورة؟»

فبسط صورة بللها العرق تظهر فيها نيكول في تناولها الأول وهي تحمل باقة من الورد في يدها.

ثم قال بفخر: «انها امي. امي جميلة!...»

ونظر الى الآنسة راكوف نظرة متحدية:

«ومع ذلك، فهي لم تأت لرؤيتك... ثم بودي لو تأكدت من صحة كلامك».

وزعق اوديلون الذي لم يكن قد انتهى من اعادة ترتيب هيئته التي تضررت:

«يا لكم من كذابين، انها صورتي!... واليكم الدليل... ألستُ الاول في المغارة؟»

فصرخ لودو:

«لست سوى لص كاذب» فاضطر الرجل الاسود الى تطويقه من جديد.

وقالت الانسة راكوف بصوت خفيض: «عليك ان تعلم أنك يجب ألا ترفع صوتك في هذا المكان. سأعاقب اذن صوتك الذي اهان الصمت... وربما كذب ايضاً، لن يسمح لك بالتحدث طيلة ستة ايام. ولن يتحدث اليك احد، وبما انكما غير متفقين على الصورة. فسأحتفظ انا بها اذن...».

فصرخ لودو: «ولكنها امي...» ثم كتمت ذراع الاسود انفاسه.

نظرت الانسة راكوف الى المراهق نظرة ملائكية ثم قالت:

«لقد تجعدت الصورة!... حتى ان كانت صورة امك حقاً فما اهمية ذلك؟.. آمل انك تحتفظ بصورتها في قلبك وهذا هو الشيء الوحيد المهم».



ولم ينم لودو. دفع الأغطية عن جسمه وخلع رداء النوم واحتضن الوسادة التي راح يرضع احدى زواياها ورأى بعينين مفتوحتين ذلك السائر المجهول وهو يمد يده تحت سماء سوداء الى فتاة النورة في تناولها الأول وكان الاثنان يسيران بخفة في دروب زرق كالبحر. كانا بعيدين وهو خلفهما يصارع للحاق بهما ويغوص في الوحل ويتوسل اليهما ان انتظراني لكنه كان يصل متأخراً دائماً، عند تلاشي أضواء الفلوريدا الحمر في الطرف البعيد من الرصيف العائم. وسمع أيضاً ضجة احتكاك مسمار بالحائط لكنه لم يكن حائطاً بل كان جلدة خروف ميت على الساحل وكان كلما حك جنب الخروف تطايرت ذرات الرمل وازداد الليل عذوبة. فكان يلصق عينيه بالجرح المفتوح كي يرى من جديد ذلك الرجل وتلك الفتاة في تناولها الاول كما لو كان يراهما من خلال عدسة مجهر والزَبَدُ يحملهما عبر المحيط. وشعر ان هذه الرؤيا ستموت ان هو اغلق عينيه وان رجلاً مجهولاً كان يكفيه ان يلتفت كي ينقذ حياته، لن يعود الى السير في نظراته ابداً **لم تأتِ أمي قالت إنها تبعث اليّ بقبلاتها... قالت أنت لطيف يالودو حين وضعت إناء الزبدة على الصينية... لم تقل قط من هو أبي ثم إنَّ كل ذلك غير صحيح... بل لابد أنها قالت لميشو ألا يذهب الى هناك وقالت يجب ان تسرعوا ولابد أنها تشاجرت معهما. تاتاف كان ينظر اليّ كما لو كنت مجنوناً حقاً لكن المجانين لا يستطيعون اصلاح ماسحات سيارة نيكول بينما اعرف انا انه يجب تغيير المكانس المطاطية ولكنني لن اقول شيئاً لتانتان... ربما وصلا الآن الى الدغلية وربما سألت عن حالي... ولاسيما أن ميشو قد اعطاها عقدي بلاشك وانها بلا**

شك قد وضعته كي تجربه وانها ستأتي لرؤيتي في المرة القادمة . . .
ولكن متى سيأتون لأخذي من هنا نهائيا .

واستيقظ . كانت خطوات حقيقية حذرة لايكاد المرء يسمع وقعها تقترب في الخارج يتخلل سيرها توقفات طويلة . خيل اليه أنه القزم يتوجه سراً الى المغارة فتدفقت الدماء حارة إلى صدغيه . القزم . اللص . أمّه . ثم قفز عارياً تماماً الى الممر ولم يكن هناك أحد . كان ضوء المصباح الليلي البرتقالي يرتعش وأنفاس النائمين تمتزج بكل هدوء بالعتمة . ارتدى بنطاله وتقدم حتى نهاية الممر وأمرّ يده على الباب المغلق الذي كان يسجنه وهو يتردد في الارتماء عليه ثم ما لبثت أن عثرت يده على المقبض الذي استسلم اليه دون عناء فغمر لودو ظلام صالة الطعام الذي كان اكثر عتمة .

لابد ان المطر قد توقف . بلغ المدخل محاذراً الاصطدام بالموائد وتعرف على ظل السلم الذي يقود الى حجرة الآنسة راكوف وعلى باب الخروج ذي المصراعين الذي ينفتح على الحديقة والذي كان الى جانبه تماماً . أدار المفتاح ثم خرج فهاجم برد نيسان القارس جسمه العاري . وما ان خطا بضع خطوات في اتجاه الغابة حتى اضطر الى التوقف . ففي غفوة الليل يصدر الآجر صدىً ثاقباً مما اضطره الى التراجع . لكنه ما لبث أن لاحظ وجود حاشية قديمة تحيط بواجهة القصر فتمكن من السير عليها بكل هدوء ، وسعادة خرساء تغمره لالتحامه بالظلام وكأنه حيوان من حيوانات الغابة .

كان الهلال ينهي ببطء رحلته ويكاد يلامس الافق ، باعثاً وهجاً متموجاً نحو الجهة الشمالية وكانت غيوم بيض تتسكع فوق الغابة .

وصل تحت نافذة مفتوحة فوقف على اطراف أصابع قدميه كي ينظر الى الداخل. لم ير شيئاً وكاد يتحرك حين أضاء شعاع قمري أخير الحجرة فبدت فين داخل مجموعة كبيرة من الاغطية وبدا طيف احد ثدييها العاريين متدلياً جانباً. وكان دودو ببشرته السوداء البلاتينية نائماً في الجانب الاخر من السرير. هبط لودو الذي شنّجه الذهول على قدميه فوق الآجر وهو يحس بالتعاسة وبالضياع واجتاز الشرفة الامامية من اقصر جوانبها متناسياً حذره ثم ولج الغابة عبر الممر العريض وكانت ملابسه مبللة وقدماه العاريتان تؤلمانه. لابد أنه جرح نفسه خلال ذلك لكن إحساسه بالألم كان لذيذاً. وعندما وصل الى ساحة كرة المضرب طاف حول سيارة الفرساي وفتح ابوابها ثم جلس الى المقود كانت رائحة عفنة تنبعث منها كما آذت نوابض المقعد جسمه. غيّر السرع وضغط على الدوّاسات وقلّد صوت المنبه وضغط على ازرار الاشارات المنبهة في لوحة القيادة وهو يأمل ان ينطلق ستذهل لرؤيتي وأنا اعود في سيارة اضخم من سيارتها.. كان عليها ألا تقص شعرها ثم ان بثرة تظهر على فمها احياناً.

غادر السيارة واقترب من المغطس المائل الذي كان مملوءاً بالماء وبقع من الزيت تلتمع على سطحه. لم يكن له الحق في استخدام المسبح في الدغلية على الاطلاق وكانت نيكول تمنع اي شخص من استخدامه على اية حال. رفع قدميه ثم عبر حافة المغطس وغاص فيه بهدوء حتى الرقبة فأحس بالاختناق وشعر ان عضلاته قد تحجرت وان سهاماً من الماء البارد تخز جسمه. وكانت دموعه تحجب النظر عن عينيه. وعندما أحس نفسه في حال أفضل زحلق زنديه من الحافة

وألصق كفيه بالقعر داخل وحل بدا له دافئاً. وعندها استعاد ثقته بنفسه فأغلق عينيه وانقطع عن التنفس وترك رأسه يغوص بأكمله تحت الماء. ثم انتظر. ارتفعت الدماء االى عينيه فشاهد أمواجاً تضرب الرمال الحمر، وكانت أمواجاً حمراً، وسمع صوت صراخ وقرقعة ضربات **ربما كانت على حق... ربما انني مجنون... لم اقل لها قط انها على حق... هذا ما كان يجب أن افعل... ان قلت ذلك فسيسوى كل شيء... وسأعود الى البيت... كما انه ليس بالأمر الخطير أن اكون مجنوناً... ذلك لايزعج ميشو... سأكتب اليها وأقول انها على حق**.. كان على وشك ان يفقد وعيه حين انقذ هذا القرار حياته. وما ان رفع رأسه حتى اندفعت السماء داخل رئتيه.

فتش في ساحة كرة المضرب، وهو عاري الجسم منهوك القوى، عن وعيه كما لو كان يبحث عن مفاتيح ضائعة وكاد يضل الطريق عند عودته الى القصر الريفي. واستعاد وعيه كاملاً عندما شاهد نوراً مضاء في الطابق الاول. لم تكن الانسة راكوف نائمة. سار فوق الآجر وعيناه مثبتتان على النافذة المضاءة وهو يتوقع ان يصرخ احد باسمه وان تحدث كارثة ما لكن اي شيء من ذلك لم يحدث. وبعد ان مسح قدميه بحذر عند مدخل القصر عاد الى حجرته دون ان يراه او يسمع وقع خطواته احد.



ظل نائماً ستة ايام تحت ضغط حمى شديدة دفعته الى الهذيان.

كسر المحرار الذي حاولت فين ادخاله في إسته وردّ باجابات مجنونة على الاسئلة التي طرحت عليه. وقالت الآنسة راكوف: «يا له من خبيث، لابد أنه ابتلع معجون تنظيف الأسنان او ربما صابونة. . » وراح يتلوى، غير قادر على منع نفسه من الضحك عندما بحثت عن عقد في ثنية فخذه او تحت ابطه كما كور جسمه عندما ساعده دودو في تغيير ملابسه المبللة بالعرق.

كان الأطفال يلوحون له عبر النافذة وكانت ليز تضع كفيها على الزجاج وتبتسم. وجاء ماكسونس ذات مساء وسلمه خفية زهرة بعثتها له ليز، وكانت زهرة قرنفل سرقت من وعاء زهور في المكتب فأخفاها لودو الذي غمره الاضطراب تحت فراشه وكانت الوردة المفروكة تذكره بفم ليز.

قضت الانسة راكوف جزءاً كبيراً من فترة العصر ممسكة بيده «أتعرف قصة سان ـ مارتان الجميلة، ذاك الذي وافق على ان يشاركه غريب معطفه؟ . . . » وكان القديس مارتان يوافق على ان يشاركه الآخرون معطفه عدة مرات في اليوم والقديسة بلوندين تلاطف الوحوش والقديس فرانسوا يتقرب الى الاسماك. وكان لودو يستمع بصبر الى قصص القديسين هذه التي تتكرر كمواء القط لانها كانت افضل طريقة للامتناع عن الكلام.

ونام في عصر احد الايام بينما كانت القديسة شانتال تؤسس دير الفيزيتانديين فانزعجت الممرضة: «يا له من امر مروع يا بني ان تشعر بالضجر من قصص حياة الابرار! . . . »

ونهض في اليوم السادس منهوك القوى لكنه كان قد برأ من مرضه

وتناول طعام الافطار مع فين وهو في حالة غير طبيعية.

«كيف نمت؟»

كانت تقطع الخبز فوق ركبتيها وكانت قد احتفظت للودو، دون علم الانسة راكوف بقطع من الخبز المطلي بالقشطة الطازجة اللذيذة.

«أجبني حين أتحدث اليك.

- ليس لي الحق في الكلام. إنني معاقب.

- ولكن الكلام مع فين مسموح به دائماً... أيؤلمك شيء؟»

نظر لودو اليها مواربة ثم عاد الى ارتشاف قدحه. كان يشعر بالألم، نعم، كما لو كان في مخزن الغلال ينظر من خلال الشقوق في الارض.

«لماذا لم تتزوج الانسة راكوف؟»

هزت فين كتفيها واستمرت بتحريك مزيج الحليب والنستلة على النار.

«هذه هي الحياة.. لكل نصيبه... انها تحتاج الى زوج كي تتزوج!

- ولماذا لم تتزوجي انت؟

- ما هذا... إنك شديد الفضول، بالنسبة الى واحد مريض مثلك! لا يختار المرء دائماً في الحياة.. انني عجوز الآن وأفهم الحياة جيداً. نعم أفهمها!... قصة الحب والجرذان!... الشباب للحب والعجائز للجرذان!...»

ثم ساعدها في نقل الأطباق الى العربة.

- «ألن تتزوجي دودو؟»

فأجابت وقد تقلصت عضلات وجهها:

- «ولماذا تقول ذلك؟»

هزّ رأسه في شك ولم يتعرف في هيئة هذه المرأة ذات الجسم الثقيل والضفيرة المعقوصة بقوة فوق عنقها من الخلف، الى تلك المرأة العارية التي فاجأها مع دودو.

«حسنٌ... ألن تنجبي أطفالاً من دودو؟

- بدأت تزعجني بأسئلتك هذه. لقد أحسنت المديرة فعلاً بمنعك عن الكلام!»

مرت بضع لحظات ثم استأنف لودو حديثه بنبرة غير معبرة كنبرة رجل الشرطة الذي لايبدي اهتماماً بما يقال:

- «والآنسة راكوف، أليس لديها اطفال؟

- لا! سوى ان جميع اطفال المركز اطفالها وهم يكونون معاً اسرة واحدة مباركة.

- واين تذهب يوم السبت بعد الظهر؟

- وكيف عرفت أنها تذهب؟

- أسمع صوت السيارة.

- تذهب حيث تشاء. لديها اعمال مع المجهزين. كفى حديثاً الآن».

أمضى النهار دون أن يفعل شيئا وكان ما يزال يقضي فترة العقوبة. احترم الاطفال سكوته القسري لكنهم كانوا يأتون كي يشدوا على يده بلطف. حتى اوديلون غالى في لطفه الدبق وتوصل لودو الى عقد صفقة معه بخصوص الصورة المسروقة.

اطـال الـربيـع الذي لم يستقر بعد فترات ما بعد الظهر دون ان يرفع من درجة حرارتها. وكانت اشعاعات كثيرة تحاصر جدران صالة الطعام وتختلط بأضـوائهـا ملقيـة القهـا الـذهبي على العتمة المتصاعدة حتى يتحـول أبسـط قدح الى رؤيـا. وكـان في الامكـان أيضاً متابعة اجتياح الليل للمساء بالعين المجردة تقريباً.

استـدعتـه الآنسة راكوف الى مكتبها بواسطة القزم الذي بدا مبتهجاً وتركته اول الامر واقفاً دون ان تلقي ايّ نظرة عليه او تتلفظ بأيّ كلمة. وسقـط ضوء أزرق منعكس على شعـرهـا ذي التمـوجات البيض الذي كانت تمسـده دائمـاً بأطـراف اصـابعها ذات الاظافر المطلية اللامعة. وبدت فجأة وكأنها قد اكتشفت للتو وجود لودو فأشرق وجهها:

«أعرف انك ممنوع من الكلام حتى مساء الغد ولذلك فلن أزعجك بحـديث طويـل. لم أشأ في الـواقـع ان ادعـك جاهـلاً بشأن بعض الحقـائق. لقـد كتبت الى اهلك. اطمئن، لم أخبـرهم بشيء عن اعتدائك قبل ايام على الماركيز المسكين، الا انني طلبت منهم تأجيل زيارتهم القادمة حتى نهاية شهر حزيران. انك مهتم بالخارج اكثر مما يجب يالـودوفيـك. وان شيئاً من الانغلاق على نفسك سيساعدك على التكيف بشكـل أفضـل. انـا لا اريـد منـك ان تفعل ذلك خلال هذين الشهـرين فقـط. اكتب قدر ما يحلو لك وارسم وتعلم الغـزل وسـاعـد الأطفال ممن هم دونك ذكاء، ولكن لا تتوكأ على وهم أنك تعيش قدراً ظالماً وأنك يجب ان تحيا حياتك.. لا أدري أين.. لقد راقبتك جيداً خلال جلسة الموسيقى. كانت هيئتك توحي بالشرود. كانت المعزوفة «مـوسيقى الليـل الصغيـرة» لموزارت وأنا اخترتها لأجلك. إنك شديد

الحساسية بالودوفيك ولكنك لا تستطيع فعل شيء إزاء ذلك لأنك لست «غريباً» . أنت «بريء» وقد عثرت على عائلتك أخيراً فما الذي تنتظره كي تستمتع بذلك . فكر في أولئك الذين يعيشون في المستشفى العقلي ويودون لو كانوا مكانك، بأي ثمن كان» .

ثم مسدت شعرها وابتسمت بلطف وأخرجت ما تبقى من صورة نيكول .

«تقول إنها أمك! . . . لا أدري ، وليس عندي أي دليل على أية حال اذ لم اكن مدعوة الى حفل الزواج . . . ربما سأتمكن في المرة القادمة من سؤال ميشو الا انها صغيرة جداً في الصورة حتى أنه هو نفسه لن يتمكن من التعرف اليها» .

أخفت الصورة ثم نهضت ودارت حول المكتب وتركت نظراتها تتجول في عيني الصبي ثم توقفت واتكأت على حافة المكتب غير آبهة بالصمت تنتظر رؤية اضطراب ما في العينين الخضراوين يمكن ان يطمئنها .

وقالت أخيراً بنبرة غير معبرة : «هذا كل شيء . يمكنك الانصراف الآن» . ثم أضافت بنبرة اعتيادية : «موقع خروفك في المغارة سيء ولكنني لا اشك على اية حال في انك ستهتم خلال الشهرين القادمين بتحسين وضعه . . . وشيء أخير أيضاً . . . رآك احدهم تسير في الممر في منتصف الليل وهذا ممنوع منعاً باتاً . آمل أنك ستتخلى من الآن فصاعداً عن نزهاتك الليلية» .

فكر لودو وهو يهبط السلم ، إنه اوديلون مرة أخرى اذهب وقل للانسة راكوف ان الصورة ليست لك . اذهب وقل لها انها لي . . . انها

ليست امك ولذا فلست في حاجة الى الاحتفاظ بصورتها. . ان قلت لها ذلك ذهبنا في جولة بالغواصة داخل الغابات مع تاتاف. . . وسيبقى خروفك الأول في المغارة حتماً.

كانت المائدة قد أعدت والعشاء على وشك أن يقدم. وعندما دخل صالة اللعب بدرت منه حركة تراجع الى الخلف. لن يستطيع الاعتياد ابداً. لقد فقد جميع هؤلاء الأطفال شعورهم بالراحة وتُركوا لرغباتهم الفطرية تقودهم. وهاهم يطلقون صيحات صغيرة وينظرون الى الهواء ببلاهة وهم يقفون مستندين الى الجدار او متحلقين حول المنضدة يحاولون مراوغة، الله يعرف وحده، اي انتظار، باصابعهم الرخوة ونظراتهم المسموعة. وكان أحد الاطفال يتصفح كتاباً مصوراً عن المجرات التي كان يشير إليها باصبع مرتجفة.

لقد قتلوا نهارهم ورموا القبعات الطائرة ومشطوا الممرات ذهاباً واياباً وقصوا قطعاً من الورق المقوى ورسموا الغرباء وصلّوا الى الله واستمعوا الى موسيقى الليل الصغيرة «ولكن لايا بونوا، موزارت ليس غريباً. انه مؤلف موسيقي عظيم، نعم، انه طفل ان شئت. . » لقد تقبلوا وابتلعوا كل شيء، موزارت والبطاريق وأطباق العصيدة في العشاء وأقراص النوم البيض ونفخات الصفارة وآلاف اللحظات التي يجب عليهم أن يقتلوها كي لايحيوها، وآلاف الخطوات التي يجب عليهم التضحية بها من أجل الذهاب الى لامكان. وبعد قليل سيتوجهون الى غرفهم كي يناموا وهم يجهلون معنى النعاس. رآهم لودو يستديرون اليه ويضعون اصابعهم على شفاههم ويقولون: «هس. . هس» بكل اهتمام. ولم يكن جوابه سوى صرخة لامتناهية أطلقها في وجوههم.

* * *

الفصل الحادي عشر

مركز سان ـ پول
شهر نيسان

لماذا نتأخر كثيراً في عرض الموقف على حقيقته؟ حريّ بنا أن نوضح منذ الآن الخلاف القائم بيننا. كنت مريضاً لكن وضعي الآن أفضل، ووضع دماغي أفضل أيضاً. كنت على حق لكنني لست مجنوناً حقاً، ولكن، ربما كنت كذلك فعلاً. قال ميشو انك كنت مريضة وانك لم تأتي لهذا السبب. أعطيته هدية لك صنعتها بنفسي من القواقع وغسلتها جيداً بالماء والصابون. إننا نتعلم نسج المناشف ونتعلم الغناء أيضاً وقد قال دودو إن صوتي جميل لأن صدري واسع والآنسة راكوف تضع لنا اسطوانات موزارت عن الليل الصغير. ليس هناك ارغن في الليل الصغير وهي تقول انها آلات كمان وهي على هيأة قواقع فيها فجوات للتنفس. ان اردتِ ان أصبح بحاراً فسأُصبح بحاراً. صحيح أننا لسنا تعساء هنا لكننا لانرى البحر. ليس كل من في الدار اطفال اذ ان بينهم من هم كبار في السن أيضاً الا انهم يسمونهم كذلك وهم ألطف ممن كانوا في المدرسة. أنا الاقوى هنا اذ انني أحمل اوعية الحليب بالنستلة. حين لن اعود مجنوناً سأتمكن من

العودة الى المنزل وتلميع السيارة بقطع من جلد الشاموا. الماسحات معطلة. أخذ الجو في التحسن وقد حصلنا على أسماك حمر من النستلة وقد سرق القزم مني كل شيء. اننا نتعلم أسماء الزهور. ما يزال أمامي شهران ثم سيأتي يوم الأحد الذي ستأتين فيه لأخذي. انني اذ أؤكد لكم ثقتي بسرعة ردكم ارجو ان تتقبلوا مني انتِ وتاتاف وميشو فائق احترامي وتقديري.

لودو

أغلق لودو كتاب «دليل كتابة الرسائل» الذي استعاره من ماكسونس ثم اعاد كتابة رسالته من جديد ووجهه محتقن بالدماء فخراً وتعباً ايضاً. كانت رسالته كتلك التي يراها في الكتب بل افضل منها. قرأها بصوت مرتفع ثم أعاد قراءتها ببطء اكبر ثم وضع رسالته بعد ان طواها داخل ظرف ثم أخرجها من جديد كي يستمتع بقراءتها مرة أخرى.

انفتح الباب فجأة ودخلت الآنسة راكوف:

- «الم تنم بعد؟.. اتريدني ان اغضب حقاً؟..

- لااشعر بالنعاس.

- هيا، كفى هذراً، ابتلع هذا والى الفراش!»

وما كادت تخرج حتى سحب القرص الأبيض من تحت لسانه ووضعه في علبة هياكله العظمية.

ماكسونس هو من علمه ماذا يفعل بهذه الاقراص التي يدفعونهم الى ابتلاعها بصورة جماعية، وهي حبوب مهدئة او مخدرة او ممرحة وذلك

وفقا للمواسم والفترات ولغرض توحيد المزاج الجماعي ومنع انتعاش النزوات الفردية التي تؤدي الى إثارة الشغب. كانت حصالة نقود ماكسونس، وهي على شكل تفاحة حمراء مصنوعة من المرمر، مليئة بهذه العملات الطبية الصغيرة التي عمل على توفيرها طيلة عشر سنوات.

اسند لودو رسالته التي كتبها الى نيكول، الى قدح الافطار فناكدته فين: «أتكتب الى خطيبتك؟»

فقال بنبرة غامضة:

- «كلا.

- الى من تكتب اذن؟»

فاحمر وجهه:

«أنا لااكتب. بل ارد على رسالة».

كانت فين تجلس أمامه تفتت قطعة من الخبز داخل الرغوة المنتشرة على سطح قهوتها.

«ان كنت ترد على رسالة، فهل يمكنك ان تقول رسالة من؟

- أمي.. انها تكتب اليّ باستمرار وعلي ان ارد عليها ولو مرة واحدة.

- ان كان ذلك صحيحاً فانت على حق حتى ان لم يكن ذلك صحيحاً. لماذا لم تأت يوم الأحد؟

- لم أشأ ذلك أنا. يبدو انها حامل وأنا لاأحب ذلك».

ثم تفرس في وجهها:

- «حين تخرج امرأة مع رجل فيجب ان تحذر الحمل.. كم عمر

دودو؟

ـ انـك تزعجني بحـديثـك عن دودو. ما عليـك سوى ان تسأله عن عمره بنفسك!»

نهضت كي تعدل من وضع قميصها فلم يرفع عينه عنها.

«لماذا تنظر اليَ بهذه الطريقة؟»

فقال بصوت خفيض:

ـ «هذا ليس صحيحاً قط».

فانفجرت ضاحكة:

ـ «نعم، ذلـك ليس صحيحـاً ايهـا الاحمق!.. ولكنني اقسم لك أنهم كانوا ينظرون اليّ في زمن بعيد مضى.. وماذا قلت لأمك؟

ـ لاشيء».

اقتـربت فين من لودو من الخلف ثم مدت يدهـا مازحـة والتقطت الرسالة بعد ان اتكأت عليه للحظة واحدة فقط.

صرخ لودو دون ان يتحرك:

ـ «اعيديها اليّ؟»

بدا كمن أصيب بصدمة وراح ينظر ببلاهة الى الطباخة التي لم تكن قد انتهت من ترتيب قميصهـا وهي تلوح بالـرسالة مازحة. وكان يمكن رؤية بشرتها العارية من ياقة القميص المفتوحة.

وأخيـراً قالت: «مـاذا دهـاك؟ مالـك تفتـح عينيـك على اتساعهما وكأنك تضع عليهما نظارة. هاهي رسالتك. ماكنت سآكلها».

فمد لها يداً مرتجفة.

❁

قرر لودو الالتزام بقراراته فأصبح «طفلاً» مثالياً و«بريئاً» خالصا ترتسم على وجهه تعابير تعاسة باسمة. اندمج مع الآخرين جيداً حتى ان خروفه في المغارة احتل موقعه خلف اوائل الخرفان في المركز مما أثار نقمة القزم. وبدا لودو راضياً عن وضعه اذ كان يشاهد كل يوم وهو يتدافع مع أقرانه حول الموقد متلهفاً لمعرفة موقعه الجديد. وقد أدى به شهران من الاقامة في المركز الى فقد عدة كيلوغرامات والى تكون غشاوة غطت عينيه الخضراوين. أخذ يأكل بشراهة ويقلب الصحون ويترنح في الممرات ويسير بخطوات مرتجفة كانت تعبّر عن تجاعيد زمن لايملكها. ولم تعد القبعات التي يرميها على البطاريق تصيب هدفها كما أخذ يتناول الحلويات وهو يصطدم بالآخرين ويلتهم الطعام بكلتا يديه. وكان يذهب ليري الآنسة راكوف أربطة حذائه غير المعقودة كي يستمتع بالحصول على تنبيه رقيق: «اربطها بسرعة أيها العفريت الصغير!..» ولم يعد يفارق قبعته، هو الذي كان يهمل اعتمارها خلال الأيام الاولى.

وتشاجر ذات مساء مع باستيان في من منهما سينظف بلاط صالة الطعام ففرق دودو بينهما وقالت الآنسة راكوف إن باستيان مسؤول عن تنظيف المكان منذ سنوات لكن في الامكان تكليف لودو بتنظيف الحديقة. فمسح الشرفة الأمامية ونظف الممرات جيداً وبعناية شديدة حتى أنه أزاح التراب عن جذور ضخمة فأراد تنظيفها هي الأخرى فكان أن أخرج جذور أشجار الصنوبر التي يمكن ان سقطت ان تقتل أحداً فكان ان اقيل لودو من مهامه سريعاً.

وكانت هناك زيارة طبية وفحوصات اسنان فأخضعه الطبيب ڤاي

طبيب مركز سان ـ پول النفسي المعتاد الى فحوصات شتى ثم كتب في بطاقته: «جنون بسيط غير مستقر. غير ناضج، عدائي في أوقات متفرقة، غير اجتماعي، يحتاج الى عناية في مؤسسة متخصصة».

منذ مشاجرته مع اوديلون في صالة الطعام والاطفال يكنّون للودو احتراماً يشوبه الخوف. كانت جدران غرفته الملطخة بالألوان والتي تبدو كأنها معبد من معابد الأنكا، تفتنهم وكان توأما الكولونيل يسرقان أطباقاً كاملة ليضعاها أمام باب غرفته والبخار يتصاعد منها وكان الاطفال يستقبلونه بالتصفيق ويلتفتون اليه كلما طرحت الآنسة راكوف سؤالاً. وأخذت هذه المملكة التي راحت تتسع شيئاً فشيئاً والتي لم يكن لودو يسعى إليها، تثير حفيظة اوديلون الذي أخذ يلاحظ تراجع سلطاته كقائد للجماعة. ولذا بدأ يتسقط الأخبار ويتجسس ويضاعف من لطفه ولكن دون جدوى، إذ لم يكن هناك ما يريب في سلوك لودو ويدعو الى الوشاية به. كان يتسلل كل مساء الى حجرته كي يتمزمز بشراب الرمان الممزوج بالماء متلمظاً بلسانه كما لو كان يتذوق أفضل انواع الكونياك: «إنه عصير ممتاز. لونه جميل ورائحته عطرة!» وكان لودو ينصت اليه بكل ذل وهو يثرثر ويلقي الخطب عن الموسيقى ويدعك كما تدعك الحصى كلمات حضارة ضخمة أفلتت من مدارها الأول وسقطت في فلك الفوضى. ولم يعد يجيب لا بالحديث عن الغواصة ولاعن الارغن ولاعن تاتاف. وكان اوديلون يغير الحديث أحياناً ليقول: «الرسم على الجدران ممنوع. أنا لن أقول شيئاً ولكن الآخرين. الفتيات. من حسن الحظ انهن لايضعن أقدامهن هنا!..»

النتيــات، كان من الـواضـح أنهن تبنين لودو لكنـه كان يمتنـع عن التحـدث اليهن. كان يفـاجىء ليـز أحياناً وهي تنظر اليه متأملة. كانت تراقبه هي الاخرى وتتدبر امرها كي تتبعه في ممرات الحديقة وتعلن له عن وجودها دون ان تقترب منه. وكان لودو يتلقى ضربات بقطع صغيرة من الحصى ويسمع ضحكات لكنه لم يكن يرى أحداً. وكانت تتجرأ وتبتسم له في الكنيسة أو في صالة الطعام والجميع يحيطون بها. وكان لودو يجـد كل يوم تقـريبـاً تحت وسادته أقراصاً مضادة للسعال وشرائط متعـددة الألـوان أو كرات صغيـرة صنعت من فتات الخبز كما عثر أيضاً على منـديـل ابيض كان بمثـابـة بطاقة حب صامت. وما لبثت خطوطه على الجـدران أن بدأت تعبـر عن عنـاق وعن شفاه تزهر بالقلم الأحمر حول الوجوه المحجوبة.

أمـا ماكسـونس فلم يكن يبدو غافلاً عن التغييرات التي طرأت على لودو فكـان ينتظـر خروج أوديلون كل مسـاء كي يقف وسـط حجرة لودو ويقـول شاكيـاً: «لم تعـد كمـا كنت. أنـا أعـرف جيداً.. لم تعد كما كنت» وكان لودو يجيب: «وكيف كنت؟» فكان الآخر يرفع ذراعيه جانباً تعبيراً عن العجز ويقول: «لا ادري.. عندما رأيتك خيّل إليّ أنني أرى بيتي، أمي وشقيقـة أمي والممـر المحاط بزهور الارطنسية وجار الكلب من جهـة اليسـار ثم الشرفة المرتفعة عن سطح البحيرة حيث كنا نتناول قطـع البسكـويت بالـدارسين في فتـرات ما بعد الظهر. وكانت هناك أمي أيضاً..» فقاطعه لودو:

- «أمي تصنـــع مربى الكـــرز. كانت تحمـــل اليّ طعـــامي في انا كنت أقود سيارتها».

وكان ماكسونس طفلاً وحيداً ويتيماً يستمد سعادته من تبادل ذكر '
طفولة مع لودو لم يسبق لأيّ منهما ان عاشها على الاطلاق.

*

وما أن يحلّ الظلام حتى يستعيد لودو طبيعته في العراء. كان يـ
من خلال الأصوات، ومن خلال أنفاس النائمين من منهم كان نائـ
ومن منهم ما يزال مستيقظا، وهل كان نوم الأطفال عميقاً بما يكفي
يخرج. لكنه غالباً ما كان يجد الباب مغلقاً في نهاية الممر مما يضـ
الى التخلي عن مشروعه.

لكن لودو لم يكن الوحيد الذي يسبر أغوار العتمة بكل شوق
الواقع، فقد كان لليالي المركز متسكعوها وجوّابوها. واذا كان مـ
التجول يضع الأطفال الذين تصرعهم المنوّمات تحت سلـ
مورفيوس*، فانه كان يعطي شياطين ساكني المركز ممن يحملون لقـ
أسوياء الضوء الأخضر أيضاً.

كان لودو يلتقي الآنسة راكوف أحياناً فيتتبع خطاها، وهي تسـ
بخطوات واسعة كما لو كان من الضروري جداً أن تصل مكاناً ما
كانت تتوغل داخل ممرات سرعان ما تعود أدراجها فيها قبل أن تصل
نهاياتها. ولم يعد لودو السعيد بجرأته تلك يخشاها، بل أخذ يحلـ
بالاقتراب من هذا الشبح الاعزل الذي يدندن باغاني الصبايا.

وكانت فين تعيش ليلها هي الاخرى. كان الاسود يزورها عدة مرات
خلال الاسبوع فيتشاجران داخل الفراش اذ أن أحدهما يريد والآخر
لا يريد. مثل نيكول وميشو. وبهت لودو ذات مساء عندما خرج دودو من

---

*إله النوم (المترجمة)

النـافـذة التي كان هو يختبىء خلفهـا، هارباً من الممرضة التي جاءت تسأل فين عبر الباب عمّا اذا كانت قد سمعت صوتاً ما.

ولكن، كان يحدث أحياناً ألا تنام الطباخة في حجرتها فيتساءل لودو عن المكان الذي تقضي فيه ليلتها.

وانتظر لودو في تلك الليلة. كان الهدوء يخيم على المركز وكان قلبه يخفق بشدة.وكان القمر قد اضاف الى رسوماته على الجدران عدداً من سعفـات النخيـل ومن الـزعـانف. صبّـر نفسـه بالاصغاء الى همسات الرياح الغربية التي كانت تتغنى بالمحيط.

سأصبح بحـاراً وفقاً لرغبتك، وضعي الآن افضل. . هناك خلل ما ولكنه سيزول وعندما ستحضرين لرؤيتي في شهر حزيران فلن تعرفيني

استنشق الهــواء بعمق ثم خرج الى الممـر وكـانت تلك هي اللحـظة الحــاســمــة.

كان عليه عبور المنطقة التي يضيئها مصباح الليل والوصول الى حجرة اوديلون التي تقع على مبعدة بابين دون ان يراه أحد. كانت قدمـاه العـاريتـان ملتصقتين بالارضيـة البلاستيكية واضطر الى التقدم على ايقاع الشخير. وانفتح باب حجرة القزم بهدوء ثم دخل لودو.

كان اوديلون يمص ابهـامـه خلال النـوم ويشد الأغطية حول جسمه بقـوة حتى انـه يبـدو للرائي كأنـه موميـاء. اقترب لودو من المقعد الذي طويت بعض المـلابس فوقـه بعنـاية ودست تحت كتاب مقدس ضخم ففتش جيوب السترة الحمراء ولكن بلا جدوى. وكانت جيوب البنطال فارغة ايضاً. تقدم نحو السرير الذي كانت أصوات تنفس هادئة وحادة كأنهـا أصـوات حيـوان قارض تصدر عن النائم فيه الذي بدا كأنه يسبح

في ضوء القمر. كان اوديلون مستلقياً على جنبه وقد وضع احدى يديه تحت الوسادة.

كانت تلك هي المرة الاولى التي يجازف فيها بالدخول في حجرته ليلاً. والآن يمكن له التأكد من حسنات الاقراص المنومة التي أذاب ثلاثة منها في عصير الرمان الذي احتساه القزم بتلذذ. اقترب منه إقتراباً شديداً ثم اقعى على ركبتيه وامسك برفق بالقبضة المضمومة تحت الوسادة عندما شاهد أمامه عينين وقد انفتحتا على اتساعهما وجمدتهما البلادة وغابت عنهما النظرات. تسمّر في مكانه مذهولاً وحبس انفاسه ثم مالبث أوديلون أن أصدر أنيناً منغماً ثم أغمض عينيه. وانتزع لودو المفتاح متناسياً كل حذره ثم خرج.

أحسّ بموجة من القوة تغمره وهو يفتح باب صالة الطعام وكاد يطلق صرخة متوحشة. هاهو الآن حرّ. مركز سان ـ پول قد تبخر كله في الاحلام وهاهو الآن يلتحم مع الليل العذب. قام بدورة حول المغارة ثم بسط كفه نحو أطياف الخراف المبعثرة والتقط خروف القزم ووضع مكانه أحد هياكل تاتاف العظمية.

وعندما وصل الى الجانب البعيد من الصالة نظر مفكراً الى الباب الذي يقود الى جناح الفتيات وتساءل عما اذا كان يستطيع فتحه بمفتاحه.

وتلقفته ريح باردة في الخارج. كان البرد جافاً يغمر الليل بعطره والسماء والارض تسبحان في بحر من الضياء كانت الغابة المرجانية تئن تحته. خطا عشرين خطوة بمحاذاة القصر الريفي في اتجاه الشمال ثم اجتاز الشرفة الأمامية كما لو كان يخوض في بركة من الماء

وتقدم في الدرب الذي كان قد شقه لنفسه سراً باستخدام ابر الصنوبر. وعندما أحسّ برطوبة التراب تحت قدميه العاريتين استدار فشاهد القصر الريفي وقد تجسّم في ظل الليل المنير. وكان ثمة نور ينبعث من الطابق الأول.

سار بخطوات واسعة داخل الممر وهو يهز رأسه وذراعيه وراح يعبّ الهواء المثلج، سعيداً بقدرته على الانتفاض حراً وعارياً بلا سجان ولاقبعة. انحدر الى النهر بعد أن ترك ملابسه والخروف على الشاطىء ثم استحم. تحدث الى نفسه ورش الطحالب بالرذاذ واغتسل بالماء الجاري ثم تقدم وسط التيار متحدياً الغرق.

أحسّ برعشة تسري في جسمه عندما استلقى على العشب ثم مالبث بدنه ان اقشعر وهو ينظر الى النجوم. ويتقلب بين الكواكب. طالما أحب هذه الاضواء التي تنير في وجه الظلام دون لهب ولادخان لكنه لم يكن يعرف اي ظمأ كان يروي بالتحديق اليها. **كيف حال الطقس هذا الصباح... انت لطيف في حقيقتك يالودو... ناولني الصينية قبل ان يبرد الطعام.. حسنٌ ماذا يسعدك.. ربما كنت ولداً لطيفاً..**

وتوجه نحو ساحة كرة المضرب وهو يعدو وتأمل سيارة الفرساي وفكر في انه يحب العمل في مجال الميكانيك. كان الصندوق الخلفي فارغاً فاخفى فيه خروف القزم ثم احس بوجود رزمة من القماش تحت اصابعه وكان بنطالاً مشبعاً بالرطوبة كوّم على شكل كرة. وبعد ان فتش جيوبه عثر على ورقة طويت بعناية.

لم يكن يشعر بالنعاس لكنه عاد الى القصر الريفي واجتاز الشرفة

وصـورة فين بين ذراعي دودو تنخسـه. وخـلال سيـره بمحـاذاة الواجهة تأخر بعض الشيء تحت نافذتها ثم نظر من خلال الواح الشباك. شاهد ظلالاً متشـابكـة مشتتـة الأشكـال والالوان ثم لاحظ على أحد اطراف السـريـر الضائع في العتمة رأساً شبيهاً برأس ميدوزا. وهنا، تعرف لودو على أشهـر قبعـة في مركز سان ـ پول: قبعة غراسيان. ولم يستطع لودو تمييز اي شيء آخر ثم مالبث ان انسحب وقد غاص قلبه في صدره.

كان اوديلون ما يزال يغط في النـوم عنـدمـا أعـاد مفتـاح الممر الى مكـانـه تحت الـوسادة ثم دخل حجرة غراسيان فوجد السرير غير مرتب لكنـه كان فارغـاً فعـاد الى حجـرتـه واهن القوى. أحس بالحاجة الى الاحسـاس بالـدفء، الى البكـاء والى تبـادل الحديث مع شخص ما والـى ان يذهب كي يسأل ماكسـونس عمـا اذا كانت أمـه تضـع له المحـاجم عنـد اصـابته بالبرد. وعندما خلع ملابسه التي كانت مشبعة بالتـراب طارت الـورقـة التي عثر عليها في السيارة وكانت مكتوبة بخط اليد وممزقة من الأعلى الى الاسفل بسبب الرطوبة حتى انه لم يتمكن من قراءة الجانب الأيسر منها:

افهم ياعزيزي برونو انني
اين جميل وعود
منذ ثلاث سنوات وانت
الوقت كي نقول الحقيقة للويزا
انت الرجل وانت الضابط
تحب كثيراً ان ارتدي بدلتك

أضحي بحياتي للاهتمام بالاط
تكره ان تجعلها تتعذب
التوأمان بعد الانفصال
وبعد ان اسست مركز سان ـ پول
هذا الحب الذي تعاهدنا عليه كل
ستقرر أخيراً ان تفي بوعودك
عن طريق شخص آخر تعرف الى
ت حياتي، حبي وغر
هيلين التي تحـ

تكوّم على الارض ثم اغمض عينيه. الجميع يتبادلون الحب. الآباء يحبون الاطفال وفين تحب دودو وغراسيان والآنسة راكوف كانت تكتب رسائل حب، الا هو، هو وحده لم يحبه أحد، قط، هو وحده يظل وحيداً أبداً.

وفي صباح اليوم التالي أثارت قضيتا الهيكل العظمي والخروف المسروق جواً من الاضطراب في المركز فاستجوبت الانسة راكوف الاطفال كلهم واحداً تلو الآخر. أما لودو فقد التزم الصمت مثلهم وقال للقزم الذي بعث هذا السحر الاسود الرعب في نفسه، لابد أنه قد ارتكب خطيئة كبرى كأن يكون قد كذب أو سرق وأن خروفه لن يعود الى الظهور إلا بعد ان يعترف بجريمته.

*

وفي بداية شهر أيار ولّدت الاشعاعات الحرارية الاولى حالة من التوتر في مركز سان ـ پول. كان القيظ الشديد يتحول الى عاصفة حتى تهطل المُزن فتريح الأعصاب أحياناً، وفي احيان اخرى كان الاطفال يشاهدون سماء ملبدة بالغيوم، لاتسقط منها قطرة ماء ويشقها برق رخو لكنها تظل قابعة الى ما لانهاية فوق اشجار الصنوبر التي لاتحركها نسمة واحدة.

كانت الفتيات يتشاجرن فيما بينهن خلال وجبات الطعام من أجل لاشيء وعندما كانت تنفجر حالات التمرد التافهة تلك، كان يجب كبحها دون تأخير. وسمحت الآنسة راكر ـ للاطفال بارتداء الملابس الصيفية ثم استغلت أحد الأيام التي كان الجو فيها خانقاً الى حد بعيد كي تقدم محاضرة عن الصحراء اعقبها فلم. فشاهد الاطفال اكواخاً حقيرة متحجرة وواحات ناضبة و «غرباء» حفرت الزوابع الشمسية التي تكتسح منطقة تدعى «بلاد الظمأ» أخاديد في وجناتهم. واضافت قائلة ان الاطفال محظوظون حقاً لانهم لايعانون العطش على الاطلاق. وانتهت المحاضرة باحتساء اقداح من الماء البارد وكانت الساعة عندها تشير الى الثانية بعد الظهر.

وفي المساء، بدا كأن ماكسونس قد اختفى فجنّد المركز كله للعثور عليه وقامت ثلاث فرق مذعورة بعض الشيء تقودها فين والآنسة راكوف ودودو بتمشيط المنطقة بأكملها، الحديقة والقصر الريفي، تمشيطاً دقيقاً ولكن بلا جدوى. وأخيراً، قررت الممرضة التي ظنت أن المسألة قد تكون في أسوأ الأحوال مسألة هروب، ابلاغ الشرطة. وعندئذ فقط سمعت لودو يصرخ عبر النافذة المفتوحة، وكان النداء

قادماً من ساحة كرة المضرب. وصلت الانسة راكوف الى المكان بعد دودو مباشرة، وكان الأخير يفعل شيئاً ما في الجزء الخلفي من السيارة. وبدت على أرضية السيارة، بين المقاعد الخلفية والأمامية، وسط الغبار الذي كان يتطاير والروائح الكريهة الخانقة التي تتصاعد، هيئة انسان مضطجع.

صرخت «بسرعة، اخرجوه!» وتم اخراج شيء ما، اشبه ما يكون بتابوت قماشي متحجر. وكان ذلك الشيء هو ماكسونس وقد لف نفسه بثلاثة أغطية صوفية وارتدى جميع ملابسه الشتوية من جوارب وبناطيل وكنزات صوفية وقفازات إضافة الى اللفحة الصوفية وغطى رأسه بقلنسوتين كانت إحداهما بوضع مقلوب.

واسترد وعيه في صالة الطعام بعد احتساء قدح صغير من شراب «الرانكانكان» ثم ابتسم للاطفال الذين تحلقوا حوله بكل لطف. سألته الانسة راكوف عن السبب الذي دفعه الى فعل ذلك فأجابها ماكسونس انه يعتزم نفي نفسه قريباً الى الصحراء لكن عليه اعتياد الجو هناك أولاً.

*

وانتهى لودو الى عدم الظهور في أيام الآحاد اذ كان جميع أولئك الآباء الذين لم يكن بينهم سواه يبعثون الكآبة في نفسه. كان يلازم حجرته وحيداً يتأمل، وهو منغلق على الارض، ذلك الكرنفال البائس المنشور على الجدران ويؤلف قصصاً عن الجن ويقرأ كتباً كانت فين تختارها له كيفما اتفق من مكتبة الكولونيل، وهو مكان سبق أن أعلنته

الآنسة راكوف مكاناً ملعوناً. وكان من بين هذه الكتب «الأمير الصغير» و «اطروحة في علم جراحة الاسنان عن علاقة الجراح بمريضه» و «رحلة سوزان في السودان». وكان لودو يمتلىء اعجاباً بكل تلك الكلمات الغامضة على نحو يفوق غموض الكواكب في الليل.

وكان اوديلون يهدده في صيغة تنبيه ودي:

«القراءة في سان ـ پول ممنوعة على الجميع ماعدا لوسيان، الموسوعات نعم أما القراءة فلا. ماذا لو فاجأتكم الآنسة راكوف؟ أو لو أبلغها احدهم.. فتاة مثلاً!» ثم كان اوديلون يهز يده بعنف كما لو كان يعتصره داخلها. وكان لودو يجيب: «وخروفك، أهو في الجحيم؟»

وبعد مغادرة ذوي الاطفال كان لودو يتسكع في الحديقة عند المساء ويتنسم سحر الآثار المبعثرة التي خلفها الزائرون وراءهم ويغار منهم كما يغار المرء من عرق مختار.

وحل اليوم العظيم الموعود. لم تكن الشمس قد اشرقت فيما كان لودو قد انتهى من الاستعداد له. وعندما فتحت فين باب الممر عند الفجر، كان هو هناك، واقفاً تحت مصباح الليل حاملاً بيده باقة من أزاهير الربيع. وقال بشيء من العدائية: «انها لأمي، وحينها ستدركين ان الصورة لي..»

ظل واقفاً قرب البوابة الخارجية يترقب حتى المساء دون ان يتناول شيئاً من الطعام طيلة النهار محاولاً مقاومة حدسه في أنها لن تأتي، غير قادر على الامتناع عن التطلع بحب الى سيارة الفلوريدا ذات اللون الازرق الباهت وعن الاعتقاد بالسراب الذي خدعه في السابق.

وفي الساعة التاسعة مساءً ظهر ميشو بعد مغادرة جميع الآباء، وكان

وحده. نظر اليه لودودون سرور، ذلك ان مقدمه لم يعد يتوسط تلك الهالة السحرية للانتظار الذي راح يغذيه منذ واحد وخمسين يوماً. ولم يتجشم حتى عناء سؤاله عما اذا كانت نيكول وتاتاف قد أتيا معه. وقال الميكانو الذي كان ثملاً وهويلثغ: «ها انت ذا ايها الصغير اللطيف! ان كان هناك طفل لطيف في العالم فهو انت..»

سار بين الموائد المصفوفة في الخارج ورائحة الخمر تنبعث منه ثم تملكه العطف حتى دمعت عيناه أمام الاطفال الذين أثار هذا الغريب الذي يحدث جلبة حيرتهم.

«... وانتم ايضاً ايها الاطفال، كلكم لطفاء!.. لطفاء لامثيل لكم.. بقبعاتكم هذه، وبهيئاتكم وبابتساماتكم. انني احبكم.. حتى ان كنتم مجانين! فهذا افضل من أن يكون للمرء زوجة لاتستحق حتى الطفل الذي تملكه..»

ثم أمسك بلودو من كتفيه وجعله يستدير في مواجهة مستمعيه.

«ذلك ان هذا الطفل، أقول، ان من يمس شعرة في رأس هذا.. سيرى ما أنا فاعل به!...»

وجاءت الانسة راكوف عندئذ لاستقبال ابن خالتها وهي تتظاهر بعدم الانتباه الى حالة السكر التي كان فيها.

«لادري ان كنت تعرف مساعديّ، فين ودودو..»

شد ميشو على يد الزنجي وقال ان القناصين السنغاليين الذين عرفهم في الجيش كانوا الوحيدين الذين لم يكونوا يهربون.

وقالت الطباخة مضمنّة كلامها معنىً مبطناً:

«اننا نأمل ان نراك دوماً. أليس كذلك يالودو؟..»

وبهت الأخير عندما اقترب ماكسونس من الخلف وقال بنبرة واضحة وتفصيلية: «آه، هاقد وصلت عائلتك اذن. كنت قد بدأت اقلق. هل أتت امك؟...»

فأجاب لودود:

- «وانت؟...»

وقال اوديلون لميشو ان ابنه قد حقق تقدماً كبيراً منذ وصوله الى سان - پول.

فأيد الميكانو:

«آه، هذا صحيح. لست ادري. ولكنه تغير. لقد طالت قامته، كالفاصولياء تماماً، فهي تكبر طولياً..».

ثم أمسك بلودو من رقبته:

«أعرف عمَّ ستسأل! لست مجنوناً.. أتريد أن تعرف لماذا لم تحضر نيكول ولماذا لم يأت تاتاف ايضاً!.. كنت أعرف أنك ستسألني عن ذلك ولكن لابأس، فها أنذا قد أتيت». ثم قهقه: «ذلك أن أمك.. تحمل شيئاً في بطنها.. طفلاً آخر! يجب ألا تضايقها كثيراً.. ومع ذلك فهي ليست سمينة.. لا! ما تزال قامتها ممشوقة..

أما تاتاف فلديه امتحانات لاادري في اي مادة وقد طلبا مني أن أقبلك عنهما. ولكنك سعيد برؤيتي. أليس كذلك؟ ألست سعيداً برؤية ميشو؟...».

وافقه لودو بارتباك وبدا متردداً. ثم قالت العينان الشاردتان بعيداً: «انها العطلة في شهر تموز. والكل سيذهبون.. يجب ان أعود الى المنزل!..»

فطبطب ميشو على بطن لودو بلطف وأجاب كما لو كان سعيداً باعلان خبر جيد: «صحيح! هذا سؤال جيد. انني اقول لك انك ستعود الى المنزل، وقريباً جداً! . . .»

ثم استدار نحو الآخرين.

«وانتم ايضاً ايها الاطفال، ستأتون الى البحر، جميعاً، الى البحر، مع صغيري وستسبحون جميعاً. وان لم ترضَ نيكول، فذلك سيان عندي! . . .».

تناول ميشو طعام العشاء في المركز برفقة الانسة راكوف ولودو الذي لم يأكل شيئاً. اراد ان يعرف كل شيء عن المغارة واقسم انها افضل فكرة خطرت على بال أحد. «هذا ما تحتاج اليه الدغلية، مغارة في الموقد مع خرفان كثيرة كمتسابقي الدراجات الهوائية! . . . آه لو عرفت أمكِ انني هنا، لقامت القيامة! . . .». وعند تناول الحلويات غط في النوم فجهزت له فين سريراً متحركاً وضعته في احد زوايا صالة الطعام فنام فيه وهو يعد الاطفال بتعليمهم لعبة الكرات المعدنية في الصباح، لكنه ما لبث أن غادر كاللص في منتصف الليل.

وتسلم لودو خلال ذلك الاسبوع رسالة من نيكول حملت توقيع تاتاف وميشو أيضاً.

الدغلية في ٦ حزيران

عزيزي لودوفيك:

اخبارك لاتصل الينا كثيراً لكننا عرفنا شيئاً عنك أخيراً عن طريق ابنة

الخالة ونحن مسرورون جداً لانك في حال أفضل. انني متعبة جداً اذ أصبت بنزلة برد شديدة في شهر نيسان بسبب الريح التي لم تتوقف عن الصفير وقد قال الطبيب انني في حاجة الى الراحة ولذا فعليك ألّا تكون أنانياً وتطلب مني القدوم طوال الوقت. يجب ايضاً ألا تجبر ميشو على قطع هذه المسافة الطويلة لانه لم يعد شاباً. عليك ان تفكر في الاخرين وفي العناء الذي جشمناهم إياه. لقد جاء الحر وأخذنا نتناول الطعام في الخارج. وأخيراً، ابعث اليك بطرد وبقبلاتي.

نيكول

أبعث اليك بقبلاتي انا الاخر. حقاً، يجب ان تعلمنا ارك ايضاً.

ميشو

سأجتاز امتحان السياقة قريباً وابي يسمح لي بقيا:ة الفلوريدا في الغابة. وضعت لك علكة «غلوبو» داخل الطرد علماً انني لم أعد أتناولها.

تاتاف

!

وامضى لودو يومين في قراءة الرسالة وفي تحطيم نظره وقلبه فيها. وفي يوم الاحد اللاحق ساعد فين في اخراج المناضد ثم بقي على الشرفة مع جميع الاطفال وكان الجو حاراً ورائحة الراتنج تنتشر في كل مكان. وحضر عدد كبير من ذوي الاطفال وكان جو احتفالي يسود المكان والانسة راكوف تسير مبتهجة في الممرات الدافئة متأبطة اذرع النساء.

اما لودو فكان كالسابح في خضم هذه المواكب العائلية المعطرة التي

راح يترصد حركاتها واسرارها، كالمسافر الوحيد الذي لايستطيع التخلي عن الامل في العثور على احد ما بين هذا الحشد، ينظر بعينين متوسلتين الى كل امٍ ويفكر: لو اقتربت احداهن منه وامسكت بيده لتبعها في الحال.

وسألته امرأة جميلة في مقتبل العمر أثارت حركـاته فضولها:

«ما اسمك؟»

فأجاب بصوت مضطرب:

- «لودوفيك»

فضحكت ثم داعبت وجنته:

«انه اسم جميل.. انك تتحدث جيداً كما انك كبير. هل انت سعيد؟..»

كان شعرها أشقر ومتألقاً كشعر نيكول في السابق.

خفض رأسه فانتبه الى انه لم يعقد، هذه المرة أبداً. اربطة حذائه ثم راح يبكي بتلقائية كاملة حتى انها امسكت بكتفيه فأرتمى باستسلام كامل بين ذراعيها. وكانت تلك المرأة هي والدة آلييت وهي طفلة منغولية سرعان ما توجها نحوها. وعندما رأى المرأة تداعب الطفلة أحس بأن هذه الاخيرة هي التي انتشلت من هاوية التعاسة.

وفي المساء، نفخت الانسة راكوف في صفارتها معلنة منع التجول ثم ولجت حجرة لودو الذي صرف لتوه اوديلون بفظاظة. وكان لودو جالساً على الارض وهو يمر بالقلم الاحمر على خطوط كفه اليمنى.

«من المفترض ان تكون نائماً الان.. وانا التي أتت هذه المرة في الاقل كي تمدحك».

اغلقت الباب ثم القت على الجدران نظرة رقيقة وقالت:

«اذا استمر الامر كذلك فستصل السقف! . . . كان نهاراً ناجحاً وكان الجميع مسرورين. في احد الايام ستنهار ساحة كرة المضرب. . ما كان الكولونيل ليسمح لنا بتحويلها الى مرأب. . .».

كانت تتحدث بروية تاركة بين الجمل فترات صمت طويلة وكان خدر يلون صوتها.

تنهدت وجلست على جانب السرير وقالت:

«اشعر بالتعب. . ماذا كنت اقول؟ . . آه، صحيح، اردت ان اهنئك على سلوكك اليوم. كنت متوحشاً في السابق. هل بدأت تشعر بالسعادة بيننا؟»

ثم اكتسبت نبرة صوتها طابعاً متكلفاً:

«المركز اسرة واحدة يالودو، اسرة كبيرة وجميلة. . عندما اقول لودوفيك ابننا فهذا يعني ان لودوفيك ابن مركز سان ـ پول حيث يعيش اخوته وأخواته. كما ان جميع الاباء الذين يأتون هم ذووه.»

رفع لودو رأسه فوقعت عيناه على ركبتي الانسة راكوف التي سرعان ما نقلت ساقيها جانباً وراحت تبتسم.

قال بشراسة:

«هذا ليس صحيحاً. . انا ابن امي وهذا كل شيء».

فاطلقت ضحكة جافة وقالت:

«لنتحدث عن أمك اذن! . . كان بامكانها ان تعلمك كيف تتحدث بأدب. . وأن أردت ان تعرف الحقيقة فاعلم انني اكتب اليها كل اسبوع. إن كان أهلك لايأتون فالذنب ليس ذنبي. يبدو انها حامل. .

ياللمهزلة! . . السيدة براد حامل الا انها لاتنقطع عن الزيارة في اي يوم احد . . السيدة بيرنييه حامل ايضاً وهي من اوائل من يصلون الى المركز دائماً» .

استدار نحوها وقال :

«هذا ليس صحيحاً» .

ـ «. . . والسيدة ماسينا تأتي مرتين في الشهر رغم اصابتها بالربو . . والسيد مافيولو يسكن على مبعدة ٥٠٠ كم لكنه يأتي كل اسبوع كي يرى غراسيان . . الجميع لديهم التزامات يجب عليهم التخلي عنها مؤقتاً . . أما أمك ، فالمعذرة ، انها لاتأتي أبداً! دعنا اذن من الحديث عنها و . . .»

قاطعها لودو بحدة :

ـ «وانت!»

وكان قد رمى قلمه في اتجاه الحائط ثم انتصب واقفاً .

فصرخت الممرضة وقد تملكها الغضب :

«ماذا دهاك!»

نظر لودو اليها بقسوة ، من أخمص قدميها حتى قمة رأسها وتوقف بنظره طويلاً عند الشعر والأظفار التي تدلل على اعتنائها المفرط ثم قال وهو يقترب منها اقتراباً شديداً .

«انت مثلي ، انت ايضاً لاأحد يأتي لزيارتك . انت أيضاً بلا أطفال ، بلا زوج وبلا حبيب . . وأمك هم الأنذال الثلاثة! . . .»

ثم غمغم باشمئزاز فجأة وبدا كما لو انه شعر بالخجل من اكتشافه هذا :

«كما ان شعرك أشيب . انك عجوز» .

* * *

الفصل الثاني عشر

. . . . عجوز! . . لقد نكأ هذا الولد الجرح من جديد فتدفقت الذكريات منه كالدماء.

تقلبت الآنسة راكوف في فراشها فصرّ القفص الحديدي وصرّ الليل أيضاً. حاولت اغلاق عينيها دون جدوى. ولكن لا . . لم يلق الغيظ سلاحه، فهو عالق مالطحلب الأحمر في قعر الأعصاب، وجسدها، جسدها الشائخ، يضايقها. . كان ذلك في زمن بعيد عندما كان الكولونيل يتسلل الى حجرتها ويضمها بين ذراعيه في الظلام دون ان يتلفظ بكلمة واحدة. كان كل شيء يتم بسرعة وبعجل، ففي الجهة الأخرى من القصر الريفي كانت الزوجة الشرعية تنتظر زوجها.

كما كانت الساعة؟ . . الثالثة في أقل تقدير. لم تكن قد أزالت مساحيق الزينة عن وجهها وهي تشعر بحكة في انفها، وتشعر بحرارة خانقة أيضاً. كان برونو يقول انه كان كمّن يمارس الحب داخل بزة حديدية. لقد نسيت اعادة ترتيب المغارة هذا المساء لكن لودو لن يخسر شيئاً ان انتظر. كم هي نادمة الآن لانها صفعته اذ سيظن ان كلامه قد أثر فيها.

شعرها الأبيض! . . . عجوز! . . ولكنه نسي التجاعيد التي تحيط بفمها، نسي وجنتيها المترهلتين وذلك الجيب المتكوم تحت ذقنها وبشرتها التي فقدت بريقها وثدييها المتهدلين والخصر المنتفخ الذي تخفيه تحت

سترتها الفضفاضة التي تكتم عليها أنفاسها. ذلك الغبي لم ير شيئاً!

نهضت وارتدت مبذلها على عجل فوق منامة الكولونيل التي استولت عليها كما استولت على السراويل الصغيرة ذات النسيج القطني المزغب وعلى الخف المنزلي التقطت مصباح الجيب وهبطت السلم في الظلام.

كانت صالة الطعام ساكنة، فأنارت، دونما تحديد، الجدران المحيطة بالمغارة حيث بدت صور الغرباء الملونة بالوانٍ عنيفة كأنها جدار مغضن. نزعت الورقة وكورتها ثم ضحكت بمرارة. ستبدأ بمنع هذا الصبي عن مزاولة هذيانه في الرسم! أما الزيارات فمن المؤكد أنه لن يحظى بأي منها في الأمد القريب..

كان الجو أشد حرارة على الشرفة وكان أثقل أيضاً بسبب الرطوبة، تلك التي يحبها البعوض. لم تكن الليلة ملائمة للنزول الى النهر.. انها تذكر يوم اصطحبها برونو في جولة بالقارب عندما أوشكا على الغرق. لابد ان القارب يتفسخ في مكان ما هناك، تحت الاعشاب.

عادت وحامت مرة اخرى داخل قاعة الطعام وحين مرت أمام جناح نوم الاولاد ادارت اكرة الباب على نحو آلي لم يكن الباب مغلقاً. لابد ان يحدث ذلك في أحد الأيام، وان يسهو اوديلون! ورغم ذلك كان من المفترض بذلك الزنجي الأحمق أن يتأكد.. سيتلقيان نتائج اعمالهما غداً! من حسن الحظ انها تحمل حزمة مفاتيحها معها. دست المفتاح في القفل ثم عدلت عن ذلك ودفعت الباب وتسللت داخل الممر المظلم.

واضطرت الى ان تستمر في الطرق طويلاً على باب حجرة دودو حتى حصلت على جواب.

قالت وهي تقف على العتبة:

«المعذرة.. أعرف ان الوقت متأخر ولكن، أتعرف أن باب الممر لم

يكن مقفلاً؟

ـ لا ياانسة راكوف.

ـ انني اهنئك اذن! . . أحب ان اذكرك ان من بين المقيمين هنا من يحب الهرب ومن يسير أثناء النوم.

ـ نعم ياانسة راكوف».

ياله من فرن. . اطبقت تلك الحرارة وتلك الرائحة على بلعومها فلم تستطع رؤية شيء داخل الحجرة الا انها سمعت صوت انفاس لاهثة وتكتكة ساعة منبهة ضخمة فقط.

«سننـظر في الأمـر غداً. سأتركك الآن. . افتح النوافذ قليلاً كي يدخل الهواء فرائحة الحجرة كريهة!»

لكنها لم تتحرك.

«. . . بـالمنـاسبـة يادودو. اشعر بألم في اسناني يمنع عني النوم. . ألديك حبة «غليفانين»؟»

فأجاب دودو بعد فترة من الصمت:

«ليس عندي غليفانين. لا. ليس غليفانين ولكن عندي اسبرين.»

وكان يخيل الي المرء انه كان يتحدث الى آلهة.

«ولكن الاسبرين لعلاج الآلام الحادة. .

ـ لديّ اسبرين فقط.»

لم يكن أحدهما يميز الآخر الا ان صوتيهما داخل العتمة كانا يمتزجان.

«وسجائر غولواز يادودو. ألديك واحدة منها؟»

فغمغم:

ـ«حتماً لاياانسة راكوف. التدخين ممنوع».

وكان يبدو مرتعباً.

«ما هذه الرائحة الحادة في حجرتك اذن؟

ـ ليس لدي سجائر ياانسة راكوف. الكولونيل منع ذلك.

ـ هيا، لاتتغابى يادودو. الكولونيل كان يعرف انك تدخن في الخفاء. لاتنس أيضاً ان ورائي عشرين عاماً من العمل في المستشفى. انر الضوء اذن واعطني سيجارة».

وسُمع عندئذ صوت زفير طويل ثم نشر مصباح وُضع مباشرة على الارض وكُبح ضوؤه بصحيفة، نوراً حميماً الى جانب السرير فرأت أول ما رأت مبولة ليل منتفخة البطن في حين طرفت عينا الزنجي المبهوتتان والناعستان. كان ينام عارياً فوقعت عيناها على جسمه الاصوف وعلى ساقيه اللتين كانتا تبرزان من جانبي فروة خروف شدها الى جسمه وكأنه امرأة فوجئت بغتة وهي في الحمام. وكانت ابتسامة غريبة توتر شفتيه.

قالت بخجل: «يبدو انني اول من يستخدم الاسبرين».

توخزت اعصابها وراح قلبها يخفق بشدة والكلمات تستعصي عليها. كم يبلغ من العمر ياترى؟ أهو مثلها في حوالي الخمسين.. طالما شعرت بالتقزز منه، من تلك الرائحة ومن ذلك اللون ولكن، هاهي تحس بالبرد فجأة وتتحرق الى التسلل تحت فروة الخروف الى جانبه، حيث الدفء، وان تسأله، وهو يضمها الى جسده، ان كانت حقاً عجوزاً بلغت نهاية العمر.

ـ«.. ان لم يكن لديك سجائر..

ـ لدي سيجار من النوع الصغير.. علامة موراتي.

وبدا من الواضح ان الاضطراب الذي كانت تبثه بصوتها وهي تتحدث قد انتقل اليه. اشار الى المنضدة الصغيرة ذات الدرج قرب

السرير الا ان الآنسة راكوف سبقته ورفعت علبة البسكويت التي كانت تخفي علبة السيجار داخل الدرج.

«هل اقدم لك واحدة؟

- هذا ليس صحيحاً فأنا لاأدخن خفية.. في فترات متباعدة فقط».

ثم مد يده وبسط كفه بطريقة المتسول فتأملت تلك الكف الوردية السمراء وكلها رغبة في ان تطبق عليها بشفتيها.

- «والكبريت؟»

التقط من الارض علبة زرقاء من النوع الذي يستخدم في مطبخ المركز، فقالت وهي تستحوذ عليها. «رائع. انه كبريت المركز. ان كنت تحتاج اليه فما عليك سوى ان تطلبه!»

ثم تهالكت في مقعد بلا مسند قرب المغسلة ورفعت السيجار الى شفتيها وسحبت منه نفساً رمادياً طويلاً ابتلعته بتلذذ. شعرت انها في حال افضل فنظرت الى دودو الذي وضع سيجاره في فمه دون اشعاله وذلك لانه لم يملك الجرأة على طلب علبة الكبريت منها. «المعذرة يادودو!» قالت وهي تطلق ضحكة صغيرة ماكرة ثم نهضت واقفة. كان سريره عبارة عن فراش وضع على الارض مباشرة فارادت ان تنحني عليه الا انها اضطرت اخيراً الى الجلوس كي تقرب منه عود الثقاب. ولامست يد الأسود يدها وهو يساعدها في توجيه الشعلة الى طرف السيجار.

غمغمت بصوت متقطع. «حين يشعر المرء بألم في الأسنان فليس هناك ماهو أفضل من التبغ.. كان الكولونيل مدخناً كبيراً رغم القوانين.. لكن الغليون أقل ضرراً. أكنت تحب الكولونيل دو

مواساك؟ . . اعني ، اكنت تحبه كثيراً» .

كم هو مريح ان تتلفظ بكلمة حب .

«نعم ياانسة راكوف .

ـ اتعــرف يادودو، حين افكـر في كل هذا وأنـا في هذه السن ، أرى الاشيـاء على نحـو مختلف ، فمـع التقـدم في العمر يصبح للانسان ، لنقل ، نظرة اكثر وضوحاً . . . »

وكـان دودو قد اعتـدل في جلسته مستنداً الى الوسادة وهو يشعر بثقة اكبر بنفسه وراحت عيناه تسعيان الى الالتقاء بعيني الانسة راكوف التي كانت تتصنع الحياء .

ـ «هل أنا عجوز؟ . . . »

بدا كأن السؤال لم يكن موجهاً الى أحد . فلم يجب .

ـ « قل لي بصراحة يادودو، هل أنا عجوز؟

ـ لا يا[illegible]ـة راكوف . » .

ولكن ، لايبدو ان هذا الحيوان مقتنع بما يقول!

«كنت تحبه اذن . .

ـ نعم ياانسة راكوف» .

ياالها من لكنة مقيتة . كان صوت الكولونيل مميزاً جداً . ترى ما قيمة هذا الزنجي الضخم الذي يسترخي بجلده الشبيه بجلد الماعز ويدخن سيجاراً نتن الرائحة حتى ليخيل الى المرء انه يدخن احدى اصابعه!

عادت الى الجلوس على الكرسي الذي كان بلا مسند .

«أنـا ايضـاً كنت أحبـه . . كنت احبـه حبـاً جمـاً في الحقيقة . كان رجـلاً . رجـلاً حقيقيـاً ، كان يحب العمل ويملك احساساً بالقيم وكان

مخلصاً وتقياً. . وكان يتميز بتلك الأنانية الرائعة التي يتميز بها جميع الرجال!. . زوجته هي التي أضاعته!»

لم تكن توجه الحديث الى دودو في الواقع، بل كانت تجتر ذكرياتها من خلاله.

«لن انسى ما حييت شكلها عندما وَصَلَتْ. كانت تتصنع الكبر. . ولم تكن تتركه حتى لحظة واحدة. كانت تغار، اتفهم. وتتوهم أن بيننا أنا والكولونيل. . صحيح أننا كنا أصدقاء وأننا كنا نحترم بعضنا بعضاً. . كان الكولونيل جذاباً حقاً وكنت أنا شابة. . »

لماذا ينظر اليها بهذه الطريقة. . انه يبدو مبهوتاً. لابد أن منظرهما معاً كان جميلاً مع السيجار! هو، عارياً في سريره ينظر بعين جاحظة، وهي جالسة على مقعد اعرج دون تكلف وخُفّا الكولونيل في قدميها.

«وانت يادودو، ماذا كنت تفعل في شبابك؟

- كان الكولونيل يعرف كل شيء عني. كنت أعمل في معمل للسكر ثم جاء هو وهاجمني بالسكين وأنا. .

- صحيح، صحيح، دعنا من الحديث عن هذه القصة البائسة الآن. . ألاتشعر بالوحدة أبداً، ألم تفكر يوماً في الزواج؟

- لا!. . . على الاطلاق. . فلكي يتم الزواج، يجب توفر الحب!

»

وماذا يعرف هذا الاخرق عن الحب. . ؟ كيف عاش طوال هذه السنوات؟. . . لابد ان الرغبة قد تكلست تحت جلده الاسود ثم مالبثت ان تلاشت بمرور الأيام. هي نفسها ظنت ان الرغبة ستموت في أحد الأيام وانها ستنام دون ان تشعر بالحاجة الى لمس جسد آخر،

جسد اي شخص كان.

تنهدت وهي تنهض على مضض:

ـ «حسنٌ، سأتركك الآن».

وحين سقطت عيناها على الجدار اكتشفت رسوماً خطت على عدد من مماسح الارض.

فقال دودو بفخر:

«صنعتها أنا. أنا الرسم في الليل.

ـ والمماسح، من اين تأتي بها؟

ـ من المطبخ ياانسة راكوف. انها مماسح قديمة مستهلكة، انها..

ـ الممسحة ياعزيزي دودو، تمسح أفضل كلما كانت اقدم. ارجوك اذن ان تتخلى عن أعمالك الفنية..

ـ ولكنني الرسم غرباء ياانسة راكوف، مثل الأطفال.»

فبدا عليها الانزعاج.

«غرباؤك زنوج وهم لايهمونني في شيء، من الأفضل لك ان تهتم باغلاق الابواب جيداً بالمفتاح. شكراً للسيجار على أية حال».

وبعد ان خرجت حك دودو بعصبية صدره وربلة سافه اليمنى التي كانت تأكله منذ فترة وهو يشك في ان الزيارة التي تلقاها انما كانت زيارة شبح.

❋

ومر أسبوع، تعاملت الانسة راكوف خلاله ببرود مع دودو، وببرود مع الفتيات وبلطف جارح مع لودو.

كتب الأخير رسائل منفصلة الى امه والى تاتاف والى ميشو فرفضت

إرسال الرسائل الا اذا دفع ثمن الطوابع. ولذا أخرج ثلاث قطع من فئة خمسة فرنكات من الجورب وحملها الى مكتبها فنعتته بأنه لص ثم صادرت النقود، اما الرسائل فلم يتوقع انها سترسلها في مثل هذه الظروف.

وسألها فجأة:

- «وصورتي؟

- اي صورة؟

- صورة أمي. اوديلون قال انها لي وقال انه قال لك ذلك أيضاً. قال انها لي.»

فاكتسبت ملامحها هيئة كريهة كمن يترقب فرصة:

«وهل تعتقد حقاً انني سأعيدها اليك؟.. لم لاتحدثني عن الخروف المسروق اولاً؟ ربما عاد بمفرده الى الموقد!.. ان اردت صورتك فاعترف لي بكل شيء، ثم، من أين لك هذه النقود؟

- أمي هي التي أعطتني اياها.

- كاذب! ما كانت أمك ستمنحك سنتيماً واحداً. من السهل التأكد على اية حال ما دام في منزلكم هاتف!»

ثم مدت يدها الى الجهاز وتصفحت دفتراً ضخماً وادارت الرقم المطلوب وعندما اجابها صوت ابتسمت للودو:

«الو؟.. السيدة بوسار رجاءً.. آه، اهذه أنت يانيكول.. انا ابنة الخالة هيلين راكوف من مركز سان - پول.. نعم.. لا، اطمئني فالأمر ليس خطيراً.. لا، اردت فقط القاء الضوء على مسألة بسيطة تخص لودوفيك.. ولكن لا، أبداً.. هل صحيح انك زودته بمبلغ من

المـال؟ . . لا! . . هذا ما ظننتـه . . المـال ممنوع فـي الـمـركـز و . .
مـاذا؟ اخـتـفـت قـطـع الـخـمـس فـرنـكـات قـبـل رحـيـلـه؟لا . .
الأمـر يتعلق بفئـة اقـل، ولكن! . . ربمـا كان ميشو هو الذي أعطاه . .
حسن . . شكـراً جزيـلاً . . أتـريـدين التحدث اليه قليلاً . . انه أمامي
هنا؟ . . نعم، نعم أفهم . . بلاشك أفهم . . الى اللقاء . . ».

ثم أعادت سماعة الهاتف الى مكانها ونظرت الى لودو وبعثرت قطع النقود على مكتبها كما لو كانت تمنحها الى الآلهة.

«ياله من عمل منكر! . . كم عمر امك؟»

فأجاب بتوتر:

- « لا ادري.

- صوتها يدل على انها شابة على أية حال . . هل تمكنت من سماعها؟»

فهمس:

- «متى ستأتي؟»

عقدت الانسة راكوف يديها ثم ابتسمت ابتسامة فاتنة.

«قـريبـاً جداً حتمـاً. فالعطلة في الاسبوع القادم. هذا اذا سمحت لك بالذهاب . . ولكن، بامكانك ان تعد نفسك من الآن سعيد الحظ لانني لم أقل شيئاً . . بشأن القطع النقدية . . أهي سمراء أم شقراء؟

- لقد قصت شعرها الآن وشعرها في الصورة غير مقصوص.

- انها ليست متقدمة في السن على ما ارى! . . ليس هذا كل شيء على أيــة حال اذ سأحتفـظ بالمـال المسـروق. وأريـد منـك الآن أن تعطيني بقية . . غنيمتك وسأدبّر الأمر بحيث يقتطع المبلغ من أجور

إقامتك . »

وفي ذلك المساء، سلّم لودوربع المبلغ الى الآنسة راكوف واحتفظ بمائة فرنك في الجورب .

وفي يوم الأحد التالي ، شاهد غالبية الاطفال يعودون الى منازلهم ولاحظ أنهم لم يكونوا سعداء جداً بالابتعاد عن مركز سان ـ پول وأنهم كانوا يودعونه بكآبة . اختبأ انطوان داخل شجرة وخروفه في يده كي يمنع ابويه من أخذه وجاء سائق يرتدي بزة الخدم الرسمية كي يأخذ ميريام في سيارة اميركية ضخمة فاضطروا تقريباً الى اجبار الفتاة على ركوب السيارة .

وفي منتصف شهر تموز لم يكن قد تبقى في المركز سوى عشرة مقيمين تقريباً أخذوا يشعرون بالخوف بسبب قلة عددهم ويبدون كعائلة تشتت شملها وراحوا يعومون في نهاراتهم كمن يعوم داخل ملابس واسعة عليه جداً .

كان لودو يتوقع وصول اهله كل يوم . وكل يوم كانت الانسة راكوف تقول له ان عليه التهيؤ للرحيل .

اخذ الاطفال يمارسون انشطتهم ببطء ولم يعد صوت الصفارة يسمع الا لماماً كما ركنت البطاريق جانبا وراحت الممرضة تتجول عارية الذراعين وتشغل الاطفال ببعض الاعمال البسيطة في الحديقة وبقطف الازهار قرب البالوعات واخذت صالة الطعام ترجع صدىء اجوف ، وظهر عصير البرتقال وانواع مختلفة من الحلويات على المائدة واحتلت جميع الخرفان القابعة في المغارة مواقع متساوية ولم تعد جلسات الموسيقى تعقد الا عند هطول المطر، وكان لودو يقضي وقته

برصد التصرفات غير الاعتيادية.

كانت عيناه غالبا ماتلتقيان عيني ليز اللتين تنظران اليه وكانت جدرانه ماتزال مملكته الوحيدة الخاصة التي يتبادل فيها الرسائل الغامضة معها. كان يرسم شعرة سوداء تحيط بحصاة بيضاء او عشبتين متشابكتين على شكل دائرتين وكأنهما حلقتان متداخلتان.

وتسلم رسالة من ميشو:

عزيزي لودوفيك

ازعجني ما بلغني من اخبار. كتبت ابنة خالتي وقالت انك انت من اخذ قطع الخمس فرنكات من حصالة النقود. شكت امك في الامر اما انا فلم اكن واثقا. انه لأمر معيب، يبدو انك تخلق المشاكل ايضا وانك تتصرف دون أدب. قالت ان استمر ذلك فلن تستطيع ابقاءك عندها وسيكون عليك الانتقال الى مؤسسة اخرى. ولكنني أظنّ أنّ الامر لن يكون في مصلحتك. ولن يكون في مصلحتي ايضا. امك التي كانت حاملاً فقدت ابنها وهي تقول ان سبب ذلك هو قلقها الشديد عليك. يقول الطبيب ان عليها ان تعيش في جو من الهدوء التام. فلا تستغرب اذن ان لم احضر قريبا. سآتي في جميع الاحوال الا ان عليك ان تنتظر حتى شهر آب بخصوص العودة الى الدغلية. واخيرا نبعث اليك بقبلاتنا.

ميشو

ارفق طيا خمسين فرنكاً وبذا لن تعود الى ارتكاب الحماقات من جديد.

❊

وفي صبــاح احـد الايـام، ودون سابق تصميم منـه، لم يحلق لودو ذقنـه. ظنت الآنسـة راكـوف انهـا مسألة اهمال فقالت له انه يشبه تيساً عجوزاً. وبعد مضي اسبوع اخذ يرفض باصرار حلاقة ذقنه. وكان كلما نمت لحيته اكثر ازداد انطواءً على نفسه. كما اخذ الحاجبان اللذان لم يعـد ينتف شعـرهمـا ينموان بكثافة. وعندما كان يمر امام الاطفال كان هؤلاء يتحسسون وجناتهم.

وقـد ادى به اطـلاقـه لحيتـه الى تغييـر سلوكـه، فاصبح اكثر تكتما وغموضا، بامكانه البقاء مختبئا دون حراك حتى يعتقد الاخرون انه غير موجـود عنـدمـا يكـون موجودا ثم ينتهون الى نسيانه. وقد استمر بتناول طعام الافطار مع فين الا انه لم يعد يطرح اسئلة عليها، اما عيناه اللتان ضاقت حدقتاهما بسبب الارق فقد ظلتا تلاحقانها في كل مكان بنظرة حاكم او عاشق مرتـاب تآكلتــه المــرارة. واصبــح عدائيــا حتى مع ماكسونس فان اقترب منه الاخير كي ينتزع منه ذكريات كاذبة عن حنان الام أجـابـه بقسـوة: « انا لااعرف شيئا. لااعرف من هي امي. ابي هو الذي رباني ... ».

كانت الكوابيس تزعجه وكان يحلم بأشياء مجنونة كأن يشاهد نفسه وقـد اتُّهم بوضـع احشاء سمكة في ادراج امه: كانت كتلا من الاحشاء ذات لون ضارب الى البياض وكانت الاغطية تمتلىء بها ايضا، او قد يشـاهـد نيكـول تنحني عليـه بحنو وهو نائم وتبتسم له كما لم تبتسم له قط. واذ ذاك يرى شعـره واسنـانـه تسقـط لتظهـر مكـانها ثقوب صغيرة مخضبـة بالـدمـاء داخل الفم الفاغر. اما الا بتسامة في الفم الاخر فلا تعود غير شق اسود في جمجمة.

كن يستخدم ساقيه العاطلتين عن العمل في النهار في اعمال تنقيبية. فاستكشف زوايا الحديقة كلها وفتش الادغال جميعها وعثر على شوكات وعلى اقداح مكسورة وعلى عظم متآكل من اللدائن وعلى قارب الكولونيل دوماسك ذي القاعدة المستوية وكان غارقا ومختفيا تحت الاعشاب.

واستمر بالكتابة الى امه لكنه لم يعد يبعث بالرسائل وقد خصص دفتره الخاص بدروس التعليم المسيحي لهذا الغرض. وكانت تلك الرسائل اقرب الى يوميات رحلات سفينة لاتحمل تأريخاً يرد فيها على نفسه بأجوبة خيالية كي ينعم بمشاعر حرّمت عليه.

كان قد وضع أمله كاملاً في شهر آب الذي مالبثت أيامه ان انسلّت واحداً تلو الآخر دون وصول أي نبأ من الدغلية وأخذت الحقيقة تبدو وكأنها تفرض نفسها عليه فرضاً بايقاع قاس جداً وراحت كلمات كان يرفض سماعها تتردد داخل صدره: انهم يتخلون عنه. ادرك هذه الحقيقة وهو يتأمل باطن كفيه المقعرتين: انهم يتخلون عنه وشاهد صورة أمه الغائبة داخل عينيه وراح يفر من المرايا ومن ذاكرته، يفر، وقد أُسقط في يده، مما كان واثقاً به منذ ولادته: انهم يتخلون عنه.

وشب حريق في الغابة فغزت سيارات رجال الاطفاء الحمر بصفاراتها التي تنعر، الشرفة الأمامية بعد ظهر أحد الأيام. كان المركز يوشك ان يحترق فأجلي الاطفال منه وشوهد في جهة الجنوب دخان أسود يعربد فوق اشجار الصنوبر وكانت ريح خفيفة تدفع في اتجاه القصر رائحة احتراق. جلست ليزفي الحافلة الى جانب لودو وراح اوديلون الذي حمل بارومتره بين يديه يتوسل الى السائق كي ينطلق.

وانعكس اتجـاه الـريـح فجأة وتراجع الخطر ثم ذهبت النار التي فقدت احساسها بالاتجاهات كي تنخزق في رشاشات خراطيم المياه.

وبعـد ساعتين، نفخت الانسـة راكوف في صفارتها معلنة نهاية فترة الانـذار فنزل الاطفال من الحافلة. ورفعت الشكر الى السماء، صلاة اقيمت على الشـرفـة التي كان الهواء فيها مشبعاً برائحة الشياط. وعند المساء، وقبل ابتلاع الحبوب المنومة، شاهد الاطفال فلماً عن الانهار الكبرى.

• وفي اليـوم التـالي، وكان يوم سبت، مر لودو بالبهو المقفر بعد انتهاء طعـام الافطـار فوجـد باب جنـاح الفتيات مفتوحاً على مصراعيه فغامر بالـدخـول الى عالمهن المحرم وكانت رائحة المكان الذي بدا خالياً، عطـرة. وفي حجـرة مشـابهة لحجرته شاهد على الجدران صوراً ملونة لرجال ذوي ملامح وسيمة يرتدون قبعات رعاة البقر. فتح درج المكتب وتصفح دفتراً ربط بشريط حريري وردي اللون فوجد صفحات مكتوبة بخط اليد تكرر الى مالانهاية الاسم نفسه وقد نقش بخط عنيد «ليز». كان اسم ليز يتكرر مسافة كيلومترات ويخب متراصاً على طول الاسطر حتى نهاية الدفتر الذي كان غلافه الداخلي خاضعاً للتعزيم نفسه ايضاً.

استلقى على السـريـر فظهـرت امـه. ما كان عليه سوى ان يغمض عينيـه كي يلتقيهـا، ويرى وجهها المختفي منذ الأزل في عمق الذاكرة التي ما تزال تعيش فيها نداءات واصوات ما عاد يسمعها.

انتبـه فجأة على صوت ضحكـة لكنـه كان وحـده وكـان الممر خالياً والهدوء تاماً كما كان لحظة وصوله. عاد الى المدخل وهو يفكر وصوت

ارتطام الكرات البعيد بالآجر يطرق الهواء الساخن برخاوة. لفتت انتباهه حفرة سوداء تحت السلم اشبه بالفخ المفتوح يرى المرء داخله درجات تتوغل في عمق الظلام. كانت الانسة راكوف قد غادرت بالسيارة وكان فين ودودو يلاعبان الاطفال في الشرفة الأمامية. وضع يده على متكأ اليد في السلم، وكان حبلاً، ثم نزل.

وسرعان ما وجد نفسه في القبو. كان واثقاً بأن القصر الريفي لابد أن يحوي مكاناً تحت الارض مثل هذا. كان الهواء مشبعاً برائحة رطوبة زنخة وكان يمكن سماع صوت قطرة ماء تسقط بايقاع رتيب تك - تاك. توغل داخل نفق معتم متلمساً الجدران، ذات النتوءات بيديه وبدا وكأن السكون قد تعكّر لتعرضه لانتهاكات صغيرة لم يتوصل لودو الى تحديدها. وأوشك ان يعود أدراجه عندما ضمّت أصابعه الأكرة المعدنية لباب سرعان ما أدارها فانفتح الباب مصدراً صريراً.

لم ير في البداية غير كوة صغيرة مرتفعة على شكل هلال ثم تقدم عدة خطوات داخل حجرة معتمة تغطت ارضيتها بأوراق قديمة وبملفات القيت هناك كيفما اتفق. واذ تراجع كي يخرج، خيل اليه انه لمح شخصاً فقفز ثم مالبث أن شاهد ظلاً يتحرك أمام عينيه باتجاه الكوة ووجه الشخص يتجسد شيئاً فشيئاً في العتمة. فهمهم لودو مذهولاً: «ليز..» واطلقت هي تلك الضحكة الطفولية التي تدل على تواطؤ محرم واضعة قبضتها المضمومة على فمها ثم تقدمت. وفي تلك الحجرة المغمورة بنور رمادي كدر أمسك لودو بتلابيب حقيقة غامضة دفعته الى الجنون أول وهلة: انه كان وحيداً مع ليز وانهما وحيدان في القبو. سمع هدير البحر وكان ذلك هو صوت الانفعال الذي كان يهدر

بكل حرية في أنفاسهما. تبادلا النظرات وتشابكت أيديهما ولم يعرف لودو كيف سقطا معاً متعانقين وسط مئات الصور لأناس ماتوا الا انهم كانوا يضحكون ضحكات صاخبة.

* * *

الفصل الثالث عشر

وفي بداية شهر ايلول عاد الاطفال الذين تمتعوا بالعطلة الى سان ـ پول فنُظِّم احتفال صغير القت فيه الانسة راكوف كلمة هي ذات الكلمة التي كان الكولونيل دو مواساك قد كتبها والقاها في حفل افتتاح المركز والتي تضع السنة الجديدة في رعاية الله .

اضطر لودو الى طلاء جدران حجرته التي اكدت الممرضة انها يمكن ان تفزع حتى مجنوناً ثائراً فقضى ثلاثة أيام في انجاز ذلك العمل وترك أوعية الطلاء مفتوحة اثناء الليل ونام في تلك الليلة وهو منتش بالابخرة السامة ، نوماً عميقاً لم يسبق له ان جربه . وكانت الخطوط التي كتب عليها الفناء تعود الى الحياة عند حلول الظلام ، تحت اشعاع الضوء الكهربائي ، وفائض الطلاء الذي يسيل على الجدران يكون بين الأصابع قطرات دمع كبيرة .

استمر اوديلون بالتلصص عليه مخفياً حقده وفضوله ونواياه السود التي سرعان ما ستكشف عنها الاحداث فجأة فيما بعد ، تحت غطاء من الود ومن الكلمات المعسولة ومن النوايا الحسنة . وكانت الآنسة راكوف تنذر لودو باستمرار بأن عليه الاعتراف بانه وراء الأقاويل السيئة التي يشيعها عنها . «ومن اخبرك بذلك؟ . . » فتجيب مراوغة ان معرفة

كل شيء انما يشكل جزءاً من مسؤولياتها ثم تضيف «أُراهن على أنك تسميني «العجوز» . . »

وعندما كان يفكر في ليز كان القلق يسيطر عليه . كان يلتقيها عصر كل يوم سبت في القبو بالتواطؤ مع الفتيات الأخريات اللواتي فُرض على أحاسيسهن الحظر فكن يتآمرن من أجل الحب ويتجمعن حال مغادرة الآنسة راكوف عند مدخل القصر الريفي كي يراقبن جوانبه ويردعن القزم عن الاقتراب .

وكان لودو وليز ينشران على الارض ملاءً قديمة مخصصة للتمزيق كي يستلقيا عليها فيغدق احدهما على الآخر مداعبات لم تكن تصل باي منهما حد النشوة . كانا يتبادلان القليل من الكلمات ويتعانقان وهما بكامل ملابسهما ويغفو كل منهما بين ذراعي الآخر . ولم يكن لودو يميز فم ليز بنظره الا انه كان يتلمسه بيده وكانت الشفتان المشقوقتان تعودان سليمتين في الظلام .

وفي أحد الأيام ارادت ليز أن تراه عارياً فأشعلت الشمعة الصغيرة التي جلباها معهما وأخذت تخلع عنه ملابسه بايقاع احتفالي بطيء ثم جالت بالشعلة على جسم لودو دون ان تصدر عنها كلمة واحدة .

كان يتأمل خلال الليل في حجرته ذكره المتألم فيتخيل ليز ويشتهيها ثم يخرج ويطرق شباك نافذتها غير المضاءة ويغمر الزجاجة التي تفصل أحدهما عن الآخر بالقبلات . واستمر يتجسس على حب فين ودودو أيضاً وهو يحاول أن يعرف ماهية ذلك السحر القادر على تحويل لذات مشتركة الى حالة من السبات .

وعندما كان يلتقي صديقته خلال النهار كانت الأخيرة تبدو صبية

قبيحة تخفي معالم انوثتها تحت مظهر كئيب.

وفي شهر تشرين الأول كتب ميشو:

عزيزي لودوفيك

يقول بعضهم ان الحياة عبارة عن قطعة خبز مطلية بالزبدة، وهنا تفهم ما أعني، واننا نقضم منها كل يوم شيئاً. الهموم بضاعة شديدة الوفرة عندنا! ولكنني لست ممن يتحدثون عن الآخرين بسوء. عليك على أية حال أن تضع نفسك مكان أمك اذ ليس من السهل ان تكون في انتظار طفل سرعان ما يموت بين يديك. كانت تلك ضربة قاصمة حتى بالنسبة اليّ. ولكن يجب الا نتذمر كثيراً اذ لا يمْكن للمرء أن يحوز كل شيء في هذه الحياة. كل ما استطيع قوله هو ان الوضع بيني وبين أمك ليس جيداً. منذ الحادث والأمور تسير في حال سيئة. لقد تذكرت الآن. لم اخبرك بالحادث. لقد صدمت أمك سيارتها. هذا ما كان ينقصنا في الواقع! لم تصب أمك بأذى لكنّ سائق السيارة الاخرى فقد عينه. وبما أنها كانت قد أفرطت في الشرب فأنت تدرك مسار القضية هنا. إنها أول مرة أرى فيها جدران محكمة. ولننتظر ونر ماذا سيحدث بعد ذلك. هي تقول أن الخطأ خطئي وهذا ما لا استطيع فهمه، اذ انني كنت في انتظارها في المنزل كي نتناول الطعام معاً حين وقع الحادث. قال تاتاف إنه لن يكتب اليك بعد الآن لأنك لا ترد على رسائله وأمك تقول ذات الشيء ايضاً فأنت لا تجيب على الاطلاق. وأخيراً فسأمر لزيارتك حالما تسنح لي الفرصة. ابعث اليك بطرد وبقبلاتنا جميعاً.

ميشو

أحصى لودو الأيام التي قضاها في المركز فوجد انها عشرة أشهر، اي سنة تقريباً لم تأت امه لزيارته ولم يخرج هو خلالها على الاطلاق. فكر في تاتاف الذي لايحبه وفي ميشو الذي يلوح بوعود عرقوبية بالعودة الى الدغلية فاكتسحه الحنين. استنشق عطور الأماسي في مخزن الغلال واستذكر ليالي التربص أمام باب أمه واستحضر أيام التجوال على شاطىء البحر في فترات العصر ووجبات الافطار والاهانات وكل تلك الذكريات التي تبدو له الآن ذهبية متكافئة بحلوها وبمرها فانعكست مشاعره تلك على علاقاته ببقية الأطفال.

كان ينظر الى المستقبل من خلال باب المركز الواسع لكّنه لم يكن يعرف كيف يتخلّص من قدره. ربما كان في حاجة الى جدران أخرى كي يستطيع السير في طريق يتلاءم ورغباته؟.. ربما أقام نيكول وميشو احتفالاً لو انه وصل الدغلية ذات يوم!.. وأنى لهم ان يمنعوه من الدخول الى بيته، الى بيت الاسكيمو، ومن ستماع الى الارغن ومن استعادة حياته التي تبدأ هناك، في هذه الغابة الفسيحة التي تقود الى حيث يقيم الغرباء؟.. لكنّه ما إن تحين لحظة الانطلاق حتى كان يتراجع دائماً: كان يخاف الحقيقة التي تنتظره في الخارج.

وامتنع عن النزول الى القبو مدة اسبوعين ثم مالبث ان عاد يدفعه فضوله. وكانت ليز هناك، صامتة، حزينة وقد تلون وجهها بالظلال. وبعد انقضاء دقيقة واحدة على لقائهما انتفض لودو. فغمغمت ليز:

- «ماذا دهاك؟»

فأجاب:

- «انني اسمع صوتاً».

ولم يجرؤ على اشعال الشمعة خشية ان يلاحظ أحد ما الضوء من الخارج ثم ردد:

ـ «هناك صوت ما».

الا انه لم يسمع اي صوت. كانت العتمة تعصب العيون فلم يتمكن من رؤية ليز نفسها من المكان الذي كان يقف فيه.

وحاصره الحدس. كان هناك صوت ما، في مكان ما، صوت متلفع بالظلام يحمل تهديداً مستمراً لهما. التقط علبة الكبريت والشمعة واجتاز عتبة الباب وتقدم داخل الممر واسنانه تصطك بعضها ببعض. أشعل الشمعة بصعوبة فتراقص اللهب الأصفر وأرقص الارضية والسقف المدور وصنع ظلالاً واهية غير مستقرة. فتش لودو، وقد أحس بالذعر فجأة، بحر الظلمات البارد ذاك الذي كان يسحقه. وعندئذ التقطت اذناه صوت تنفس على مقربة شديدة منه فخفض رأسه ليتعرف الى اوديلون. كان الأخير ملتصقاً بثيابه الرثة الحمر بالجدار كالجرذ، شاحب اللون، جاحظ العينين وراح يبذل قصارى جهده كي يغلقهما. وما لبث جسمه الصغير المتوتر ان اهتز بفعل ضحكة شريرة ثم وثب نحو الباب خارجاً.

سالت قطرات عرق باردة على جسم لودو وانطفأت الشمعة في باطن كفه دون ان يشعر بحرارتها ولم يأت باية ردة فعل حتى جاءت ليز من الخلف.

سألته وهي تمسك بيده:

ـ «ماذا حدث؟»

أجاب متألماً:

ـ «كنت أعرف. كان هناك صوت».

ومنذ ذلك اليوم ولودو يعيش في حالة انذار. كان يخشى وشاية القزم ويضطرب بشدة لدى رؤيته الآنسة راكوف ويتجنب ليز التي امتنع عن العودة الى القبو لرؤيتها رغم لسان حالها المتوسل ورغم قلقه كل يوم سبت لاحتمال ان تكون في انتظاره بلا جدوى.

كان ما يزال هناك شهر قبل حلول عيد الميلاد لكنّ المركز كان منشغلاً باكمله بالتهيؤ له. علمت فين الأطفال عدداً من الأناشيد والقت الآنسة راكوف خطباً بناءةً عن عيد الميلاد وحال لون اشجار الصنوبر الى لون الفضة بسبب انهمار الثلج مما بعث في نفوس الاطفال حماساً فوزعت الآنسة راكوف عليهم خمارات رقبة ونزهتهم على الثلج وعرضت عليهم مساءء أفلاماً عن المناطق الثلجية وعن الثلوج الأزلية.

كان يوم عيد الميلاد هو اعظم أيام مركز سان ـ پول على الاطلاق، لانه يوم الاحتفال بالمسيح، اله الابرياء. وفي ذلك اليوم يقوم دودو بنشر شجرة الميلاد في صالة الطعام حيث تعلق الهدايا بينما يقوم الاطفال بتزيين المغارة والجدران بشرائط ملونة وبقناديل ورقية يصنعونها بانفسهم خلال فترة العمل في الورش. وكان ذوو الاطفال يأتون لقضاء النهار مع اطفالهم ويقيم الأب مينار قداس منتصف الليل في حوالي السابعة يعقبه مباشرة عشاء ليلة العيد.

وفي أحد الأيام، باحت الآنسة راكوف لرعيتها بسر: «يفترض بي ألا اخبركم به ما دام سراً. . ولكنني سأقوله لكم رغم ذلك. سيكون هناك حفل موسيقي، عزف على البيانو. . مساء عيد الميلاد».

وسأل اوديلون الـذي كان يتصنـع معـرفة كل شيء عن اسم العازف وعما اذا كان كورتو أو لا .

ـ «انها السيدة اليس تورناش، والدة ميڤون . انها فنانة عظيمة وهي تقـدم عروضـاً في أنحـاء الاقليم وقـد حصلت على الجائزة الاولى من كونسـر فاتـوار اونغـوليم . . مسقـط رأسي . اريـدكم جميعـاً ان تكـونوا بكامل زينتكم على شرف حضورها . ألديكم اسئلة تطرحونها؟»

فسأل ماكسونس «هل يكون هناك بيانو.

ـ حتماً . والدة انطوان وافقت على اعارتنا جهازها» .

فنهض انطوان ليحيي الجالسين بزهو.

وقـال اوديـلون للودو: «هـل سمـعـتم . سيكـون هنـاك حفـل موسيقي ! . . كنت اذهب في السابق الى جميع العروض .

ـ وما معنى عرض؟

ـ ياالهي ، انه فنان يعزف على آلة . . العرض شيء رائع !

ـ ابي عرض أيضاً . انه يعزف على الارغن» .

ورافقه اوديلون حتى حجرته مستأنفاً حديثه بنبرة متكلفة :

ـ «بالمناسبة . . هل تأتون الى النزهة بعد الظهر؟

ـ ولم لاأذهب؟

ـ ولكنكم لاتأتون في العادة» .

فاكفهر وجه لودو:

ـ «هذا ليس صحيحاً . لقد ذهبت آخر مرة والمرة التي سبقتها ايضاً» .

فابتسم اوديلون بدهاء وابتعد عنه ثم قال :

«الأمــر سواء بالنسبــة اليّ . . افعلوا ما يحلو لكم . . لم أقـل شيئاً للآنسة راكوف في الواقع».

وقرر لودو عدم الذهاب للقاء ليز بعد الظهر. كان منهمكاً بالرسم في صالة اللعب حين جاءه اوديلون: «انتم هنا اذن . . سنذهب الى الغابة مع دودو . . هل تأتـون؟ . . » فغمغم لودو انـه سيلحق بهم حالاً الا انـه سرعـان ما استـدرك فجأة وقـال ان عليـه صنـع دمى عيـد الميلاد «في الكنيســة . . مع فين . . لقـد وعـدتهـا . . . » فانحنى اوديلون انحنـاءة الفرسان وابتسم ابتسامة عريضة ثم خرج.

ولم يبـارح لودو مكـانـه. شاهـد المتنزهين من النافذة وهم يبتعدون يتقـدمهم دودو وعنـدما شاهد سترة القزم الحمراء بين صفوف السائرين أحس بالقلق يكتسحـه. انتظـر دقـائق اخرى وهو يفكر ثم غامر بالتقدم داخـل الممـر. لم يكن هنـاك أحـد. كانت صالـة الطعام مقفرة وباب البهـو مقفلة بالمفتـاح وبدا القصر الريفي خالياً تماماً وانه قد احتجز فيه سهواً. نادى فين فلم يحصل على اي جواب. كان يعرف تمام المعرفة على أيـة حال انهـا كانت في الكنيسة في تلك الساعة، منشغلة بصنع الدمى. كان الباب الارضي تحت الدرج مسدوداً فرفع اللوح الخشبي وتأمـل الحفـرة السـوداء ثم هبـط. أحس بكثـافة السكون المخيم بين جدران القبــو. لم تكن تلك هي المــرة الاولى التي يشعـر فيهـا بتلك الـوحـدة المطلقة وهو في طريقه للقاء ليز، تلك الوحدة التي تغلق عليه ابواب العدم وهو يمر ثم تضيع كما يضيع الشهاب الزائل.

أحس بالبـاب تحت أصـابعه ففتحه وقلبه يخفق بشدة ثم مالبث ان تسمّر في مكانه على العتبة بفعل الخوف اذ شاهد في ظل النور الباهت

المتسلل من الكـوة رجـلاً واقفـاً ادار له ظهـره. كان يرتدي بزة عسكرية وجزمة وقبعة ويحمل سيفاً في يده وكان يستدير ببطء اليه. كانت عيناه بواقيـة الـوجـه وابتسـامـة ثابتة تشد ملامحه الجامدة. نزع الرجل قبعته بحركة استعراضية ثم رفع ذراعيه جانباً وراح يخلع قفازين ابيضين كان يرتـديهمـا، بحـركـة مسـرحيـة، اصبعـاً فاصبع، ليصفع بالقفـازين في نهـايـة الأمـر كفه العارية. تقدم الرجل ثم حدقت عينان داكنتـان الى عيني لودو وسحـرتـاه حتى سقـط السيف على الاوراق المبعثرة فأثار بصوت سقوطه رجفة سرت في جسده. وفي هذا المكان الضيق الذي يمكن لاثنين تبادل انفاسهما فيه، شاهد لودو وجهاً مطلياً بالاصباغ شديد الشحوب، وفماً متورداً يرتعش تحت شاربين مشذبين وكأنهمـا حاجبـان والاسنـان تبـرز صفراً بين الشفتين الحمراوين. كان مزيـج من رائحتي مبيـد العث ومـاء الكـولونيا ينبعث منه ثم مالبثت أن لمست إصبـع متيبسـة وجنتـه ليسمع لودو صوتاً هامساً: «ياله من صغير مسكين، لودو، انـه لايتحـدث أبـداً. . وهـو شديد التعاسة لانه يفتقد امه، ولانه يفتقد مداعبات امه. .»

ظل لودو مذهـولاً غيـر قادر على تقبـل الحقيقـة وعلى مطابقة صوت الآنسة راكوف الذي يتكلف الرقة وهيئة هذا الجندي القديم الملون كالمهرج.

واستأنفت وهي تنـزع ببـطء جزءاً من الشارب ثم الجزء الثاني الذي الصقته برفق على وجه لودو: «هذا صحيح، أمّك ليست لطيفة معك. ياحبيبي المسكين. . الـذي لايـدرك كم نحبـه في سان ـ پول. . انني حزينة عليك ياحبيبي. . حزينة جداً».

كانت تتحدث كما في الاحلام وهي تصدر صوت مواء وتهمس في اذنه بكل رقة وقد الصقت خدها بوجهه.

«أنا بمثابة أمك تقريباً هنا. . يمكنني ان امنحك كل ما تحتاج اليه من حب.

ـ هذا ليست صحيحاً!» صرخ وهو يدفعها بعنف بعيداً عنه حتى انها سقطت أرضاً بين الاوراق «لست امي. . أمي جميلة!. . لاأريدك ان تكوني أمي!. . .»

نهضت وقد تغيرت تعابير وجهها ثم قالت بصوت خفيض بانت في نبراته شحنة هستيرية:

ـ «وماذا تظن نفسك ايها الصغير المسكين المهووس! ماذا تعتقد نفسك أنت وأمك واعمالك الحقيرة!. . . .».

ضغطت على زر الضوء فغسل نور المصباح الساطع المنبعث من السقف الظلمات. وعندئذ صدرت منه حركة تراجع الى الوراء أمام هذه الفاجرة التي لونت وجهها وفتحت أزرار سترتها العسكرية حتى منطقة الصرة.

«اعلم ان اوديلون أخبرني بكل شيء!. . . ماذا تظن؟. . إنني هنا مصادفة؟. . انني كنت أتنزه؟. . لقد رآك في القبو عارياً تماماً بصحبة فتاة!. . أما الآن، فستخبرني من هي فتاتك!»

صرخت وهي تنطق بالكلمات الاخيرة فاختفت الدعة وتلاشت الابتسامة ولم يعد هناك سوى صوت يقطر ضغينة يصدر من الاحشاء.

«ان لم تعترف حالاً فسيدفعن الثمن جميعاً!. . وحينئذ ستعترف بقية الفتيات. . .»

فغمغم لودو:

- «كنت وحيداً . .

- او تريدني ان اصدق ذلك! . . أنا! . . العجوز! . . بل كنت عارياً بصحبة فتاة . »

فهمس :

- «هذا ليس صحيحاً . . . ».

مسحت عن وجهها الاصباغ بذراعها كما لوكانت تزيل وساخة وراحت تضحك ساخرة. ثم قالت واللعاب يتناثر من فمها :

«كم كان بودي لورأيت ذلك . . لاشك انك نسيت ان موافقتي على استقبالك هنا كانت مجرد فعل بر، نعم، بر، وكنت شديدة الطيبة معك! . . كان عليّ ان اكون حذرة مع أم مثل امك . . آه! هؤلاء المومسات، انهن ينجبن اولاداً رائعين . . يالهن من امهات رائعات هؤلاء المومسات! ».

ثم صرخت في وجهه :

«من الأفضل لك ان تخبرني بما كنتما تفعلانه هنا، كالكلبين، في القبو! . . هيا! . . قل . . لقد انتهيت في جميع الاحوال . . انتهيت . . انني اطردك! . . . »

فغمغم لودو الذي أخذ يشعر بالدوار بسبب كل هذه الانفعالات .

- «سأذهب الى بيتي .

- بيتك؟ . . ولكنك بلا بيت ايها الاحمق! . . . ستذهب الى مصح عقلي . نعم! الى المستشفى ! وقريباً جداً».

قال :

- «لن اذهب».

فتسمرت في مكانها:

- «لن تذهب؟

- ستأتي امي لأخذي.

- ولكنك مجنون بتفكيرك في امك!.. ان كان هناك شخص ما لن يأتي فهو أمك. ستعض على اصابعك ندماً! فهناك لن تجرؤ على الاتيان بمثل هذه الافعال الشائنة. هناك يوجد قميص المجانين لفاقدي العقل من امثالك! للأسف، ليس لديّ ما يكفي من الوقت كي ادبر أمر رحيلك قبل عيد الميلاد ولكن، إن قمت بأي عمل خبيث حتى ذلك الوقت فسأستعين بالشرطة كي..»

فقاطعها وقد فقد اعصابه بدوره:

- «بل ستأتي في عيد الميلاد!.. في عيد الميلاد!.. في عيد الميلاد!..» ثم خرج الى الممر وهو يترنح كالثمل.

وعندما بلغ اسفل السلم سمعها تنفجر ضاحكة فعاد كي يشاهد الآنسة راكوف تنزع السيف من غمده وترميه نحوه بقوة وكأنه رمح.

هرع الى حجرته وهو يردد بصوت مجنون: «في عيد الميلاد، ستأتي في عيد الميلاد، هذا أكيد!..» كان يرتجف. كانت امه في كل مكان، على الجدار وفوق السرير وعلى المنضدة وكان انعكاس صورتها يبرق كالوميض. انتزع ورقة من دفتر دروس التعليم المسيحي واخذ يخربش.

«أنا الآن كبير. اريد ان أعرف ماذا يحدث لي. قولي لي ماذا يحدث لي. لم تخبريني بأي شيء على الاطلاق. انت اخرجتني من

المخـزن ثم اخـرجتني من المنـزل وأخـرجت نانيت أيضـا ولم يأتي لرؤيتي هنـا قط. وهـذه المرأة تريد طردي الآن. انها تريد ارسالي الى دار المجـانين الحقيقيين. وأنـا لن اذهب. لست مجنونـاً حقيقياً. أنا ابنـك. لم تخبـريني اي شيء عن ابي وأنـا لاأعرف شيئاً. أريد العودة الى الـدغليـة. اريـد ان ابقى معـك. يجب ان تحضـري في عيد الـميـلاد، يجب ان تأتي لأخـذي. ان لم تأتي، ستـرسلني الى دار المجـانين. كل الآبـاء سيأتـون في ليلة عيـد الميـلاد وان لم تأتي فلن أملك بعـد الآن اي شيء، سأكـون وحيـداً تمـامـاً ان لم تأتي. حتى الاطفـال ليسـوا وحيـدين تمـامـاً. ستحضـرين في عيد الميلاد، هذا اكيد، وأنا اطلب عفوك ايضاً.

لودو.»

وأرسلت الـرسـالة في اليوم نفسه وبعثت الآنسة راكوف التي لم تعد تتحـدث الى لودو، دودو حامـلاً ورقـة كتبت عليهـا عنـوانه الجديد في مستشفى الامراض العقلية في فالمنياك. ذلك انه قد يرغب في ارساله بنفسه الى أهله.

امضى لودو الايـام التـاليـة وهـو في حالـة شديدة من الوهن. رفض التحـدث الى الاطفـال وأهمـل الـورش والجلسات الجماعية ولم يعد يظهـر الا عنـد مواعيـد تنـاول الطعـام كمـا لم يعـد يستجيب لنفخات الصفارة. لم تشعر الممرضة بالاستياء لتمرده المنفرد ذاك: ذلك انه لم يعد فرداً من أفراد خلية الاطفال وانه كان يعيش تلك الفترة المعلقة التي تسبق تنفيذ حكم بالأبعاد.

أبلغته فين انه تم تأجير سيارة اسعاف تابعة للمستشفى، ليوم الاثنين القادم، بعد عيد الميلاد مباشرة «يبدو أنك كنت مع فتاة.. كان عليك ان تخبرني كي أرتب لك الأمر. لسنا كلاباً.. كان بامكان دودو ان يرتب لك الأمر ايضاً..».

وراقب لودو بذعر انتشار زينة العيد؟ انه يمقت عيد الميلاد. راح يسترجع ذكرى اشجار عيد الميلاد المرمية على قارعة الطريق ويتساءل عن المصيبة التي تتربص به هذه المرة ايضاً. لم يعد اوديلون الذي كان يخشى انتقامه ينام في القصر بل أخذ بارومتره والتجأ خلال الليل الى حجرة تدفئة الورش وهو مكان حار شديد الضيق، وأخذ ينام بين المرجل والجدار وهو ينضح عرقاً. أما لودو فراح يصب انتقامه خلال الليل على جدران حجرته التي أخذ يبللها بالبول. كان يراه خلال النهار، ولكن من بعيد، كتلك الحيوانات التي تمتلك قدرة عزيزية كبيرة على التشخيص حتى ان أحداً لايجرؤ على الاقتراب منها.

ومنذ صباح ليلة عيد الميلاد أخذ مركز سان - پول يمجد المسيح من خلال جهاز اسطوانات وضع في المدخل. نشرت الشرائط الذهبية على جدران صالة الطعام وعلقت على شجرة عيد الميلاد كرات صغيرة مغلفة بدقيق فضي وذهبي ووضعت الدمى داخل المغارة وتدرب الاطفال، وقد اختلط الذكور منهم بالاناث، على الاناشيد التي سيلقونها في القداس تخليداً لخلاص البشر على يد المسيح.
وارتدى دودو ككل عام ملابس بابا نويل والصق لحية بيضاء على ذقنه وحملت فين حطبات عيد الميلاد والديكة الرومية التي طبختها سابقاً وامضى الاطفال النهار في حالة من نفاد صبر مشوب بالانبهار

بالاستعدادات الاخيرة.

أمـا لودو فراح يمشـط شرفة الآجر جيئة وذهاباً حول القصر الريفي.

وُصل جهاز البيانو المخصص للحفل بعد الظهر فوضعته الآنسة راكوف في الكنيسة التي تحولت، بفعل الظرف الراهن، الى مسرح مع منصة تحيط بها المقاعد. ولم يكن لودو قد شاهد في حياته جهاز بيانو ذا أوتار ومفـاتيـح صوت أفقيـة فانبهر بهذا الحيوان البحري الضخم ذي الجلد الاسـود البـراق الـذي كانت تتسمر عليه تموجات الضوء. وكان أجمل من الارغن.

وما أن شاهد صورة الفنانة ملصقة على الباب حتى شعر كما لو كان قد تلقى ضربة في قلبه اذ تعرف ذلك الشعر الطويل البراق الذي يحيط بوجه ذي عينين لوزيتين، وتعرف الى المرأة الشابة التي حملت بعض العزاء الى نفسه في أحد أيام الأحد.

وعنـدمـا حل المسـاء ارتـدى كل طفـل أجمل ملابسه التي كان قد هيأها منذ مساء اليوم السابق.

ووصـــل ذوو الأطفـال كلهم في وقت واحـد تقـريبـاً وكـانـوا حوالي عشرين شخصاً يرتدون ملابس يوم الأحد ويخفون بتباه طروداً غامضة وضعوها خفية في المكتب.

وقف لودو وحيداً، حليق الذقن، في الظلام، يضرب الأرض بقدميه لتدفئتهما قرب البوابة الخارجية، وراح يتطلع الى انوار السيارات بعيداً على الطريق، ثم شاهد، وهو ير تعش أملاً، أنوار وهم خائب تقترب. وبعـد أن وصـل المحتفلون فاجأته الآنسة راكوف بنبرة خبيثة «ألم تأت أمُّك بعد؟»

فصرخ لودو: «لن أذهب الى دار المجانين!

ـ بل ستذهب يابني ! . . ولكن عيداً سعيداً على أية حال» .

ولم يأت أحد. تابع لودو الاحتفال دون ان ينبس ببنت شفة وسار خلال القداس في طابور المتناولين وجدّف بصوت خفيض عند تناوله القربان. ثم توجه الجمع الى الحفلة الموسيقية. نظر لودو شزراً الى الآنسة راكوف وهي تقدم أعمال باخ وموزارت التي ستعزفها أليس تورناش ثم مالبث سحر العرض، ذلك الصمت وذلك البيانو المفتوح، أن فعل فعله في الحضور، وبدت الموسيقى وكأنها تنبعث نابضة بالحياة من ليله الداكن هو، كي تعزيه. تأمل الفّنانة لكنّه لم يرها. كان يسبح داخل نفسه والأضواء مطفأة كلّها، تحمله أمواج صوتية اختلطت بحنينه وبغربته فاسترجع الأيام واصغى الى انين جذوره واستعاد، دون تمييز، أقدم ما في ماضيه من ذكريات.

ولم يصفق في نهاية الحفل مثيراً بذلك استنكار الجالسين الى جواره ثم غادر مكانه وشعور متزايد بالتعاسة يكتسحه حتى ترقرقت الدموع في عينيه. وعندما مر تحت الافريز انتزع خلسة الصورة المعلقة ودسها تحت قميصه.

وعند الجلوس الى المائدة، تجنب النظر الى ليز ولو لمرة واحدة، كي لايثير الشبهات. ظن انه جائع لكنّه لم يأكل وعندما وجهوا اليه الحديث لم يجب. وانقضت فترة العشاء التي كانت مليئة بالحيوية في جو من صمت القبور بالنسبة اليه. كل الوجوه كانت وجوه موتى، وكل الضحكات والصيحات كانت تشيع حالة من البلادة تتقزز النفس منها.

وعند تقديم الحلويات نهض فجأة بعد ان طلبت منه الآنسة راكوف

ان يقطع حطبة عيد الميلاد وقال وهو يحدق الى السقف: «لـ ا أري د ال ذ هـ ا ب ال ى دار ا ل م ج ا ن ي ن . . » فسادت فترة صمت قصيرة جداً كانت كافية للاعراب عن الاستنكار فقط ثم مالبثت نظرات ذوي الاطفال المنزعجة ان اشاحت عنه، فاستؤنف ضجيج اللغط بقوة اكبر. وتقدم دودو الذي كان ما يزال متنكراً ليقود لودو الى حجرته بناء على إيعاز من الآنسة راكوف.

❀

امتد الليل الغافي بفعل المنومات امتداد البحيرة حول لودو. لقد نام المركز أخيراً وتوقفت احاديث بابا نويل المملة والمخمورة. نهض دون أن يحدث ضجة وارتدى بنطاليه واحداً فوق الآخر وحزم اغراضه القليلة داخل غطاء صوفي ربطه بحبل، ثم عقد الجورب الذي يحوي النقود حول خصره وارتدى بلوزته ثم خرج. كان باب الممر مقفلاً لكنّ دودو كان قد نسي المفتاح في الباب في هذه الليلة. لن يحتاج الى القزم اذن كي يهرب.

كانت صالة الطعام مشبعة برائحة التبغ والمغارة تتوهج بمصابيحها الصغيرة ذات النور الواهن كأنها مخيم يتحلق حول نار. وكان يمكن سماع صوت الريح وهي تزأر فوق الصنوبرات.

كانت تلك الليلة حالكة الظلام حتى ان الجدران تلاشت وبدت النوافذ كأنها تقف وحدها في العتمة. سار بين الموائد ووصل حيث الموقد فتعثر بعقبة لامرئية ثم أشعل عود ثقاب فبانت رزم مذهبة. وكانت تلك هي هدايا الاطفال. اشعل عود ثقاب آخر ثم ضحك. كانت الاحذية مصفوفة حول المغارة، عشرون حذاء جميلاً وكأنها

عشرون قارباً صغيراً ادارت مقدمتها نحو الريح داخل أحد الخلجان . وجال بالشعلة داخل المغارة . كان شكل الخراف خبيثاً . كل هذه الخراف المزيفة داخل حظيرتها المزيّفة حول مهد مزيف : التقط المهد الوردي الذي يضّم دمية مبتسمة مفتوحة الذراعين ثم دسه داخل أحد الأحذية . هكذا افضل . لن تكون للمسيح هذا المساء قيمة أكبر من قيمته هو.

سقط طرف عود الثقاب في القش فتكون الليل داخل الموقد من جديد ثم مالبثت أن ظهرت جذوة راحت تلتمع كالدودة وتصاعدت رائحة دخان . بدا النور الغائب عن الوعي وكأنه يسترد وعيه بهدوء . وفي خضم ذلك الظلام الهامد سرعان ما نبهت حزمة ضوئية حمراء اللون جميع الأشكال، وراحت الأشياء تتشتت تشتتاً كاملاً ثم شاهد لودو اللهب يغامر ويلعق أقدام الخراف المشتعلة . قال لنفسه سأطفئها لكنّه لم يفعل شيئاً . امتدت النار وتراقصت وتلّوت الورقة التي احترقت وهي تبعث أبخرة قوية وتقذف بكريات من اللهب بدت وكأنها أوراق نثار ملونة . قال في نفسه مبتهجاً ، فات الأوان ، سيحترق كل شيء ، ثم تأمل باعجاب سرعة انتشار النار التي كان انعكاسها على جدران المغارة يظهرها بحجم مضاعف وراحت ترمي نصالاً من الضياء نحو صالة الطعام وما تنفك تنتفخ .

صرّ بين أسنانه : «إنهم عصابة من الحساد» . ثم تراءت له الآنسة راكوف وامه وكل الآخرين وهم يستنشقون اللهب ويحترقون .

ابتعد نحو باب صالة الطعام على مضض وتأمل الحريق للمرة الأخيرة ، كان حريقه هو، ثم غاص في الظلام سعيداً وفخوراً بحفلة

عيد الميلاد التي نظمها لنفسه آخيرا.

. . . ارتجف بقـوة وهـو يتسلق البوابة الخارجية حتى انه اضطر الى الاستراحة قليلاً فوق البوابة مدلياً سافيه على الجانبين ثم مالبث ان ترك نفسه يسقط بعد ذلك في الجهة الثانية. لم يستطع رؤية شيء لكنّه كان حراً وكان الطريق مفتوحاً أمامه، مظلماً يمتد كالنفق.

❋ ❋ ❋

الجزء الثالث

الفصل الرابع عشر

سار لودو طوال الليل بخطوات متعثرة وقدماه تقودانه على غير هدى. لم يسبق له ان شعر بالبرد على الاطلاق الا انه كان يرتجف هذه المرة ويحاول نسيان امه عبثاً. انهمر الوفر بصمت ولم يكن يسمع غير صوت اهتزاز اجنحة خفية. بعث الظلام القلق في نفسه فظل يتلفت الى الوراء متخيلاً انه يسمع ضحكة القزم المختبىء خلف الاشجار او انه يرى القصر الريفي باكمله، باطفاله وبمغارته المحترقة وقد تحولوا الى غيلان راحت تعدو في اثره.

وصل الشارع الرئيس المغطى بالقار فتوغل فيه فترة ثم مالبث ان انحدر في اتجاه الغابة بكل حذر عندما لاحت انوار سيارة بعيدة في عمق الظلام. ثم سار عبر الغابة.

ومع بزوغ الفجر، بلغ قرية نائمة وشاهد بفضل انعكاس النور المنبعث من لوحة مضيئة فوق واجهة أحد المخازن، المنازل المحيطة به، فتوقف في مكانه. كان الثلج قد توقف عن التساقط فبدا صوت السكون الذي كان بلا رجع وكأنه كامن داخل الجدران التي راح الشفق، بالوانه المبعثرة، ينتزعها من قعر الظلمات. تردد وهلة أمام مقهى يحمل في مدخله علامة ثنائي القرن الأحمر الخاصة بمحلات بيع علب الدخان ثم دفع الباب وهو يحس بجوع شديد فوجد نفسه داخل قاعة يكاد

ينعدم الضوء فيها وشاهد ثلاثة رجال يجلسون الى المشرب وشيخاً فاغراً فاه وقد عقد يديه وبدا شارداً داخل مقعده. لم يسمع لودو أي ضجة ولم تلتقط أذناه أي كلمة الا أنّ أعيناً لامبالية ارتفعت ناظرة الى لودو.

وقال صاحب المحل الذي كان يقف خلف المشرب: «هل تشعر بالدفء الآن؟ أغلق الباب وستكون في حال افضل».

جلس لودو الى احدى المناضد وهو يوشك ان يصاب بالدوار، ثم انتبه الى اصابعه المتشققة كما لو أنّه اكتشف وجودها لتوه بعد أن نسيها أحد الزبائن هناك، قرب منفضة السجائر.

قال الرجل مشيراً الى رزمة الملابس: «أأنت عامل موسمي؟»

فأيّد لودو بحركة من ذقنه. كانت نيكول ترتدي نظارة سوداء، وكانت تبكي، وكان ذلك في زمن مضى في قهوة الشنال. ستكون في حاجة الى كأس من «المونبازياك» والى نظارة سوداء عندما سيبلغونها ان ابنها قد مات.

اقترب الرجل منه وكان له سالفان طويلان بلون الكستناء يمتدان على جانبي وجه طويل ودقيق.

«ولكن الموسم ليس موسم العمال... حسن، ماذا تشرب؟».

فغمغم لودو: «كأساً من«المونبازياك» وقطع خبز مطلية بالزبدة».

وتشمم كلب ضخم رخو الجسم قدميه ثم استلقى فوقهما باعثاً فيهما الدفء وكان الزبائن قد توقفوا عن النظر اليه. دقت ساعة جدارية ذات صوت مخنوق ثماني دقات ثم سمع صوت العقرب الكبير، يقفز متقدماً دقيقة واحدة. خفض لودو الذي كان مشتت الذهن رأسه وقد تملكه خوف من ان تبدر منه كلمة او تنم عنه حركة تكشف عن أنه مجنون وانه

منزل ولا أوراق في تلك القرية المجهولة. شعر فجأة بالحنين الى سان - بول والى جوه الآمن والى فين وليز والبراءة ثم أحس برغبة في طلب العفو من اي شخص كائناً من كان.

لمح عنـدئذ لوحة تحمل سهماً كتب عليها «المحيط ٦ كلم» فخفق قلبه. هاقد عثر على البحر من جديد، على اكثر ذكرياته سريّة، المختومة بختم لم يتمكن من كسره على الاطلاق ثم سار وقد اختلطت في رأسه أصوات الضحكات وتحولت المغارة المشتعلة الى هاجس.

تراءت له نيكـول عارية تحت بزتها العسكرية، تحمل في يدها سيفاً وتعـانق دودو في مخزن الغلال وشاهد القزم وهو يقهقه مرتدياً ثوباً ذا أذيال ممزقة والآنسة راكوف تدخل متنكرة في زي بابا نويل. ثم مالبث أحمر الشفاه ان اختلط بلهيب النار.

وظهرت سيارة على الطريق فاستلقى داخل ساقية جانبية. لابّد أنّ هنـاك أناساً يتربصون به في كل مكان ورجال شرطة وممرضين متهيئين للانقضاض عليه وزجّه داخل سيارة بيضاء كما لو مجنوناً حقيقياً. اقسم وهـو يحس كما لو ان كرة من القلق تثقل على معدته، انه لن يدعهم يتمكنون منه أبداً. سيختبىء وسيتوارى عن الانظار حتى يعتقدون أن البرد قد قتله وعندها سيتصل رجال الجندرمة بأمّه ليقولوا لها: لقد مات الطفل... آه! كم يتمنى رؤيتها لحظة إبلاغها بالخبر. وأخيراً، انحرف عن الطريق العام وسار عبر الحقول المغطاة بالصقيع حتى الغابة.

كانت قطرات متجمـدة من الماء تنتشر على جذوع الاشجار السود وكأنها دموع شمعة وبعث السكون والعتمة الفضية الطمأنينة في نفس لودو الذي بلغته نسائم الاطلسي على هيأة انسام هادئة عليلة وكانت إبر

أشجار الصنوبر المغلفة بالجمد تطقطق تحت خطواته. أحس بالدوار بسبب الكحول وتساءل عما اذا كانت الاحذية قد احترقت هي الاخرى كما احترقت الخراف وعما اذا سار الاطفال اليوم، يوم عيد الميلاد، بالجوارب فقط، وعما اذا كانوا قد فتحوا رزم لعبهم المتفحمة أو انهم راحوا يصنعون كرات ثلجية من الرماد.

لم يكن ينوي الحاق الاذى بالاطفال ولا إحراق المغارة لكنّ عود الثقاب سقط وحده، كما تسقط قطرات الماء أو فتات الخبز ثم ما لبث اللهب أن تكون على الرغم منه.

ولكن لا! . . . لقد تعمد إشعال النار. إنَّه يتذكر ذلك جيداً الآن. لم يسقط عود الثقاب سهواً بل مال، بلونه الأسود، وبسنه الأحمر الصغير نحو باطن يده فباعد بين أصابعه كي لايحترق الا انه فعل ذلك فوق القش تماماً ثم وضع الجذوة بكل هدوء وسط الخراف دون أن يطفئها وكله أمل في ان يمحو كل شيء.

ولكن لا، لم يكن ذلك صحيحاً، فقد اشتعلت النار على الرغم منه.

ربما احترق القصر الريفي هو الآخر ايضاً! . . ربما لم يعد لاطفال مركز سان ـ پول او لمركز سان ـ پول نفسه أو للآنسة راكوف او لأي شيء آخر من وجود! ربما انه هو نفسه لم يوجد في هذه الحياة على الاطلاق!

وصل داخل الغابة الى درب كانت جذوع الاشجار المحيطة به منخورة، فتوغل فيه.

كم يتمنى لو ان النار التهمت اوديلون داخل المغارة مع بارومتره وسترته الحمراء. لقد بحث عنه في كل مكان، داخل القبو وفي غرفة الطبابة وفي جميع الغرف الاخرى وحتى في اقصى مكان في الحديقة،

بحث عنـه دون سابق تصميم على الانتقام او رغبة فيه بل فعل ذلك فطرياً، الا انه كان سيقتله حتماً لو انه عثر عليه.

دلل همس المحيط في البداية على انه كان قريباً منه. وكان الهمس قوياً وواطئـاً رددتـه الارض كالهـزة ثم مالبث ألق الصبـاح ان القى بنوره فالتمعت السماء بين جذوع الاشجار..

خرج من الغابة كي يجد نفسه داخل بحيرة من الرمال نمت في اماكن متفرقة منها اعشاب طويلة ذات لون وردي باهت ثم شاهد أمامه تلة جرداء قليلة الانحدار كانت الامواج المضطربة تكيل لها اللكمات.

عدا لاهثـاً حتى بلغ قمة التلة فوجد في انتظاره هناك منظر البحر الممتـد بكـل جبروتـه. كان النهار متألقاً والبحر الهادىء هدوء السماء يعكس الضياء وكانت أمواج صغيرة أحاط بها الزبد كأنه الريش تتكسر على الشاطىء. وكانت هناك ايضاً سفينة في الافق. القى رزمة الملابس على الارض وخلع حذاءه ثم جلس. اسكره عطر الراتنج ورائحة اليود فالتفت كي يرى المحيط الآخـر، غابة الصنوبر التي كانت تمتد على مدى النظر، ولا سفينة في الافق تمخر عبابها. كان الشاطىء طويلاً جداً ومقفـراً تماماً يمتد على الجانبين ويتلاشى تدريجياً داخل ضباب أزرق. وكان السكون المنتشر في كل مكان طاغياً جباراً اكتسب ايقاع ارتداد الامواج المخنوق، والسماء بغيومها الرمادية بلون اللؤلؤ تبعث بريقاً ينبىء بعاصفة وشيكة. شاهد لودو في جهة الجنوب نواة زوبعة تتصاعد نحو السماء وتنث مطراً سرعان ما حجب الافق عن الانظار. في حين امتد البحر في جهة الغرب بكل حرية وبدت الريح كأنها تشحذ اسنان ذلك الخضم.

كان الجـو عذباً. إنها أول مرة يأتي فيها الى هذا المكان لكنّه شعر بشعور من يعود الى موطنه الأصلي. فالمحيط هو المحيط نفسه والشمس هي الشمس عينها، وذلك الامتداد الفارغ هو نفسه. وكان الرصيف العائم هو الوحيد الذي ينقص المكان. انتبه لودو الى وجود برج مراقبة من الصفيح ملقى على سفح التلة الى يساره وكأنه لعبة محطمة كان أحد الجبابرة يلهو بها ذات يوم، فنهض كي يتفحصه. كان الرمل قد غزا ذلك المعقل فسد جميع المنافذ. شاهد لودو بقايا حديد متآكل في مسند رشاشة ثم جلس فوق البرج كما لو كان يجلس على كرسي. وما لبث أن أطلق صرخة انبهار. لقد لمح مركباً على الساحل، تحت قدميه مباشرة، وكانت سفينة شحن جانحة، اسود لونها وكالت لها الامواج اللطمات، مقدمتها في اتجاه الساحل ومؤخرتها في اتجاه البحر.

التقط حاجياته ثم انحدر مترنحاً حتى الساحل الرملي. لم يستطع الجري إذ وجد صعوبة في التنفس كما ان السفينة بدت أبعد بكثير مما اعتقد في البداية وقد غاصت داخل بركة واسعة شفافة ضحلة المياه كانت نهـايات الأمواج المتكسرة تأتي لتموت فيها. خوّض لودو في الماء حتى ربلتي ساقيه كي يقـترب منهـا لكنّه سرعان ما اضطر الى التخلي عن مشروعـه في الوصول الى مؤخرة السفينة لان البركة كانت تتوغل شيئاً فشيئاً داخل البحر، هناك، حيث يمكن ان يجابه خطر الموت غرقاً، ناهيك عن ان مقدمة السفينة ما تزال بعيدة وصوت تلاطم الامواج يضج فيها. وبين اندفاع موجة واخرى كان جزء من مروحة السفينة يظهر للعيان.

عاد أدراجه الى الرمال الجافة. لم ير في حياته مركباً بهذا الحجم. لابد

ان طوله يبلغ خمسين متراً في الاقل. وبدا المركب عن كثب في حالة سيئـة، مجرد حطام اكتسحه الصدأ اشبه ما يكون بأبي هول معدني قديم خرب ما تزال بقايا من طلاء أزرق ظاهرة في أماكن متفرقة منه وقد حفر فيها التآكل نقوشاً. كان خط العوم الأصلي قد اختفى مخلياً مكانه لخطوط خضر رسمتها بدقة مياه المد المتتالية على هيكل السفينة واحداً فوق الآخر. وكانت سلسلة السفينة تتدلى من فتحة المرساة وكأنها شخير معدني طويل أسود كان اي عصف يجعلها تتحرك وتطقطق. وتمكن لودو من قراءة اسم ممحـو تقـريبـاً. سانـاغا. وكان صوت خرير مياه وأصوات ضجيج أخرى أشد انخفاضاً تسكن الحديد التالف وماء كماء المرشة ينبثق منه. لم تكن السفينة في الحقيقة اكثر من مصفاة. وبعث هذا الاكتشاف الراحة في نفس لودو كما لو انه وجد تشابهاً بينه وبين المركب.

استطاع لودو أخيراً أن يخوض في المياه المحيطة بالسفينة في فترة الجزر فسار فيها وقدماه تلامسان القعر. كان الجزء الخلفي من السفينة مليئاً بالأشنات التي كانت تنضح ماءً. دمدم وهو يتلمس المروحة، مبهوراً بهـذا الكنز الذي تكسوه الطحالب: «أنت ملكي». وكان هناك جزء مفقود من الهيكل المعدني، ثقب على ارتفاع قامة رجل، لابدّ أنّه كان من فعل اللصوص. رمى حقيبته داخل المركب ثم تسلّق. كان نور قاتم يضيء داخـل السفينة حيث شاهد محركاً غمرت المياه ثلاثة أرباعه، وكانت رائحة الهواء عفنة. وجد لودو أنَّ هناك قدراً كافياً من الضوء كي يتقـدم فتسلق سلماً وهـو يتلمس المكـان بيديه حتى وصل قاعة طعام مظلمة تحوي مناضد سمرت في أرضية المركب. وفتح في نهاية القاعة باباً قاده الى مقصورة اخضرت بسبب الاشنات وشاهد المحيط عبر نافذة

صغيرة غطت الاوساخ زجاجها. خيل اليه انه يعود الى مخزن الغلال فأخذ يستنشق بحنين رائحة الرطوبة والأبخرة العفنة المنبعثة من الاشياء التي تقطر ماءً: المرآة المسودة والمقلاة والطست، تلك المجموعة البسيطة من الأدوات التي عدّها لودو كنوزاً وعندما احس بالارهاق يتفجر في جفنيه ارتمى على السرير فطوحت به الافكار وشاهد صخوراً ضخمة خرساء تتدحرج في اتجاهه سرعان ما أدرك انها كانت وجوهاً ثم مالبث النوم أن سحقه.

* * *

الفصل الخامس عشر

ظل لودو مستلقياً عدة أيام داخل حطام السفينة دون أن يشعر ببرد أو بجوع وكان قد أخرج غطاءه الصوفي لكنّه لم يستخدمه. كان البحر يرتفع وينخفض ويغسل عنابر السفينة فيشعر لودو ان البحر يغرق فيه كي يبتلع حياته الماضية. شاهد آلاف المرايا المربعة أو المدورة تتراقص كالشموس أمام عينيه وتتأرجح ثم تغرق في العتمة كي تنبثق حمراً مرة أخرى. وكانت تضيء كلها الكف السوداء عينها التي كانت تتقدم كي تقتل.

كان لودو يسمع صوت صفير يصدر من بعيد، من عرض البحر، حتى ان المرء ليتصور أن كلباً كان يعوي.

قضم آلياً قطع البسكت التي زوده بها ميشو خلال زياراته مركز سان - بول وابتلع حبوب الفاليوم التي أخفاها طوال أشهر وكأنه يبتلع قطعاً من الحلوى وردد ببلاهة أنّه قد عثر على سفينة جميلة وأن الوقت قد حان كي يستكشف لقيته لكنّه لم يغادر مكانه. ردّد أيضاً «السلام عليك يامريم» لمجرد حاجته الى التفوه ببعض الكلمات.

لم يعد يشعر بالقلق إزاء المستقبل، فهذه السفينة، السانَاغا، ستكون بمثابة داره. تخيل نفسه وهو يدفع الحطام نحو المياه العميقة ويقوده

بنفسه الى بيهاك ويلقي المرساة تحت قهوة الشنال، هناك، حيث قد تشاهده أمّه. ستقف على الرصيف وسيدعها تبكي وتتوسل إليه وتناديه لكنه لن يسمع صوتها ستصرخ طالبةً المغفرة دون جدوى لكنّه لن يتراجع عن موقفه القاسي ثم سيرحل دون ان يراها.

كان يستيقظ خلال الليل منزعجاً بسبب هجوم الامواج الصاخبة على خلفية السفينة دون ان يدرك اين هو. شاهد القصر الريفي على الساحل والسفينة الجانحة تقف على شرفة الآجر بين اشجار الصنوبر والمحيط يحترق والقزم يثب عليه وسيارات بيضاً طويلة تطوق الحطام: لقد عثروا على المجنون.

وبعد ظهر أحد الأيام أحس بدغدغة في منطقة البطن ففتح ازرار قميصه ليظهر من تحته سرطان بحري اخضر اللون كان يمشي على جسمه. التقت عيناه وعينا الحيوان الصغير الذي شهر سلاحه وكان عبارة عن كلابة واحدة. دس لودو ابهامه تحتها فنفر الدم ثم حمل الحيوان الى فمه وقضمه حياً.

وبعد انقضاء اسبوع دفعه الجوع الى النهوض والوقوف على قدميه اذ لم يتبق لديه ما يأكل كما انه لم يشرب شيئاً منذ عيد الميلاد.

ذكرته الفوضى السائدة في جميع أنحاء السفينة بمخزن الغلال. شاهد فرناً في المطبخ وعلبة غير مفتوحة تحوي سائلاً لغسل الصحون وكانت الدفة في حجرة القيادة المجاورة ما تزال ثابتة على وضعها الأول وجهاز ضبط الاتجاه ملتصقاً بالحاجز الذي طرزت فيه الرطوبة نقوشاً. ورأى أيضاً اجهزة كهربائية قاءت أحشاءها وكان يمكن مشاهدة الساحل الرملي من خلال نوافذ صغيرة انتشرت عليها بقع ملحية.

خرج لودو مترنحاً الى سطح المركب الذي تكلس بسبب ذراق الطيور ومال قليلاً الى جهة اليمين وكانت الشمس مشرقة. شاهد حزماً من حبال القنّب في حالة تحلل وجداول ماء تلتمع على امتداد السطح فانحنى لودو كي يلعق الماء. وكان هناك أيضاً زورق إنقاذ مقلوب نزعت عنه حباله يقبع تحت غطاء ممزق، وقناني غاز قرب الحاجز. وكان يجب تسلق سلّم حديدي من أجل الوصول الى الجزء الأمامي من سطح السفينة. وخلال ذلك، لابد للمرء من أن يدهس في سيره بعض القواقع المكسورة. رأى فردة قفاز عمل يعلوها الشحم مرمية على الصفيح حيث يشاهد المرء حلقات سلسلة معدنية تذرف دموعاً خضراً. وكان سلك مقطوع يتأرجح بفعل الرياح فوق السطح ويصدر صريراً. وكان البحر واشجار الصنوبر هي التي تهيمن على المنطقة المحيطة بكل ذلك.

لن يأتي الممرضون ولن تأتي الآنسة راكوف أبداً لاخراجه من قصر الصدأ هذا. لن يعثروا عليه أبداً. هبط الى حجرة المكائن حيث كان صوت تلاطم الامواج يتردد باعثاً صدى مخنوقاً. فتح الخزائن فشاهد بزات الوقادين داخلها ما تزال محتفظة بآثار حركات بشرية ثم شاهد وهو يتجه نحو باب الخروج لوحة سوداء ما تزال تحمل اسماء افراد آخر نوبة خفارة في منتصف ليلة ٦ حزيران ١٩٦٠، مثل عبد الـ. . وغيزيم.

إنحسر المد فراحت الأمواج تتكسر بعيداً خلف الدفة. قفز لودو الى الساحل واجتاز البركة المحيطة بالحطام فوصل الماء الى منتصف ساقيه. سرت رعشة في الرمل الابيض الشبيه بالدقيق وحلقت طيور بوم خرساء وعندما وصل حيث برج الرصد استدار كي يتأكد من أن حلمه إنما كان حقيقة. وشاهد الساناغا هناك، ثابتة في مكانها. نظر لودو الى آثار قدميه

التي سيمحـوهـا المدّ الصاعد بعد قليل فبعثت هذه الفكرة الحزن في نفسه. قريباً، سيجد الوسيلة كي يُعلم الجميع أنه إنّما يقيم هنا، داخل بيته.

وسمع خلال سيره في الدرب الذي يقطع الغابة صوت الصفير الذي كان يقلقه في أثناء الليل.

سار ساعـة حتى وصـل القـرية فقـرأ على علامة مثبتة في الأرض «لوفورج» وكان الوقت منتصف النهار على الارجح. لكنّ البيوت كانت ما تزال غافية ونوافذها مغلقة وكانت أشعة الشمس الطباشيرية تجعل السكون قاسياً. تقدم لودو في الشارع المقفر وهو يشعر بشعور يكتم عليه أنفاسه، انه انما يسير في مكان مهجور. لكنّه مالبث أن عثر على الساحة الصغيرة وعلى الكنيسة وعلى المقهى الذي توقف عنده في يومه الأول. وعندما انفتح الباب انبعث صوت رنين جرس دراجة هوائية. كان الرجل العجوز ما يزال في مقعده الى يسار المدخل بين رؤوس الأيائل والكؤوس الـرياضية ولم يكن هنـاك اي زبون في المقهى في حين كان الرجل ذو السالفين يلعب بجهاز الفليبرز. «سأحضر حالاً». قال الرجل بصوت أجش.

الا انه لم يحضر الا بعد انقضاء خمس دقائق كاملة وكان الانزعاج بادياً على وجهه.

قال الرجل في شيء من الحزن: «كانت جميع مصابيح المكافآت في جهـاز الفليبرز مضيئـة، جميعهـا!... لو لم تحضر لسجلت رقمي القياسي ولحصلت على ثلاث كرات مجانية.. لابأس على أية حال!.. حسنٌ، ماذا تريد؟» فقال لودو: «خبزاً وفطائر محشوّة.

ـ اذهب الى محل البقالة المجاور ايها الشاب. زوجتي هي التي تديره. لست في حاجة الى الخروج، انه المحل نفسه. ما عليك سوى المرور من هنا».

وتبعه لودو فوق بساط صنع من خيوط مختلفة الالوان ليجد نفسه داخل مخزن لايكاد المرء يستطيع التحرك داخله بسبب اكتظاظه بالبضائع والادوات المنزلية.

وصاح الرجل بأعلى صوته «مونيك!» ثم قال للودو:

«ستحضر حالاً. أراهن انها تنام القيلولة. هي التي تدير محل البقالة والادوات المنزلية وأنا أدير المقهى وأقص الشعر أيضاً. ولكن وكما يقال «باب النجار مخلوع» اذ لايوجد أحد في الجوار يحلق لي رأسي».

وظهرت امرأة وخط الشيب رأسها ابتسمت للودو كما لو كانت تبتسم لزبون تعرفه منذ زمن بعيد وبدت اكبر من زوجها بعشرين عاماً.

ـ « أراهن أنك كنت تنامين القيلولة!.. لديك زبون يريد فطائر محشوّة. إنه عامل موسمي».

فقالت البائعة بنبرة لطيفة:

«من المؤكد أنّ محلنا لايخلو من الفطائر. ماذا تريد؟....»

«وسُمع حينها رنين جرس الدراجة في المحل المجاور فقال الرجل بانزعاج وهو يتوارى عن الانظار:

«آه! من المؤكد أنهم لن يدعوني استريح هذا اليوم أيضاً!»

غادر لودو المحل حاملاً معه طعاماً وعلب ثقاب ومرآة جيب وكيس فحم. وقد ضحكت المرأة عندما فتح أمامها عقدة جوربه كي يخرج لها المبلغ «جئت مبكراً جداً بالنسبة الى العمال الموسميين. لابد أنك لاتملك

الكثير من المال. . » ورفض لودو عرض الشراء بالأجل الذي قدمته له بسبب جهله معنى الكلمة.

عند خروجه من القرية التقى امرأة صغيرة الحجم متّشحة بالسواد استدار كي ينظر اليها بعد مرورها به تماماً فشاهدها تقف وسط الشارع وتنظر إليه هي الاخرى. سار مائة متر اخرى ثم استدار من جديد لكنّها لم تتحرك. وعندما بلغ اطراف الغابة قال لنفسه انها ربما كانت تتعقبه الا ان الحقول التي اصطبغت باللون البرتقالي بسبب مغيب الشمس كانت مقفرة.

كانت بعض البقع الشمسية تتسلل عبر الغابة والجو يزداد برودة فحث الخطى محاولاً تجنب لقاء ذاكرته وامه عن طريق احصاء ما كان يشعر به: ألم في القدمين، البرد، الصمت، الرطوبة والتعب والنعاس. وعندما بلغ الفسحة الرملية شاهد لوحة مثبتة على جذع شجرة صنوبر «ساحل خطر، ممنوع السباحة». تفحص الأفق بدقة ولكن، دون جدوى اذ لم يجد فيه ما يبعث على القلق.

كان نور ضعيف يبعث النعاس في الشاطىء الرملي الذي ضاق بسبب ارتفاع المد. لم يكن هناك أي أثر للريح وكانت الشمس الحمراء تغيب عند طرف السماء المخملية في جهة الغرب ولم يكن المحيط سوى كتلة جامدة ملتمعة بدت كالدهان الزيتي. وكانت الساناغا تبدو هناك كأنها قدت من الذهب الخالص.

تقدم لودو نحو الساحل ثم تسمّر في مكانه مذعوراً اذ كانت الرمال الباردة تحمل آثار جزمة ضخمة مشابهة لآثار جزمته تتوجه نحو المركب. أحس بعداء وبتعاسة العالم كله يسحقانه من جديد. هذه الجزم! نيكول

تنتعل جزمة والآنسة راكوف تنتعل جزمة وتاتاف واوديلون، وكل الذكريات السيئة تحتذي جزماً وكأنها الغيلان جاءت تدنس عرينه في غيابه كي تبحث عنه وكي تأسره.

لعن الكون من بين أسنانه وشد قبضتيه وهو يرتعد خوفاً أمام هذه السفينة التي تحيط المياه بها متخيلاً ان الدخيل ما يزال داخلها وراح يتساءل عن الوسيلة العجيبة التي استخدمها للوصول اليها مع أن المد كان عالياً. لم يشأ الهرب قبل التأكد من حقيقة الأمر وقبل التيقن بأنهم يسعون وراءه حقاً. ربما كان واحداً من المتسكعين من امثاله... فمن بامكانه ان يعرف انه هناك؟

خيم الليل ملقياً بعتمته شيئاً فشيئاً على السماء وعلى الماء وكان الصفير المتباكي ما يزال يتردد في عرض البحر متوقفاً مرة ومستأنفاً نواحه مرة أخرى الى مالا نهاية. انشق الظلام كله فجأة عندما انهارت في الأفق البعيد موجة بعيدة منعزلة نشرت على الافق لوناً ابيض داكناً ثم اختفت.

وثب لودو وهو يرتجف لانه لم يعد يرى شيئاً الا ان السكون مالبث ان خيم من جديد. كان في حالة شديدة من الذهول حتى انه لم يتمكن من مشاهدة زورق صغير وهو ينفصل عن السفينة ويبتعد عنها متجهاً نحو الشاطىء بقوة المجداف.

قال له رجل وهو يقفز فوق الرمال: «ماذا تفعل هنا؟» فاطلق لودو صرخة ثم ابتعد. الا انه مالبث ان اجاب:

«وانت؟»

سحب الرجل القارب الى اليابسة ثم اقترب منه. كان قصيراً ربع القامة ذا رأس ضخم مستدير أصلع لايعثر فيه المرء على شعرة واحدة.

واستأنف الرجل بنبرة شرسة: «ليس لديك ما تفعله هنا. هذا المكان لي. . انه بيتي. . وبالمناسبة كم عمرك؟

ـ ستة عشر عاماً.

ـ لااريد رؤيتك بعد الآن. هل فهمت؟. . رأيتك حين وصلت. الخبثاء الصغار من امثالك لايخيفونني. حطام السفينة لي وأنا لااريد رؤية أحد هنا. من اين اتيت؟. .

ـ لاادري.

ـ ان لم تغادر المكان غداً طردتك بنفسي، ولاحاجة بك الى ان تنظر اليّ بهذه الطريقة».

قلب الرجل القارب ثم حمله على ظهره دون عناء وقال:

«وما الذي يدفعك الى النوم هناك. . لم أر شيئاً مثل هذا في حياتي. انها كومة من الصدأ، مجرد قمامة، وسيقطعها الحدادون قبل نهاية. . »

وقطعت موجة انبعثت من قلب الظلام حديثه ثم استأنف بوجه منقبض وهو يقف في مواجهة البحر: «ياالهي!. . صحة هذا الفتى من حديد!. . . » ثم توجه مبتعداً نحو الغابة.

وعندما تراجع المد وحرر الطريق الى المركب صعد لودو الى ظهر السفينة. حاول ان يشعل مصباحاً نفطياً وهو يتخبط في الظلام لكنّ الفتيلة لم تشتعل. استلقى أرضاً والعتمة تحيط به وقد نسي جوعه. لن يعود الى سان ـ پول. لن يذهب الى دار المجانين أبداً. سيبقى هنا رغم التهديدات فهو لايؤذي أحداً. وسرعان ما غلبه النعاس. شاهد ليز تخلع ملابسها خلف نافذة حمراء وتخيل حفلاً موسيقياً يقام له وحده داخل هذا الحطام حيث يفقد الكون توازنه. رأى أمه تجلس الى البيانو

حيناً ورأى نفسه وهو يعزف أمام جمهور من النساء المبهورات حيناً آخر. وكـان يحلم. وفي الطريق الذي يخترق الغابة ظهر الرجل السائر ذو الخطوات الرشيقة. عدا خلفه فتمكن من اللحاق به. استدار الرجل وضحكة ترتسم على شفتيه لأنّ لودو شاهد نفسه. كان الرجل لودو وكان لودو هو الذي كان يتعقبه لودو ويهرب منه منذ سنوات طوال.

أيقـظه السكون عند منتصف الليل تقريباً، وكان سكوناً مسكوناً، كثيفـاً، راحت الأصـوات تتبلور فيه كالقـطرات. هبط مرة ثانية الى الساحل فداهمه الضجيج الخافت لذلك الخضم الذي لم يكن مرتفعاً. شاهـد ناراً صغـيرة حمـراء تتراقص على مسـافـة قليلة من الشاطىء واستنشق نسيم الليل الذي كان بلون العاج وأصغى الى همس النجوم التي أزهرت باسترخاء في عمق الظلاء وحدق الى هذا المزيج اللامتناهي من الأنوار ومن الظلال الذي ايقظ في نفسه رغبته القديمة في الهيمان، فانطلق يسير.

***

الفصل السادس عشر

مر عليه شهر وهو في الساناغا. شعر بنسيان يغسل الآثام لم يشعر بمثله منذ أن كان في مرقبه في مخزن الغلال وراح ينظر في مرآته الصغيرة إلى اولى الشعرات البيض تتسلل حتى إلى لحيته ويرى نفسه شيخاً. كان هناك تشابه بين السفينة وبينه خلق رابطة غريبة بينهما. لقد هزل وبرزت عظامه وتخدد وجهه بتجاعيد دقيقة وأحاطت هالة من السواد بعينيه الا ان كلّ ما خسره على صعيد هيئته الخارجية زاد من شدة اللون الاخضر في عينيه ومن ضياعهما.

اعتاد مد البحر وجزره اللذين كانا يخترقان الحطام كما تخترق الأنفاس جسماً ما ويسيلان عبر المناخر الكثيرة التي كانت مساميرها المقلوعة والمغلقة ترتطم بالجوانب. وكان صوت أنين معدني عابر هو الوحيد الذي ينبه الى أنّ حلماً قصيراً ما يزال مستمراً في داخله.

ظن لودو انه قد نسي امه الا انه راح يمضي الليالي بصحبتها تحت براثن نوم ممض سرعان ما كان يتحول الى شكل من اشكال فقدان الذاكرة مع تباشير الفجر الاولى. وكان الهاجس العابر نفسه يثقل على استيقاظه كل صباح: هاقد جاؤوا كي يقتادوه معهم. لم يصدروا أيّ ضجة، خدروه ثم اعادوه الى سان ـ پول وراحوا يقنعونه يوماً بعد آخر

انه لم يفر من المركز قطّ وان لا وجود لاللساناغا ولا للبيانو أو للدغلية كما ليس هناك من وجود لأي شخص كان وانه انما كان تحت تأثير غيبوبة طويلة وانه قد شفي الآن.

كان أمر عثورهم على السفينة هو عدوه اللدود. كم سيكون عددهم بسياراتهم البيض وبلعناتهم؟ من منهم سيبتسم له اولاً ويقول: «هذا من أجل مصلحتك يالودو»؟.. وحينها سيلتقط قاذفة الصواريخ وسيضمها الى صدره حتى يشعر بالألم ثم سيوجهها نحو الشبح اللامبالي: ربما، ربما سأجن فعلاً ان رأيتهم أمامي.

كان الساحل مقفراً تماماً خلال النهار. ولم يكن للودو من رفيق، سواء أكان الوقت وقت جزر أم مد، غير حركة البحر وطيور البوم. حتى ذلك الرجل الذي هدده بعنف في ذلك اليوم لم يعد الى الظهور من جديد.

وشاهد ذات مرة فرساناً يتقدمون من بعيد تحيط بهم سحابة من الرمال فتوارى عن الانظار. كانوا اربعة من رجال شرطة السواحل حاولوا الاقتراب من السفينة الا ان جيادهم نفرت من الأمواج فابتعدوا جنباً.

عثر على عدد من الكنوز على ظهر السفينة: مطفأة حريق وجزم وسُروة ممزقة وأغطية مائدة تحمل الحرفين ب، أ وقنينة من شراب الروم وصندوق وجد داخله مسدساً من الصفر لاطلاق القذائف.

وعثر ايضاً على ستر قديمة للنجاة زودت بطوف يسمح للسابحين بالذهاب والاياب بين السفينة المحطمة والساحل الرملي في اي وقت.

وكاد يموت يوم دشنه اذ لم يتوخ ما يكفي من الحذر فابتعد عن الساحل حتى سحبه الجزر فجأة نحو أعماق لامرئية راحت تدفع نحو الاعلى امواجاً صاخبة سرعان ما اعلنت عنها اشارة تحذير السفن العائمة التي

كانت تصدر صوتاً وتعلو ثم تسقط في البحر تحت تأثير الامواج العنيفة حتى انقذت تلك اللحظة الربانية التي ارتفع فيها المد حياته. وأخيراً عرف مصدر الصوت الذي كان يوقظه في الليل عندما يكون الجو جميلاً.

استخدم الروم في اشعال قطع الفحم كي يشغل مدفأته الفحمية لكنّه اضطر أخيراً الى الاستغناء عن التدفئة بعد أن نفد وقوده في بحر اسبوع واحد الا انه استمر في المقابل باستخدام المصابيح الزيتية والفرن الغازي.

اعتمد في غذائه على صيد السمك باستخدام مسمار معقوف كالصنارة علق في طرفه خيطاً مغمساً في شحم الخنزير واصطاد به اسماكاً ذات رؤوس شيطانية والوان تشبه الوان الصخور كان يهوى رؤيتها وهي تتعذب. واصطاد في أحد الأيام بومة كانت قد غاصت في الماء لحظة رمى الخيط فابتلعت المسمار وحاولت التحليق من جديد الا ان لودو سحبها الى ظهر السفينة كما لو كان يسحب طائرة ورقية ثم تصارع مع الطائر الذي حارب عن طريق توجيه ضربات بمنقاره وبجناحيه وهو يتقيأ سرطانات صغيرة وبراغيث بحرية مدماة كان قد التقطها من الساحل. حمّر البومة داخل اوعية من المحار جمعها من القعر تحت الحطام ونام وهو يشعر بفخر وبسعادة رجل برجوازي قضى وقتاً ممتعاً في احتساء الشراب وتناول الطعام.

كان يأخذه الحماس في بعض الأيام بعيداً فيعمد الى جلي باطن السفينة وتنظيف جثته الحديدية كما لو كان قادراً على اعادة الحياة اليها من جديد. ورسم لوحته الابدية على جدران مطعم الضباط الذي راح

يتوارى شيئاً فشيئاً خلف الكف. ولكن، كان يحدث أحياناً أن يستيقظ وهو يشعر بالتعب وبالوهن ويقلق مميت ويتمزق بسبب تلك الصرخة التي تهيم في أعصابه منذ أن بلغ سن الاحساس بالألم والتي لم يتمكن من ان يجد لها متنفساً. فكان عندئذ ينتقل من مقصورة الى اخرى، ويهيم على وجهه ثم ينتهي الى التمرغ على الارض والى عدم انتظار اي شيء.

وفي قرية لوفورج بدا ان البقالة وزوجها قد وجدا فيه رفيقاً. لم يكونا متزوجين في الواقع. كان اسمه برنار وهي ماري لويز الا انه لم يكن يناديها بغير اسم «كاديه روسيل». اخبرهما لودو بأنه يسكن الدغلية وهي دار خاصة تقع خارج القرية لكنّهما لم يستاءا من الكذبة. وعندما لاحظا أنه كان بلا مورد رزق استخدماه في ترتيب سلال القصب والقناني في الباحة وكانا يعطيانه مقابل ذلك بعض الأطعمة. الا ان لودو لم يكن يذهب الى القرية الا نادراً خشية لفت الانتباه اليه. ورغم أن قرية لوفورج كانت تبدو خالية تماماً ومعزولة عن العالم الحي الا انه كان يشعر دائماً انهم يتجسسون عليه وان النوافذ لم تكن على ما تبدو عليه من براءة وان العدد القليل من المارة الذين كان يصادفهم وهو يسير بمحاذاة الجدران، كانوا يستديرون دائماً نحوه.

وحلق له برنار شعره مجاناً حسب آخر تقليعة فازال الشعر عن صدغيه وعن رقبته بآلة قص الشعر الكهربائية. وبعد ان انتهى من عمله غمس المشط باكمله داخل وعاء يحوي مستحضراً زيتياً لتلميع الشعر ثم دهن شعر لودو الذي شاهد يائساً أذنيه النافرتين تبرزان من جديد.

واستيقظ ذات ليلة على أصوات فرقعة فوثب الى غرفة المحركات وهو

منقبض القلب متخيلاً ان سيارات اسعاف وصيادين يرتدون بزات بيضاً قد جاؤوا لاقتياده. شاهد حوالي عشرة من سائقي الدراجات النارية يحومون بدراجاتهم حول الحطام وانوار عجلاتهم تشق الظلام ومحركاتهم الهائجة تزأر وضحكاتهم الشيطانية تتساقط كالشلال. استمر ذلك العرض الصاخب بضع دقائق ثم مالبثت الدراجات ان توقفت على مبعدة عشرين متراً تقريباً الى يسار السفينة محتفظة بأنوارها مضاءة. ولم يسمع حينها غير صوت تلاطم الامواج العنيف وصرخة اشارة السفن. وأخيراً تقدم شاب طويل القامة وراح يصرخ بصوت مخمور:

ـ «لاتتظاهر بالنوم. نعرف جيداً انك هناك. . » فايدته القهقهات:

«. . . لاتبق مختبئاً هناك! . . . تعال، نريد رؤية وجهك فقط. . نحن ايضاً نحب المزاح. . نريد ان نمزح معك. . انزل اذن ايها المازح! . .»

وساد الصمت من جديد. كان لودو واثقاً بأنهم لايستطيعون رؤيته.

واستأنف الشاب الطويل وهو يبعد ذراعيه عن جسمه على طريقة رعاة البقر:

ـ «هل انت خائف؟ ان كنت رجلاً فانزل واثبت لنا ذلك! . . .»

واعقبت كلماته هذه موجة من الضحك الفاحش. ثم قال صوت تفوح منه رائحة الخمر:

«انه ليس رجلاً».

وقال آخر وهو يقترب من الشاب الواقف:

ـ «إنْ لم ينزل فما عليك إلا الصعود لانزاله.

ـ اسمعت ما يقوله صاحبي؟ . . سآتي بنفسي كي انزلك! سنأتي كلنا

اليك . . انت الذي تتصنع الغباء».

ودار بعد ذلك حديث بين الشباب تقدم الشاب الطويل بعده بخطوات مترنحة نحو مؤخرة السفينة وكان من الواضح انه يعرف المنفذ اليها.

تسلل لودو واسنانه تصطك بعضها ببعض كي يبحث عن قاذفة الصواريخ التي حشاها كيفما اتفق ثم هبط الى حجرة المحركات مرة اخرى. وما كاد يختبىء قرب المحرك وقد الصق جسمه بالحديد المبلل البارد حتى لاح شبح شخص في المدخل. لم يكن الزائر كبير الثقة بنفسه كما بدا في أول الأمر وغمغم وهو يهز لحيته: «لاشيء، مجرد حجرة فارغة. . » اسند ذراعيه الى وركيه وأخذ يصرخ كي يبعث الاطمئنان في نفسه: «اين تختبىء ياابن البغي؟ . . » ثم تقدم وهو يصدر بجزمته المطعمة بالحديد قرقعة على الارضية المعدنية. شد لودو الذي جلس بلا حراك والعرق يتصبب منه، على المسدس الذي كان يحمله بذراع ممدودة وعيناه مثبتتان على الشبح الذي كان يتقدم نحو . لم يعد يراه بعد ان اقترب منه اقتراباً شديداً الا انه سمع صوت انفاسه فاغمض عينيه بقوة ثم اطلق النار دون تحديد الهدف تماماً. اصابت حزمة من الدخان الرجل في صدره فشبت النار في كنزته الصوفية وانتشر بخار اخضر في الحجرة شاهد لودو مهاجمه يعدو صارخاً الى الخارج فعاد الى حجرة القيادة مضطرباً ورأى على الساحل هيئة بشرية شبت فيها النار تجري نحو البحر والدراجات البخارية تحيط بها. خمدت النار فدمدم لودو بتعاسة «سيقتلونني» وهو يشاهد سرباً بشرياً اسود يتقدم ببطء نحو الساناغا. كان لودو مستعداً في تلك الليلة لأن يفعل اي شيء كي يتركوا

له هذا الكنز المحطم الذي كان بلا قيمة ولكنه كان كل حياته.

وما أن وصلوا الى السفينة حتى قامت عصابة الشباب تلك بصنع مفرقعات عن طريق استخدام عدد من القناني ومناديل مغمسة بالبنزين. سقطت الاولى على ظهر المركب وتدحرجت نحو بركة ماء وانطفأت. الا ان الثانية أصابت هدفها فحطمت زجاج نافذة حجرة القيادة ومست لودو قبل ان تنفجر على منضدة رسم الخرائط وهي تنشر ابخرتها ذات الرائحة الكريهة التقط لودو مطفأة الحريق بعصبية وتمكن من السيطرة على الحريق في بدايته الا انه أخذ يشعر بالاختناق بسبب الدخان الاخضر المنبعث من حجرة المحركات والدخان الاسود المنبعث من حجرة القيادة ففكر في الخروج مفضلاً الموت في الهواء الطلق على الموت مخنوقاً كالافعى.

القى بنفسه على سطح المركب فسمع صوت رصاص بندقية. اخفى رأسه بين يديه وأخذ يصرخ خوفاً. تكرر صوت الاطلاقات النارية ثم مالبث ان اخلى مكانه للسكون طارداً ضجيج محركات الدراجات بعيداً. ولم يعد لودو يسمع اي شيء. ظل مستلقياً مغمض العينين دون حراك وكله يقين بأنه اذا فتح عينه فلن يرى غير الرعب والبربرية.

وسمع لودو وقع خطوات على سطح المركب وصوتاً رخيماً يقول: «هل جرحت؟»

التفت لودو وغمغم:

«لا.. هؤلاء الانذال كانوا على وشك أن يتلفوا سفينتي الصغيرة».

وسرعان ما تعرف لودو الى القامة الضخمة لذلك الرجل الذي حاول طرده من السفينة قبل شهر.

«انك تجيد الرمي! لقد نال قذيفة جيدة هذا الوغد!»

فقال لودو:

«أنا لم افعل شيئاً. هم الذين بدأوا الهجوم: أنا لا أعرفهم.

- لاتبتئس. انهم عصابة من الانذال، لايفعلون شيئاً منذ مساء الجمعة وحتى صباح الاثنين، غير احتساء الجعة والتسكع بدراجاتهم النارية. ولكنهم يخافون المشاكل لانهم يرهبون الشرطة بما يكفي كي لا.. هيا، تعال لنحتسي شيئاً من الشراب».

وهبطا الى المطعم فاشعل لودو فانوساً ثم حرك قطع الفحم كي يتخلص من الدخان.

قال الرجل وهو ينظر باستغراب الى الجدران الملونة:

«لقد رتبت المكان بشكل جميل.. ونظفته ايضاً...»

ثم تفحص بعد ان جلس الى المنضدة زجاجة الروم التي وضعها لودو على الطاولة.

«رتبت المكان جيداً الا ان عدتك ناقصة. فلكي يشرب المرء فهو يحتاج الى اقداح. لو كنت مكانك لقمت بزيارة مكان تجميع القمامة. انه غير بعيد عن هنا، في اتجاه الجنوب. ستجد هناك كل ما تحتاج اليه. هذا اذا ترك لك الحدادون ما يكفي من الوقت كي ترتب اثاثك!.. ما اسمك؟

- لودو.

- أنا فرنسيس، فرنسيس كويلان».

وكان الرجل أصلع الرأس تماماً وكان ايضاً بلا اهداب ولاحا جبين.

قال الرجل متلمساً جبهته: «كان ذلك عندما كنت صغيراً حين

سقطت في حوض لتربية سرطانات البحر. لم اكن أعرف السباحة. كنت كمن يعوم داخل صندوق مليء بالمعدات. معدات حية. انتشلوني سريعاً ولم اتعرض لاي قرصة الا ان الرعب هو الذي عضني بنابه. وفي تلك الليلة، تساقط الشعر من جميع انحاء جسمي ففقدت كل شيء واصبحت كالبيضة. منذ ذلك اليوم لم تنم شعرة واحدة على جسمي وهذا ما منعني من ان اكون بحاراً».

كان كويلان قد قضى عشرين عاماً ايضاً في سجن كايين لانه اغتصب ذات مساء في فترة القداس امرأة معمرة تجاوزت المائة من العمر، في احدى القرى فماتت المرأة بسبب ذلك. وهو الآن في الستين من العمر الا انه ما يزال قوياً تغطي ذراعيه نقوش من الوشم تمجد المرأة ويعيش متصومعاً داخل عربة في اطراف الغابة غير بعيد عن الساناغا. ولم يسبق لأحد ان دخل بيته قط كما لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

وفي أحد الأيام، نصبت فرقة للسيرك خيامها على التلة قرب منزله فأقضّ أسد عجوز ظلّ يزأر طوال الليل مضجعه مما دفعه الى اقتحام قفصه والى ضربه بعصا مكنسة فأصيب الحيوان بكسور في منطقة الكتف. وقد حدث كل ذلك أمام المروض الذي كان يبكي.

من حسن الحظ انه لم يغتصب الحيوان، هذا ما راح سكان لوفورج يرددونه ضاحكين فيما بعد. وقد أسهمت المنطقة كلها في جمع مبلغ من المال للتعويض عن الحيوان المصاب.

«يالهم من شبان انذال! انذال وقذرون ايضاً. ولكن لاتخف ولاتخش شيئاً. أنا موجود وأنا أعرف جيداً هذه الحقارات بل لاأعرف شيئاً غير هذا. والآن أتعيش في راحةٍ هنا؟»

فأجاب لودو:

ـ «لا بأس

ـ ولكنني أنا، لديّ سفن صغيرة تسير داخل شراييني لايمكن للمرء ان يشفى منها أبداً. انها توقظك في الليل وتسبب لك حكة ولكن يجب ان تعرف بشأن الحدادين.. فهم سيأتون قريباً».

كان يتحدث الى لودو بصوت هامس تقريباً تحيط به هالة كتلك التي تحيط بقرصان قديم سار في أواخر ايامه على الصراط المستقيم وأطلع خلال حياته على اكبر عدد من الاسرار.

«الكل يبحث عما ينفعه في هذه الخربة.. لاأحد يعرف متى سيأتون الا انهم يأتون دائماً. لاأحد يعرف لماذا يقطعون السفن.. ولكنهم لن يحصلوا على الاجزاء النحاسية حتماً».

ثم غمز بعينه غمزة خبيثة ومال الى لودو:

«الأنابيب والحنفيات وادوات المطبخ النحاسية سآخذها أنا. انها لي. وهي هنا. في السفينة، مخبأة في خزان الوقود في الاسفل. انني ابيعها شيئاً فشيئاً».

وسمع لودو صوت ثغاء قريب فانتفض في مكانه وسأل وقد اتخذ موقف الدفاع: «ما هذا؟».

فقهقه كويلان:

ـ «انه خروفي. لاتخف. هو الوحيد الذي نجا بعد غرق الساناغا. كانت مليئة بالخراف وكلها غرقت، الا هو».

ثم ارتشف شيئاً من الكحول قبل ان يقول:

«ذهبت كلها الى القاع. هناك في الاعماق! هل شاهدت قوة الموجة

عندما يرتفع المد؟ . . انها تحطم كل شيء. هناك، ذهبت لانقاذه واعدته في قاربي. . خيّل اليّ حينها انني سأموت. . اسمع وانظر كيف يطيعني».

اقترب من احدى النوافذ وكانت أوردة عنقه بارزة كأنها اسلاك حديدية ثم راح يثغو في اتجاه الليل. وسرعان ما جاءه الرد كأنه الصدى.

«انه ينتظرني على الساحل. . سيكون سعيداً حتماً بالتعرف اليك».

رافق لودو الرجل حتى منفذ الخروج من السفينة فبان شكل خروف ضخم أسود تحت نور الفانوس.

قال كويلان:

«اسمه بانورج. قتلوا كلبي فتبنيت هذا الخروف».

دس لودو أصابعه لتغرق داخل الصوف المتموج الخشن وهو سعيد برؤيته خروفاً حياً، حاراً، ملتحياً، لايشبه في شيء تلك التمائم القبيحة التي أرسلها الى الموت عشية عيد الميلاد.

«حاولت كثيراً أن أعلمه النباح. بلا جدوى. وبذا أصبحت أنا الخروف وخضعت لمشيئته. أتعرف لماذا أسميته بانورج»:

فقال لودو: «لا.

- بسبب الكتاب المقدس. فحين عبر موسى نهر الاردن تبعه الآخرون كالخراف. . هيا الآن، عمت مساءً. ولاتقلق بسبب اولئك الاوباش فهم لن يجْرؤوا على العودة».

تابعه لودو بنظره وهو يبتعد.

. . . وتبع طوال الليل خلال نومه خروفا اقتاده وسط الذكريات الى مخزن الغلال والى الدغلية والى سان ـ پول. وعندما أمسك به، اكتشف أنه إنما كان يتعقب نفسه، يتعقب لودو.

وفي اليوم التالي توجه، بناءً على نصائح كويلان، الى المزبلة وكانت منطقة شاسعة في مواجهة البحر ترتفع فيها وتنخفض أكوام من الانقاض وتتصاعد منها أعمدة من الدخان. كانت رائحة الهواء هناك مشبعة بروائح اطعمة متعفنة افسدت رائحة عطر الراتنج واليود. دخل في تلك المتاهة سعيداً كما لو كان قد عثر على حطام سفينة جديدة، أو على جنة جديدة وأذهله ذلك الاعصار المتحجر الذي يبين ما يحل بالأشياء من نكبات ويعمل على اعادة المادة الى اصلها. كانت طيور البوم والغربان تطلق ضجيجاً صاخباً وتغطي القذارات وتطير مبتعدة عدة امتار عند اقترابه منها. شاهد لودو أفراناً وخزائن آوان مليئة بالثقوب وحاويات مياه حال لونها الى اللون البني الغامق بسبب الصدأ، وسيارات لم يبق منها سوى هيكلها ومقاعد وعربات اطفال وكلاباً وقضباناً حديدية تبرز هنا وهناك وقد تجمعت كلها في خليط صامت غير متجانس. وشاهد لودو حصاناً كاملاً نخره الدود ثم استخرج من بين الانقاض ستة صحون في حالة جيدة تماماً الا ان جذور حرش من النباتات الشوكية كانت تحيط بها. وعثر على الجزء الثاني من كووفاديس* وتصفحه فوراً بعد ان جلس وراء مقود شاحنة محترقة. جمع سكاكين بلا نصال وقدوراً مخلوعة الاذرع وملابس وضعها كلها باعتناء داخل حقيبة مثقوبة. لم يكن هناك

---

* رواية شهيرة للكاتب البولوني سيينكويوز صورّ فيها الصراع الذي كان قائماً بين المسيحية والدولة في عهد نيرون (المترجمة)

شيء تبخل به تلك المزبلة على الزائر. توقع لودو أن يجد المستحيل تحتها ككنيسة او غواصة او سنوات طفولته في بيهاك وتساءل عما اذا كان مركز سان - پول وكل الابرياء لايرقدون هناك، في مكان ما، تحت قمامة المدينة.

وعند المساء تقريباً حصل على أجمل هدية في حياته وهي علبة موسيقية تشبه آلة بيانو ذات اوتار افقية جديرة بأن تعزف عليها احدى النبيلات المتأنقات. أدار الآلة فاكتشف انه يحمل خطأ في يده لحن «الالعاب الممنوعة» الذي لم يسبق له ان سمعه في حياته قط. وعادت اليه ذكرياته، فجأة، وسط القذارات، وتلاشى حقده على قدره. أحس بنبضات قلبه تتردد على ايقاع الموسيقى في عمق السنين الماضية. أعاد تدوير العلبة فشعر أنه يعيد حياته وأنه يبلغ لحظة ولادته وحقيقته. شاهد أمه مرة اخرى وأراد ان يلمسها، أن يتحدث اليها وأحس بأنه قد تخلص من جميع الهموم وانه لم يعد يشعر الا بالأسف وهو يتذكر فترة حياته في الدغلية.

واستلقى عند عودته الى السفينة على الارض وسمع لحن «الالعاب الممنوعة» عدة مرات في الظلام مبقياً عينيه مفتوحتين على ماضيه. ثم اشعل المصباح وكتب رسالة الى نيكول.

«تعرفين انني قد رحلت ولكنني بخير. رحلت لانك لم تحضري عشية عيد الميلاد ولكنني لم أمت. يمكنك الآن ان تحضري لرؤيتي في مركبي. هناك قرية اسمها لوفورج. اذا سلكت الطريق الى خارج القرية فستصلين البحر وسترين قاربي على الساحل. أنا أعيش هناك وهذه السفينة بيتي، بل يمكنني ان ادعوك ايضاً ان اتيت، بل أنا أعمل

ايضاً. انني عامل موسمي. سأكون سعيداً ان حضرت. يمكنك ان تكتبي اليّ على عنوان قهوة قرية لوّفورج.

لودو»

صعد الى ظهر السفينة ونظر الى البحر متأملاً ثم مزق رسالته على سطحها.

* * *

الفصل السابع عشر

حاصره الحنين من جديد. لقد تخلص الآن من الشعور بالخزي ومن استهزاء الآخرين به ولم يعد هناك أحد يردد على مسامعه انه صبي ابله وان مجيئه الى الحياة كان خطأً وانه كائن خطر. لم يعد هناك أحد الى جانبه وهو يعيش الآن وحيداً تماماً. تجول في ذاكرته الى ما لانهاية وشاهد نفسه، بعد ان نسي حطام السفينة الذي يقيم فيه، في المخزن وسمع طرطقة درجات السلم وصوت دوران المفتاح في القفل واسترجع شكله وهو يختبىء في مغارته مع رؤوس اسماك البوريّ وشاهد عبر نافذة السفينة باحة المخبز وجدران الفرن والحقول التي يكسوها الضباب واستنشق رائحة الخبز الحار فامتزجت الذكريات التي تجردت من كل شيء بشعور عميق بالمرارة. تنقل بين ليز ونيكول وتخيل امه بفم مشروم كفم الارنب وادرك لاول مرة انها لم تقبله على الاطلاق فاغلق عينيه على وهم كاذب وغمر يديه بقبلات حب عنيفة وهو يحلم بجسدها. كانت نانيت هناك ايضاً من خلال صوتها الذي كان عبارة عن طنين مستمر لايحمل وجهاً ولا لوناً، ذي نغمة مبحوحة تغلف كلمات لايسمعها.

ولاحقته بعض المشاهد ايضاً الا انه لم يستطع تحديد موقعها او معناها في حياته كمشهد طفل صغير يسير ليلاً حافي القدمين ومشهد

طفل صغير يرتقي سلماً وكف حمراء أمام عينيه .

وكانت الاسئلة تتوالى : من كان ذلك الطفل؟ كف من كانت؟ لماذا كانت عائلة الخباز تعامله بتلك القسوة؟ هل سبق له ان رأى اباه دون ان يعرفه؟

وفي أحد الأيام بكى ساعات طوالاً ثم نظر الى نفسه في المرآة وهو يبكي دون ان يحس بأي شيء لابألم ولا بحزن. وكان ينزف دون جرح ظاهر، كما ينزف كوكب ميت.

كانت حواسه تعذبه عند هبوط الظلام. كان يسترجع صورة ثديي الطباخة الثقيلين والممتلئين بحلمتيهما السوداوين ويخفي ذكره بين ساقيه ويتساءل وهو ينظر الى جسده الذي تشوه بسبب هذه الحركة عما اذا كان يتمنى لو انه ولد امرأة ذات ثديين جميلين مثل فين أو مثل امه . وذهب به الخيال بعيداً في حلم يقظة تحولت فيه نيكول وفين وليز الى اشباح كان عليه تقطيعها بالسكين على احدى موائد صالة الطعام. وفجأة تحولت المائدة الى رصيف عائم ترجرجه امواج المد.

كان يحلم ايضاً بمهنة وبمركز اجتماعي ثابت فصنع لنفسه صندوق بريد يحمل اسمه وكان عبارة عن علبة قديمة لقنينة شمبانيا من كاليفورنيا وجدها على الساحل في فترة الجزر وشدها الى مقبض مجرفة ثم ثبتها في الارض اليابسة أمام الحطام.

كان يأكل دون احساس بالجوع ويقضم بعصبية اسماكاً نيئة تقريباً وطحالب واشنات ذات طبيعة مرنة مرونة علكة الغلوبو. وكان يشرب بلا تمييز وبغير مبالاة ماء البحر وماء البرك العذب الذي يخلفه المطر على سطح السفينة. الا انه كان يفتقد بشدة حليب الصباح الساخن فيتوجه

احياناً الى قرية لوفورج لغاية واحدة وهي الحصول على بعض الحلويات المصنوعة من هذا السائل الثمين.

وكان فرانسيس كويلان يتردد على لودو بانتظام وقد صنع له خصيصاً سكين عمل كبيرة من نوع او بينيل ذات سير جلدي ومقبض خشبي على هيئة حورية بحر محدودبة بعض الشيء وكأنها الذكر. واعطاه ايضاً عدداً من الارانب التي اصطادها منتهكاً بذلك قانون تحريم الصيد. كان لودو يمقت الارانب التي تشبه اطفالاً حديثي الولادة عند تقطيعها. وما ان يرحل كويلان حتى يتخلص منها لودو برميها وراء ابواب حجرة المحركات وكانت عشرة تقريباً تملحت في الماء المالح وكأنها اجنة داخل بطن ميت.

كان السجين السابق ولودو يكادان لايتبادلان الحديث وهما يجلسان في حجرة الطعام يحتسيان بصمت مغليّ الروم والشاي الاسود الذي كان يجعل عالم المراهق يتراقص. ولكن كويلان كان ينطلق احياناً دون سابق تهيؤ في خطبة لا تنتهي عن البحر وعن النجوم وعن تأثير القمر والرياح في قوة الامواج التي تتحطم على صخور الشاطىء.

وفي احد الايام رأى لودو يتخبط عارياً بين الامواج كي يغتسل فعلمه السباحة على الطريقة الهندية ولم يكن لودو قد تعلم السباحة في حياته فراح يدور في الماء حول السفينة في عز فصل الشتاء غير مكترث للعلامة الخاصة بمنع السباحة.

كان المد والجزر هما اللذين يقرران توزيعه وقته. فعند ارتفاع المد يضع مقعداً ذا قائمة مكسورة على سطح السفينة الخلفي ويراقب الامواج وهي تكتسح الشاطىء كأنها موكب ينساب امامه ببطء. وقبل

ارتفاع المد، يلمح المرء موجة منفردة تعلو شمال المنار تشبه مد خلاً رائعاً ذا سلمين سرعان ما ينهار بعد ذلك بكل قوة على نفسه ويتحول الى زبد حتى ليخيل الى المرء ان تلك النهاية انما هي نهاية حلم كاذب كان لودو يرفض ان يصدق انه مزق سفناً وسابحين مئات المرات. ثم كان السراب يلوح من جديد فترتفع تلك الموجة العظيمة في الافق يحيط بها الرذاذ حاملة على جوانبها مجموعة من الركام الثلجي الذي يبدو كأنه يسحق البحر تحته. وكانت هذه الظاهرة تتوقف عند انحسار البحر.

كان لودو يرهب تلك المـوجة ويحبها. كانت جميلة بجمال أمه أو بجمال فنانة تعزف على البيانو، ترتدي هي الاخرى ثوباً من نور لا يمكن لأحد أن يلمسها الا أنها كانت هناك رغم ذلك، قريبة جداً وحية تنبض بالحياة ولم يكن لودو يمـل الاصغاء، وهو جالس على مقعده في مهب الريح، الى صوت موكب الامواج المتلاطمة القاتل والقادم من عرض البحر.

كان كثيراً ما يتمشى على الشاطىء حيث يمنحه الجزر كل يوم غنيمة جديدة فيعلق الأشنـات اللزجـة التي تشبـه جلد التمسـاح في رقبتـه كالقلادة ويلتقط صدفات المحيط المتواضعة التي يتخلى عنها الجزر كي يبعث الحيرة في نفوس المتسكعين، مثل نجوم البحر وعظام الحبار وشعر الفوقس الكث وحيوانات المدوس الهلامية الممزقة وأغصان الاشجار التي شذبها البحر. وكان يعثر أيضاً على حصيات ملساء صقلها التآكل وعلى بقايا سندانية ابيّض لونها ولم يتبق منها غير الحلزون وعلى القبة المدورة لرأس سرطـان مالت نحـو الجـوانب وكـأنهـا كعكة وعلى سمكة ميتة اصبحت صقيلة كقطعة من الزجاج.

كان لودو يحتفي بهذه الهبات السماوية التي لم تكن غير فضلات بحرية تافهة وهو الزبون الدائم لمهملات المد هذه التي كان ينتقيها كمن ينتقي البضائع من السوق.

وعند المساء، كان يضحي اسفاً بخشب الحطام كي يغذي النار التي يشعلها على الرمال المقفرة ويتأمل البحر من خلالها. الا انه كان دائماً يتأمل امه في الواقع ويحاول السيطرة عليها حتى لو اختفت في الافق. كان يفتح عينيه على اتساعهما بسبب حالة الذهول التي يكون فيها ويحلم بأنها تصعد الى السانا غا وانه ماركوس فينيسيوس بطل رواية كووفاديس، الضابط الروماني الذي يقف امام الدفة ويقطع حبال السفينة بسيفه كي يرحل. كان بأمكان لودو البقاء على هذه الحال حتى الفجر برفقة ذاكرته وبرفقة لهب النار. وكانت كل نار تشتعل تمنح لودو شعوراً بأنه يدنو من الحقيقة.

كان يتسلى احياناً بتحدي المد الصاعد فيضع الحواجز الضخمة خلف الساناغا وهي عبارة عن جدران واهية من الرمال كانت قادرة على ايقاف هجوم البحر خمس او عشر دقائق ثم لا تلبث المياه ان تحدث شقوقاً في الجدران وتتسلل كي تقضي على استحكاماته وتسترجع مجراها وهي تندفع بقوة نحو الثغرات التي فتحتها منذ زمن بعيد في قعر السفينة. وعندئذ يلوذ بالسفينة ويراقب الهدير الموحل يتجمع حول المروحة وحول مقود الغوص ويثقب هيكل السفينة. فتبدو الامواج كأنها قد أجمعت كلها على رغبتها في التقدم من المحيط كي تغرق الحطام.

وعثر ذات يوم على اوعية طلاء وعلى فرش داخل احدى الخزائن فاستغل نهاراً مشمساً كي يرسم على جوانب الساناغا أكفاً سوداً ضخمة

مع خطوط حمر قانية كأنها البرق راحت تبث اشعاعاتها عليها. فقال له كويلان باعجاب ان سفينته قد تزينت افضل من مومس.

وعند هطول المطر، كان لودو يذهب الى محل بريزاونيك الذي يقع خارج قرية لوفورج في الطريق المؤدي الى بوردو حيث يقضي ساعات طوالاً لا يشتري خلالها شيئاً. كان يسحب عربة ويمر امام جميع الرفوف ويختار قناني خمر وعلب اطعمة مجمدة وقطعاً من الملابس النسائية الداخلية وحضائن اطفال رضع يكدسها كلها في عربته ثم يتركها في أحد الممرات الخالية وهي تكاد تنهار تحت ثقل المواد ويخرج من المحل من باب الخروج الذي يحمل علامة« دون شراء ».

وفي عصر احد اواخر ايام شهر آذار، وكان الجو جميلاً ورائعاً، سار بمحاذاة البحر وابتعد كثيراً حتى أنه عندما استدار كي يرى السانغا، لم يجدها. كان البحر كالحلم والارض حارة تحت قدميه العاريتين. وفجأة لمح الرصيف العائم في الافق يحيط به شريط زيتي امتد حتى نقطة التقاء الماء بالسماء وكانت الاخيرة دون رياح. فرك عينيه ثم تأكد من تعرفه المكان، تلك الفسحات بين التلال وانعطافة الساحل وقوس الرمي والعلامة الرملية في العمق وهي تحجب الدرب الذي كان هو وتاتاف يمران به كي يصلا الدغلية عبر الحقول. وصل حيث الانبوب المطلي بالقار فتسلقه والاضطراب يملأ نفسه. كان هذا منزله، وهنا كانت كل حياته. ركض حتى الطريق المؤدي الى شاطىء السباحة وفكرة واحدة تسيطر على كل حواسه: ان يرى امه، ان يطمئنها، ان يقسم لها ان كل شيء على مايرام وانه لم يمت وانه سيعود كي لا يرحل بعد الان ابداً. كانت الكلمات التي ينوي قولها كي يثيرها تتراقص على شفتيه وكان

يشعر بألم في قلبه ويحاول بعث الاتزان الى حركاته المجنونة وهو يقطع، جرياً، الحقل الذي يمتد حتى الدغلية.

وما ان شاهد السقف الاحمر والجدران البيض فعلاً، حتى احس بالخوف. كان قذراً وملتحياً بعد ثلاثة اشهر من التشرد. ماذا ستقول ان رأته بهذه الهيئة الزرية؟ انبطح ارضاً ثم زحف حتى الطريق وهو ينظر في اتجاه المنزل بكل شغف. لم يتبدل اي شيء في بيته. كانت نوافذ حجرته مفتوحة وسيارة زرقاء تقف قرب المرأب. وعلى الشرفة كان هناك كرسي طويل استلقى عليه رجل في مقتبل العمر ارتدى ملابس السباحة وراح يتشمس في كسل. سمع صوت رشاش ماء يجري مدندناً ثم مالبثت الضجة ان توقفت وكاد لودو يصرخ عندما خرجت نيكول وقد لفت منشفة قطنية حول جسمها وبرمت شعرها جانباً. دس الرجل يده تحت المنشفة دون اهتمام كبير حتى انه لم يفتح عينيه، فاستسلمت نيكول اليه وهي تبتسم. من كان الرجل؟ اين ميشو؟ ماذا يحدث؟ ثم مالت على الغريب وعانقته بحنان. لم يستطع لودو احتمال اضطرابه اكثر من ذلك اذ كان يحترق رغبة في أن يعدو ويلعق العرق فوق جلد هذه المرأة التي يحبها ويكرهها في آن واحد والتي كانت امه، ملكه هو دون سواه. وقف أخيراً وكاد يعبر الشارع ويفتح البوابة ويسترجعها. انه يملك الحق في ذلك ولايمكن لأحد ان يمنعه!

دخل الرجل ونيكول، سعيدين، وقد تشابكت ايديهما، الى المنزل فلم يتحرك لودو.

ما هو غريب في تلك اللحظة أنه شعر بالراحة. انبطح على الارض وراح ينتظر هبوط الليل. ترى لماذا لايعود ميشو؟ وعند حلول المساء خرج

الرجل كي يغلق الشبابيك . كان الظلام قد حلّ تقريباً واولى النجوم قد بزغت في السماء حين اجتاز لودو الطريق ثم تسلل الى الحديقة فتعرف رائحة زهور الغليسين التي أينعت بفضل الربيع . وقف أمام الباب والصق اذنه بالمطرقة الصغيرة وكان صوت جهاز التلفاز خفيضاً . وضع اصبعه على الجرس وضغط عليه طويلاً . وفجأة أومضت في نفسه اشارتان كالانذار اذ اكتسحه رعب حيواني ثم سمع وقع خطوات تتقدم كأنها آتية من كوكب آخر . وانفتح الباب . وخلال لحظة واحدة شاهد لودو رجلاً ذاهيئة عدائية يرتدي سروالاً داخلياً فقط ثم شبح جسم آخر يقف خلفه وسمع هذه الكلمات «ايّها المتشرد الحقير» . وفرّ . اجتاز الشارع ، وغاب كاللص داخل الحقول .

وبعد فترة تسلل مرة اخرى كي يبيت الليلة في بيته القديم ، بيت الاسكيمو وكان على حاله كما تركه ، لم يمسسه أحد ، في طرف الحديقة .

لم يعد الى السفينة الا عند بزوغ الفجر وامضى النهار نائماً على ارضية المركب وقد عقد يديه على صدره كالميت . لم يكن يحمل في داخله سوى ادراكات مبهمة لم يستطع تمييزها ، مجرد لحظات خاوية كانت تلامس نفسه كالفقاعات ثم لاتلبث ان تتلاشى . استلقى بعينين مفتوحتين وأصغى الى وجيب قلبه ، قلبه هو ، والى البحر تحت السفينة والى صوت سقوط قطرة ماء ضائعة في مكان ما من ذلك الحطام والى ذكرى ، ذكرى طفل صغير يسير ليلاً ويد سوداء تطير . من كان ذلك الذي يردد بصوت شاك : «ماما تقول انه سقط وحده . . ؟» كانت نيكول تتردد مراراً الى المخزن الا انه كان يجهل انها كانت امه . كان يفرح لرؤيتها ولم تكن هي تقول شيئاً . كانت أجمل من نانيت . كان يشعر بالتعاسة مع نانيت اذ

كانت تريد دائماً ان تدفعه الى الكلام، ان تعرف ان كان سعيداً أو لا، وان كان سينساها عندما يكبر. ترى اين يضعون المرء عندما يموت؟.. اين ميشو؟.. سمع الارغن وشاهد الأصابع الثماني تضغط على المفاتيح. وابوه الحقيقي اين هو؟.. اليس هو من رآه في العشية مع نيكول؟.. ترى هل عاد ابوه؟

وفي المساء نهض وهو في حالة من التعاسة المنتشية فشاهد المد ونزل الى الماء وكانت الشمس ما تزال في السماء. حاول ان ينسى الرجل الذي رآه في الأمس وان يمتنع عن التفكير في انه ربما يكون ابنه. تخيل نفسه يسبح جنباً الى جنب مع امه وانهما يستسلمان الى مشيئة المحيط ويتحدثان حتى تختفي اليابسة وتتوهج انوار سفن الشحن في الافق.

شرد في احلامه بعيداً، وبعيداً ذهب عن الشاطىء وراح يقترب من المياه العميقة دون رغبة منه في ذلك. وفجأة قامت الموجة العظيمة. بدت كأنها نتيجة فعل خيانة ما، فخنقه الفزع. كان الموت هناك، أمامه تماماً، تحت البحر، داخل دوامة مائلة وكاذ هناك ايضاً خطم صخور البحر الاسود وتلك الهوة التي تتسطح فيها الاشنات بسبب من رعب أسمر مذهب حتى تصبح رقائق. أما غربة الموج، فكانت هناك، تتدحرج فوقه بكل قوة كهزيم الرعد. حاول الهرب الا ان الامواج كانت تمتصه نحوها ثم مالبث البحر ان تفجر فوقه دافعاً اياه، بمحض المصادفة فقط، بعيداً عن التيار.

تمكن من العودة سالماً. وقف على الشاطىء وهو ما يزال تحت ضغط الصدمة وراح ينظر الى أعراس الثلج على الصخور التي كادت تقضي عليه.

وفي تلك الليلة، تحول رعبه الى كابوس فاستيقظ والعرق يتصبب منه. لم ير تلك الأعماق المظلمة في البحر بل رأى الوجه المقنع وشاهد الشعر الأحمر المحيط به وقد تحول الى زعانف والأصابع الى مجسات تحاول تطويقه. شاهد الموجة كدساً من العظام التي تبدل لونها. ففتش بعينين يلتهمهما الظلام الحجرة، بحثاً عن دخيل شرير. تساءل عما اذا «كانوا» قد اقتفوا اثره وعما اذا «كانوا» كلهم قد تجمعوا على سطح المركب، الشرطة والممرضون والحدادون وتلك الشيالين الصغيرة وعما اذا كانوا قد جاؤوا كي يمسكوا به. نهض وسار على اطراف قدميه ثم اشعل المصباح وصعد الى ظهر السفينة. كان رذاذ من المطر يبلل العتمة الصامتة وكانت السفينة تبدو كالشهاب المعلق في ليلة شبحية وبدا كأنه لم يكن هناك من وجود لاي شيء على الاطلاق. شعر بشيء من الطمأنينة فنزل الى داخل السفينة من جديد ثم مزق كيساً ورقياً كي يكتب.

أنا مثل ابي رحلت بعيداً الا انني لم أمت. ذلك انك لم تحضري ليلة عيد الميلاد. أنا عامل موسمي الآن ولديّ مركب جعلته مسكني. هناك قريـة اسمها لوفورج ان سرت في الطريق المؤدي خارجها فستصلين المحيط وهناك أقيم كان هناك رجل معك في الحديقة قبل أيام. لاأعرف ان كان هو أبي أو لا الا اننا لانشبه بعضنا على أية حال. سأكون سعيداً ان اتيت وبذا سيمكنني العودة الى الدغلية معك. ان اردت الكتابة اليّ فاكتبي الى قهوة قرية لوفورج اذ ان اصحابها اصدقائي. أين ميشو؟ تبدين أجمل حين يكون شعرك طويلاً.

لودو



الفصل الثامن عشر

وصل الحدادون عصر أحد أيام نيسان في شاحنة صغيرة. كان لودو عائداً لتوه من الدغلية حين شاهدهم الى جانب السفينة فتوارى عن الانظار. وبعد ان زال ذهول اللحظات الاولى أخذ يفكر بشكل منطقي. لم يكن هناك ما يشير الى وجود الممرضين ولذا خرج من مخبئه فقدم له رجل طويل القامة يعتمر قبعة باقة من الورود.

«مرحباً ايها الشاب!... عثرنا عليها هنا على الارض، قرب المركب. آه! جميل ان يكون للمرء شخص يحبه..».

نظر لودو الى زهور الكريزونتيم الذابلة مذهولاً ثم شدها الى صدره. وضحك الآخر:

«نحن القصابين أتينا لتقطيع لحم الخنزير. اخبرونا في القرية ان هناك.. مؤجراً في السفينة. ولكنها مشكلتك أنت وحدك. لست أول من يقيم في حطام السفن وذلك لايزعجنا في شيء. يمكنك البقاء هنا اسبوعاً آخر اذ اننا جئنا كي نفحصها فقط. ستكون مهمتنا صعبة على أية حال لان الحديد لم يتآكل الا من الخارج فقط. الى اللقاء اذن وفكر جيداً في أمر انتقالك».

تابع لودو الشاحنة الصغيرة وهي تبتعد ثم صعد الى السفينة ووضع الزهور داخل قنينة كوكا كولا كبيرة جزؤها العلوي مقطوع ثم ملأها بماء

البحر.

وفي اليوم التالي، ذهب الى لوفورج التي أخذ يتردد اليها بانتظام منذ ان بعث برسالته الى نيكول وهو يأمل تسلم رد لم يصل قط. ولم يكن لدى برنار أي رسالة له هذه المرة ايضاً الا انه راح ينظر اليه نظرة غريبة.

قال: «حدث أمر غريب هذا اليوم. اذ جاء رجال الجندرمة هذا الصباح. انهم يبحثون عن شخص ما.. عن مجنون فرّ من مصح عقلي. وقد قلنا لهم انه لاوجود لمثل هذا الشخص هنا. انه لأمر غريب..»

وسأل لودو:

- «ولماذا يبحثون عنه؟»

فاستأنف برنار:

«لايتحدث الناس هنا عن اي شيء أبداً. انهم لايقولون شيئاً على الاطلاق. ولكنهم ليسوا مجانين.. جاء الحدادون هذا الصباح أيضاً وهم سيقطعونك الى شرائح قريباً».

وكان لودو قد اعترف له انه يقيم في الحطام في انتظار الموسم فأجابه برنار في ذلك الحين انه يعرف ذلك منذ زمن بعيد.

«الصيف على الابواب على أية حال ويمكنك الاقامة في القرية. انني واثق بأنك ملك آلة قص العشب..»

وعندما عاد، عثر داخل صندوق بريده على باقة ذابلة من زهور الربيع فتذكر ليز. كانت هي الاخرى تهديه زهوراً عندما يمرض. تذكر مداعباتهما وعناقهما الذي لم يكن يصل باي منهما حد النشوة فشعر

بالخجل فجأة لانه تركها وحدها هناك.

وضع زهور الربيع مع زهور الكريزونتيم التي سقطت آخر اوراقها. ترى، من يمكن ان يفكر في الاهتمام به في المنطقة؟ من يمكن ان يعرف انه هنا؟.. لم يكن السجين السابق يسرق زهوراً.

واختبأ خلال الأيام اللاحقة خلف برج الرصد ولكن دون جدوى اذ كان الظلام يخيم دون ان يرى أحداً.

وعاود الذهاب الى لوفورج والى الدغلية فعادت باقات الزهور الذابلة الى تزيين جوانب الساناغا. وفي عصر أحد الأيام، تظاهر بالتوغل في الغابة الا انه سرعان ما عاد الى الشاطىء بعد ان قام بدورة كبيرة ثم كمن قرب التلة. وبعد قليل، ظهرت فتاة صغيرة تمتطي دراجة هوائية تركتها جانباً ثم اخرجت من حامل الحقائب في الجزء الخلفي منها باقة من الزهور وضعتها قرب السفينة وظلت واقفة عدة لحظات وقد عقدت يديها على صدرها ثم رسمت اشارة الصليب وسجدت سريعاً قبل ان تعود الى دراجتها.

كان لودو في انتظارها هناك. فسألها:

ـ «لماذا تضعين الزهور؟»

فهزت كتفيها وقالت كما لو كان الجواب معروفاً سلفاً:

ـ «انها لأبي!

ـ ومن هو ابوك؟

ـ لقد مات لانه كان يفرط في الشرب. ماما تقول انه كان مجنوناً وانه الآن داخل صندوق في المقبرة. امي تذهب اليها كل يوم، الى المقبرة، وتأخذ معها زهوراً. أما أنا فأجلبها الى هنا وآخذ زهوراً اخرى من

الصناديق المجاورة. وبذا لايعود هناك زهور فيها. زهور اليوم جديدة تقريباً.

ـ ولماذا تفعلين ذلك؟»

فبدت الفتاة كأنها تفكر ثم قالت:

«لدى أخي دراجة نارية وقد قال ان مجنوناً يقيم في المركب. ان كنت مجنوناً فانت ابي».

ثم اضافت بصوت خفيض ورزين:

«اتريد ان تكون أبي أم لا؟»

فغمغم لودو مرتبكاً:

ـ «لاأدري. ما اسمك؟

ـ أمـونـدين. ولكن الجميع يسمـونني موندين. أما لعبتي فاسمها سيلستين. يجب ان اذهب والاحدثت مشكلة».

ثم امتطت دراجتها واختفت سريعاً.

ومنذ ذلك اليوم وهي تعود بانتظام الى الساحل وتجلب معها زهوراً كانت تجرد موتى القرية المجاورة منها، لتثرثر مع لودو وهي تقف بعيداً عنه كما لو كانت غريزتها هي التي تحدد لها المسافة التي ينبغي لها الحفاظ عليها بينها وبينه. كانت في فترة عطلة، في السادسة من العمر تقريباً، ذات وجه حاد كأنه وجه امرأة شرسة وعينين بلون العاج ونبرة حديث تتحكم فيها حسب مشيئتها. وفي أحد الأيام، فاجأها لودو بهدية تعبيراً عن الصـداقـة وكانت هديته عبارة عن حيوان سرطان بحري حديث الولادة اصطاده كويلان وكان لونه أزرق بلون البندقية نزع عنه كلاباته ولفه بشكل جميل بورق هدايا اقتناه خصيصاً من قرية لوفورج.

ـ «لقد مات تيتي!. . »

فدهش:

ـ «ومن هو تيتي .

ـ الشرطان الصغير. مات قبل ان يغني . .

ـ هل اكلته؟

ـ مؤكد، لا!. . . وضعته في قفص الببغاء في المرأب وكنت اعطيه حبوبه كل يوم . ولكنه مات رغم ذلك وأمي تشاجرت معي وقالت ان رائحته كريهة» .

وعدها لودو بسرطان آخر الا انها ظلت مستاءة لعدة لحظات وهي تنبش الرمال بطرف قدمها ثم غادرت غاضبة بعد ان أعلنت انه ليس لطيفاً معها وانه لم يعد اباها .

امضى لودو بقية النهـار في حك قارب الانقـاذ المنخـور الخـاص بالمـركب. منذ ان جاء الحدادون والمرء يخيل اليه انه يحاول اصلاح السفينة كي يمنعهمُ من العبث بها . لقد جلاها ونظفها وطلاها وكان يتخيل اثناء الليل ان القارب يتحطم تحت ضغط الامواج ويحلم انه يسير فوق البحر حاملاً الساناغا تحت ذراعه وكأنه يحمل قارب طفل .

وعند المساء، لمح طيف شخص عند منحنى الرابية فظن انه كويلان قد أتى لزيارته. ولكن، ما ان تشكلت هذه الفكرة في ذهنه حتى أحس بتيار صلة عائلية يسري في جسمه : وكان ذلك الشخص هو ميشو. ترك ما كان يعمل به ونزل الى الساحل وجرى كي يلتقيه فألقى أبوه بالتبني بنفسه بين ذراعيه ثم صرخ :

«هكــذا اذن. لم يكن الأمـر مزحـة. انت تعيش في هذا الحطام بالفعل!.. لم أصدق ذلك.. كنت واثقاً بأنها تكذب مرة اخرى وانك لست هنا. لقد كبرت، اصبحت رجلاً يالودو!»

ثم وصلا الى حيث السفينة فقال لودو:

«ستعود بي الى البيت؟ هل اتيت كي تأخذني؟».

فارتبك ميشو وهو ينظر الى المحيط:

«لايمكنني القول.. لا! لن آخذك الى البيت. هذا ما لايمكنني فعله. أنا الآخر لم أعد أذهب الى البيت. لقد انتهى كل شيء».

وكان يتفحص باطن قبعته كالمتسول.

استأنف بصوت واهن:

«أمـك وأنا، لم نعد نستطيع التفاهم. هي التي لم تعد تتفاهم في الـواقـع. انها تكذب. بل انها قالت انها لم تكن حبلى قط وان ذلك يدفعها الى الضحك.. موريسيت كانت طبيعية في الأقل. لقد انتهى كل شيء».

وسأل لودو:

- «وما الذي انتهى؟

- انتهى كل شيء يابني. لم نعد نعيش معاً بل سننفصل ايضاً. لم أحصل في هذا البيت إلا على المصائب.... انني لاافهم شيئاً على الاطلاق.. لن يخسر تاتاف اي شيء وسيحصل على المال فيما بعد... وانت ايضاً.. خذ الآن هذا المبلغ البسيط...».

ثم دس في ياقة لودو حفنة من الاوراق المالية.

«لايمكنني ان افعل اكثر من هذا الآن. لم أبع البضائع اذ تتطلب

هذه العملية بعض الوقت. ثم أن كل ما ادخرت حتى الآن قد تبخر في هذه الدعوى! . . . وهل تظن ان عائلة الخبازين قد فعلت شيئاً؟ . . . او تعتقد ذلك؟ . . لم يعينانا باي مبلغ من المال . . ولكي لااخفي عليك شيئاً، اقول لك، انني لم أعد املك الشجاعة للتفكير في الاستقرار من جديد . . اصبحت عجوزاً جداً، ولذلك فسأ . . ».

ثم تنحنح وبدا مضطرباً جداً وقال:

«عرضت عليّ ابنة الخالة عملاً بسيطاً . . سأهتم بأعمال الاصلاح في مركز سان ـ پول حيث كنت تقيم في السابق، فهناك دائماً ما هو في حاجة الى الترميم في مثل هذه المباني الضخمة. قلت لها، ولم لا! الا انني لم أخبرها بمكانك. هذا شيء لم اقله».

فقاطعه لودو: «وأمي، هل تسلمت رسالتي؟

ـ نعم. تسلمتها وهي التي اخبرتني بمكانك الا انني لم اصدقها. اعتقدنا انك مت. لقد بحث رجال الشرطة عنك في كل مكان، فتشوا الغابات ومشطوا النهر وبحثوا في كل مكان ولكن يبدو ان هذه المنطقة تحوي مخابىء كثيرة. . وها انت قد عثرت على أفضلها».

ثم امسك فجأة برسغ لودو الايسر:

«أنا لم اكن اصدق جنونك ايها الصغير، لم اكن أصدق. . كنت اقول لامك دائماً ولابنة الخالة ايضاً ان الصبي غريب الاطوار الا انه ليس مجنوناً، ليس مجنوناً! . . . »

ثم اشاح بوجهه:

«ولكن، بعد قضية الحريق، اتفهم، ادركت انهما كانتا على حق. ولولا ذلك، ما كنت لاصدق.»

خفض لودو رأسه وقال بصوت متوسل:

«لم تحضر أمي . .

ـ . . . . لم يكن رجـال الاطفاء واثقين بالأمر. تحدثوا عن تماس كهربائي في المصابيح. ولكن امك كانت واثقة وابنة الخالة كذلك. لقد احترقت المغارة كلها واشتعلت مدخنة الموقد ايضاً اذ كان فيها عدد من اعشاش الطيور. من حسن الحظ انهم لم يموتوا كلهم هناك».

وداعب ميشو جانب السفينة وهو يقول:

ـ «انها ليست قديمة جداً . . يمكن اصلاحها ببعض الجهد. . لو كنت أصغر بعشرين عاماً لما اخافني هذا العمل».

واصطحبه لودو في جولة داخل الحطام ثم توسل في النهاية:

«وامي، متى ستأتي لاخذي؟»

فصعق ميشو:

«لادري. لايمكن للمرء ان يعرف اي شيء معها. . ستفعل هي ما تشاء. لم تخبرني باي شيء. . ربما، ما كان عليك الكتابة اليها. . اذ ان لديها عنوانك الآن».

واعاده لودو الى الشاطىء بالطوف فبلل ميشو اذ يال سرواله وهو يهبط ووعده بالعودة ثم ابتعد دون ان يلتفت الى الوراء.

وحلم لودو في تلك الليلة بكف ضخمة تسحقه.

ومرت أيام الاسبوع. كان يذهب كل يوم الى الدغلية الا انه لم يكن يرى أحداً وكانت النوافذ كلها مغلقة. وكان يمر في طريق عودته بقرية لوفـورج حيث أصبـح برنـار اكثـر جفـاءً معه وأخذ ينهمك في غسل الصحون او في اللعب بآلة الفليبرز كلما رآه يصل. وكان لودو يدفع ثمن

اقداح الحليب الساخن بأوراق نقدية من فئة المائة فرنك ثم ينسى المبلغ المتبقي على المناضد دائماً ليجده في اليوم التالي وقد وضع بكل عناية داخل ظرف.يحوي ورقة حساب اليوم السابق. وكانت جيوبه تمتلىء دائماً بالقطع النقدية المعدنية وباوراق نقد مدعوكة.كان ينفقها دون حساب.

أما البقالة فقد حافظت على موقفها تجاهه واستمرت ترفض تسلم ثمن حلوى السكر وعلب هريس اللحم التي كان يشتريها رغم النقود التي كان يبدو انه يعرضها أمامها. وكانت تردد: «انك صبي طيب. صبي طيب حقاً. لاأعرف ماذا تفعل هنا. الا انك صبي طيب. .» وكان لودو يقول في نفسه انها محقة وانه افضل الاولاد الطيبين الذين التقاهم في حياته.

وعند عودته، شاهد بانورج وكويلان يقفان على الشاطىء قرب الساناغا. فعاتبه الأخير: «لماذا تذهب الى القرية، انها مليئة بالمشاكل، مليئة بألسن السوء وبالمشاكل. يجب الا تذهب الى هناك بعد الآن».

وفي مساء أحد الأيام، عثر لودو داخل صندوق الرسائل الذي كان يفتشه على نحو آلي على رسالة من آموندين تحدد له فيها موعداً في اليوم التالي لتناول وجبة خفيفة من الطعام على ظهر المركب.

وكتبت في رسالتها ايضاً:

«لم تعد ترفع زهوري وهي تذهب الى البحر حين يرتفع المد. ان استمر ذلك فلن أحمل اليك الزهور بعد الآن أبداً. . . .»

وقرأ في ذيل الرسالة ايضاً حروفاً غامضة خطت بخط جميل أ. م. أ. ق.

وحضرت في الموعد المحدد. كانت مشرقة وسعيدة ترتدي تنورة زرقاء

بلون السماء خيطت على شكل سروال وتحمل حذاءها بيديها كي تصعد الى السفينة حافية القدمين. وكان لودو في انتظارها عند برج الرصد.

قالت وهي تلثغ بالصاد بطريقة مبالغ فيها:

«ثباح الخير.»

ثم سألت:

«ألديك مادلين؟».

فسألها قلقاً:

ـ «وما هي؟»

ـ ان لم يكن لديك مادلين فلن أصعد معك كما ان المنطقة كلها مبللة ولذا فلن نستطيع الاقتراب. يجب ان تحملني على ظهرك. هل رأيت حصياتي؟....»

ثم رفعت حقيبة قماشية صغيرة راحت تهزها، «لدي حصيات بيض وسود. لقد جمعتها كلها من الشاطىء. يمكننا ان نرسم بها كنائس واشخاصاً «وحصانات» أيضاً. أتعرف ما معنى أ. م. أ. ق؟....»

أجاب بالنفي. فقالت:

«لن اخبرك اذن!»

وأخيراً، خاضت بركة الماء وهي تطلق صيحات صغيرة سعيدة ثم تفحصت الثقب الأسود فوقها بنظرة مستنكرة وهي تضع يديها على وركيها. رفعها لودو وادخلها عبر الثقب ثم تبعها الى الداخل. بدت الساناغا التي زينها ساكنها ورتبها، متناسقة ومنسجمة الآثاث كأنها بيت من بيوت الاقزام كما ظهرت حجرة القيادة التي اعاد لودو ترتيبها كأنها صالون دمية صغير مما أسعد الفتاة. وصفقت الأخيرة لدى رؤيتها

باقات الزهور التي فقدت اوراقها والتي كانت تسبح داخل قناني الكوك وراحت تضحك معبرة عن سعادتها ثم دست انفها في كل مكان. من بيت المؤونة حتى حجرة المحركات، دون ان تفكر في ان كل هذه الاشياء السحرية التي تحيط بها ستؤول الى زوال لامحالة. وصرحت على لودو اسئلة عن كل شيء، عن المطبخ وعن المحرك وطريقة عمله وتساءلت عما اذا كان يسير بسرعة تزيد على سرعة دراجتها وعما اذا كان سيصحبها معه الى بوردو في أحد الأيام حيث منزلهم الشتوي وعما اذا كان يشعر بالخوف في الظلام. أجابها لودو على قدر ما يعرف وأخذه الحماس بعيداً حتى مرحلة الكذب فوصف لها بلداناً سحرية لم تطأها قدماه الا في الاحلام وتحدث عن مناطق السافانا وعن غابات تشبه الغابات المحيطة بمدينة بوردو الى حد بعيد.

«ما أجمل [illegible]! . . . ولكنني لاأحب هذه الرسوم. أنا أعرف كيف أرسم «الحصا[illegible] . ولكن، يجب ان نقول أحصنة عندما يكون هناك عدة «حصانات». سآتيك بعدد من رسوماتي، هذا، اذا ما وافقت أمي!»

وهيأ لها لودو قدحاً من الحليب الساخن كي تشربه: «أنا اريد قدحاً من البشش * . . مع كعكة مادلين اغمسها فيه!»

فأجاب لودو منزعجاً:

- «ليس [illegible] ما تريدين.»

فقالت:

«حسن، [illegible] بأس. لنعتبر الحليب بشش والخبز كعكة مادلين ولنفترض

* تعني قدحاً من المشروبات الغازية وكلمة بشش هو صوت انبعاث الغاز من المشروب. (المترجمة)

أنك ابي. ما هذا الصوت؟

ـ انه صفير اشارة السفن.

ـ ولماذا تصفر؟

ـ هناك القاع وفيه رمال ولذلك فهي تصفر.

ـ وأمك، هي لطيفة؟»

فأحمر لودو وقال انها لطيفة جداً وانها ستأتي كي تأخذه عما قريب.

فقالت أموندين وهي تخرج لسانها له:

«أنا كبيرة وأمي لاتأتي كي تأخذني فأنا اعود وحدي الى البيت.. ألم نحزر بعد؟

ـ لماذا؟

ـ سري. م. أ. ق تعني أُغلقت مع الف قبلة.»

وحينها خيل الى لودو انه سمع صوتاً منادياً، فوثب الى سطح المركب.

كانت والدة آموندين الهلعة تبحث عن ابنتها وهي لاتجرؤ على تصور انها قد عصت اوامرها وارتكبت حماقة المجيء الى هذا المكان لرؤية «ابيها»: ابيها!.. هذا المتشرد الذي يقيم في الساناغا، هذا المجنون المرعب الذي يقال انه هارب من مصح عقلي وستقتاده الشرطة بين يوم وآخر. عثرت على الدراجة على التلة ولم يكن هناك أحد في الجوار فراحت تنظر بهلع الى الشمس وهي تغيب. سارت وقد استبد بها الغضب في اتجاه حطام السفينة وهي على استعداد لان تموت ولأن تقتل وكانت تبتهل من أجل ابنتها وتتوقع ان تشاهد المجنون في السفينة يلقي بين قدميها سكيناً مضرجة بالدماء.

وصاحت الصغيرة بفرح وهي تسمع امها تقترب من بعيد:

- «انها امي. ماما، ماما.. أنا هنا...» ثم قالت للودو: «هيا، تعال نذهب اليها. امي الطف ام في العالم..»

وقادها الى الخارج. كانت امرأة تعدو في اتجاههما وهي تزأر باسم «آموندين» وتتعثر في الرمال وتبكي. جرت الطفلة وارتمت في احضان امها. وعندئذ فقدت امرأة اعصابها وأخذت تهز رأسها وهي تصرخ: «ايها الحقير، ايها الحقير» بصوت خنقه البكاء وهي تشد ابنتها اليها كي تحميها من خصر وهمي. زكي اجب لودو بوهن «ولكن ياسيدتي..» كررت هي كلمة حقير بصوت راح يعلو اكثر فأكثر كلما تراجعت الى الخلف. وقبل ان تغادر الشاطىء تماماً، استدارت كي توجه اليه آخر اهاناتها التي وضعت فيها كل غضبها كأم تأكلها القلق ثم صعدت التلة مع آموندين واختفت.

ظل لودو واقفاً في مكانه فترة طويلة دون حراك، ينظر الى الشمس وهي تغيب والى الليل ينتشر فوق البحر. بدت العتمة الدافئة كأنها مأساة معبقة، اشارة تنذر بوقوع خطر ما اضافت اليها اشارة السفن بصفيرها نغمة جنائزية..

هل اتى بفعل سوء؟.. لماذا تسبه لمجرد ان فتاة صغيرة قد زارته؟.. متى سيقررون المجيء لالقاء القبض عليه؟... متى سيعثرون عليه؟... ماذا لو اطلقوا النار على المجنون، لو قتلوه كما تقتل الكلاب؟.. تفحص الغابة المظلمة التي يختبئون فيها دون ريب، جميعهم، ببنادقهم، ثم صعد الى المركب وهو يشعر بالحزن لأنه لايجد أحداً يروي له قصة حياته.

وعند الفجر، استيقظ وهو يشعر باهتزازات في هيكل السفينة وسمع صوت ماكنة حاد. لقد بدأت عملية تقطيع الساناغا.

* * *

الفصل التاسع عشر

«انني المدعو فرانسيس كويلان، لي الشرف أن أوقع في أدناه ان سفينة الشحن ساناغا قد جنحت الى الشاطىء وان ذلك حدث في منطقتي. كان ذلك في منتصف الليل عند ارتفاع المد يا سيادة العمدة وكان الجو جميلاً ومنبسطاً انبساط الكف. شاهدت أضواء السفينة من نافذتي كما لو كنت اشاهد استعراضاً ولم يكن أمامي ما يكفي من الوقت الا لارتداء بنطالي وانزال قاربي الى الماء ثم جدفت نحو المركب الذي انغرز في رمال القاع ولم تكن محركاته قد توقفت. كان منظراً يستحق المشاهدة حقاً اذ اختلطت الرمال بالمياه حتى بدت كخلطة المايونيز. وعندما وصلت الى جانب المركب رأيت قطيعاً كاملاً من الخراف يتصارع مع المياه ويمعمع حتى انني لم استطع سماع صفير اشارة السفن. تسلقت سلماً فاستقبلني بلا ادنى احترام زنجي طويل يكسو جسمه الشعر ولم يكن يرتدي حتى سروالاً داخلياً ويحمل حقيبة ومظلة مفتوحة كي يحمي نفسه في حالة سقوط نجمة. قلت له: «ما الذي يحدث؟» فقال: «وصلنا اورلي». فقلت له: «اي اورلي هذا الذي تتحدث عنه» فأجابني: «انه اورلي الغربي»* ثم القى بنفسه في الماء، ذلك الزنجي،

---

* أحد مطارات باريس. (المترجمة)

مع حقيبته ومظلته وكانت الخراف تتساقط كلها كقطرات المطر. تقدمت داخل المركب فرأيت ثلاثة ضباط كانوا يتظاهرون بالحفاظ على الاتجاه وربما كانوا يقلدون ضجة المحرك ايضاً. قلت لهم: «يسرني ايها السادة، ان ارحب بكم في مملكتي». فأخذوا يرطنون، يعلم الله بأي لغة وكانوا ثملين حتى نخاع عظامهم. وفجأة، راح كل شيء يحترق في مؤخرة المركب فعدت الى قاربي بسرعة وقلت في نفسي فليتدبروا امورهم بانفسهم! كانت الخراف التي غرقت قد قضت كلها ماعدا واحداً راح يناديني لنجدته. انا افهم لغة الخروف افضل من لغة قبطان المركب. كان الحيوان يناديني ياسيادة العمدة وهو يغوص في الماء ووجهه في اتجاه البحر حيث اشارة السفن، لابد انه ظن ان مسيح الخراف الصغير كان يتحدث اليه. مددت له مجدافاً ثم اقتدته الى اليابسة. كان يمعمع وكانت اشارة السفن تمعمع هي الاخرى فرحت أمعمع أنا ايضاً. وأنا، عندما أريد، أمعمع أفضل من خروف حقيقي. لقد تبنيته ياسيادة العمدة واسميته بانورج بسبب موسى حين عبر نهر الاردن وصنعت له مسكناً عند مدخل بيتي، أمام البيت الذي كان يقيم فيه كلبي تماماً، كلبي الذي قتلوه بحجة انه هاجم كلبك الذي هو من فصيلة الذئاب. والآن لديّ بانورج، وهو لايعض! بل انه صديق المجنون الذي يقيم في الحطام والذي طلبت مني تقريراً عنه. وهاهو تقريري ياسيادة العمدة. المجنون صبي من افضل الصبيان. انه ليس اكثر جنوناً منك أو من بانورج أو مني. المجنون لايزعج أحداً على الشاطىء واذا كانت عظام السانا غا تدفئه فأنا لاأدري لماذا تريدون ازعاجه. ليس لديّ ما اقول غير هذا وان احتجتم الى شاهد كي يحلف فانني موافق».

هزّ العمدة، وهو رجل قصير القامة يبدو عليه النفاق، رأسه.

«حسن ياسيد كويلان. شكراً جزيلاً. يكفي ما فعلته حتى الآن. اردنا فقط تكوين فكرة عن هذا الصبي ونحن لانريد به شراً. إنني أعول على صمتك».

وخرج فرانسيس كويلان.

وكان حاضراً في مكتب العمدة كلٌ من نيكول بوسار وهيلينا راكوف وروجر ڤاي، وهو طبيب نفسي اعتاد التردد الى مركز سان ـ پول.

واستأنف العمدة:

«كل منكم يبحث عن مصلحته الخاصة، هذا مؤكد، الا ان هناك مصلحة الجماعة ايضاً. هذا الصبي يمثل خطراً ولذا يجب القاء القبض عليه حالاً».

فرفعت الآنسة راكوف يدها:

«ليس المطلوب، «القاء القبض عليه»، ياسيادة العمدة، بل ارساله الى مؤسسة صحية عقلية. لودوفيك مريض وليس مجرماً. انه ليس خطراً حقاً وعلينا ان نتعامل معه برفق. صدقني، ان شاهد رجال الشرطة فقد يدفعه ذلك الى ارتكاب حماقات جديدة. ربما هرب من جديد مما سيجعلنا نواجه مشاكل اضافية من أجل العثور عليه مرة اخرى».

فقال العمدة:

«يالها من فكرة رائعة. فكرة الرفق هذه!... ولكنني علمت انه اطلق نار مسدسه على عدد من الشباب.. مم يشكو هذا الصبي؟... كتبت اليّ وقلت انه يعاني تخلفا عقلياً. ولكن التخلف العقلي قد يعني

أشياء كثيرة. عليّ ان احدد ذلك في تقريري بكل وضوح».

والتفتت الآنسة راكوف نحو جارها:

«نعم هاهو الدكتور ڤاي الذي كان يتابع حالة لودوفيك في سان ـ بول. لقد طلبت اليه المجيء كي يعرض علينا وجهة نظره».

وأخذ الطبيب النفسي دفة الحديث فراح يتبجح بنبرة متأففة:

«لودوفيك يمثل حالة طبية.. قليلة الشيوع. انه يعاني تخلفاً عقلياً يستحق عليه الحجز في مصح عقلي، وهذا أمر يشك فيه على الاطلاق، الا ان من الصعب تصنيف حالته بالتحديد. انه يعاني عوقاً في عمليات الادراك وهذه صفة مميزة لمن في حالته. ويعتبر هذا النقص لدى المراهق عموماً عاملاً يساعد على تدهور آليات التكيّف والتعبير والسيطرة على الحركات وهو أمر يصيب المرء بالعجز حتماً. لودوفيك يجمع كل هذه العقد معاً اذ لم يحصل على عطف الأب ولا على حنان الأم ولم يدركهما ذهنياً مما أعاق تكوين شخصية جنسية سوية لديه..»

فتدخل العمدة في عصبية:

ـ «ومن أجل التقرير ايها الطبيب، أليس لديك عبارة من كلمتين او من ثلاث كلمات؟»

فنظر اليه الطبيب شزراً:

«اكتب اذن انه مصاب بالاختلال الوظيفي الذهاني وهذا يكفي.

ـ رائع ايها الطبيب.. والآن أود ان أعرف ماهي خطة الآنسة راكوف لاستعادة.. مريضها».

فقالت الممرضة وهي تبتسم:

«عن طريق خدعة بسيطة. عسى ان يغفر الله لنا وان يسامحنا لودو.

انني واثقة بذلك. يكفينا ان نبعث بشخص ما الى المركب، شخص يثق به يقترح عليه القيام بنزهة في السيارة ولن يكون عليه غير اقتياده خلف الرابية وعندها لن يحتاج المرضون الا الى حمله على الصعود الى عربة الاسعاف وينتهي الأمر.

ـ انني مضطر، من الناحية القانونية، الى ابلاغ رجال الجندرمة.

ـ نعم. ولكن عليهم ألا يدعونه يراهم. لن يضيرنا ان يراقبوا مسار العملية من بعيد وسيكون لودوفيك في سان ـ پول في هذا المساء».

وتغضن وجه العمدة:

«حسنٌ، فلنحاول.. ولكن بقي ان نجد الشخص الذي يثق به كي نطلب منه الذهاب الى السفينة».

*

حين هبط فرانسيس كويلان الى الساحل لم يجد غير الحدادين الذين كانوا يحيطون بالسفينة ويعكفون على ابداع نتاجاتهم الخاوية بنافثة النار.

قال له المسؤول عن العمل:

«يجب ان نسرع اذ سيرتفع المد خلال ساعتين وسيغمر الماء اقدامنا. أما مع المد الكبير، فيجب ألا نتأخر!»

فأجاب كويلان:

ـ «والصبي، اين هو؟

ـ لم يرو لنا قصة حياته. احياناً يقف جانباً وينظر مع انه ليس هناك ما يستحق النظر. لسنا هنا كي نهتم به ثم ان المرء لايعرف شيئاً مع المجانين ابداً. أما اين هو الآن فهو ما لاأعرفه..».

وفقدت الساناغا جزءها الأمامي وغدت مفتوحة بكل ارتفاعها تعرض أحشاءها التي قطعت جيداً بالنار.

«لن نحتاج الى اكثر من عشرة أيام للانتهاء منها! . . . . ولكنها مهمة متعبة على أية حال».

توغل كويلان داخل الغابة ثم عاد ادراجه كي يحذر لودو. سكان هذه القرية أوباش! وهذا العمدة من الأوباش! وكل هؤلاء الناس المرتابين مجرد أوباش لايساوون قيمة آخر مسمار في حطام صدىء.

وما ان خرج من الغابة حتى التقى ثلاثة من رجال الشرطة الذين طلبوا منه بكل أدب الصعود الى سيارة زرقاء كانت مخبأة تحت اشجار الصنوبر.

*

سار لودو. بمحاذاة الساحل. كان عاري الصدر وكانت فترة العصر على وشك الانتهاء وكانت قوارب بلون الدخان تمر في البعد متجهة نحو خطوط الملاحة. ربما سيصبح بحاراً. الا انه يريد رؤية امه اولاً. خيل اليه انه يحمل في احشائه سراً لو باح به لتلاشت كل الظلال القائمة بينهما ولتصالحا. كان ذلك اقرب ما يكون الى ذكرى لايستطيع تمييزها. لقد عاد لتوه من الدغلية حيث لم يجد نيكول كما هي الحال في الأيام السابقة وكان غاضباً على ميشو بعض الشيء لانه تركها، لانه سمح لها بتركه ولانه وراء هذا الضياع الجديد الذي يحول المستقبل الى رمال متحركة.

توقف قليلاً كي يمص انبوبة حليب عثر عليها في الصباح داخل صندوق بريده الى جانب علبة تحوي خبزاً متبلاً وقالبين من قوالب

الشوكولاته ربطت بشريط شمعي لاصق. وعثر أيضاً على رسالة قصيرة:

«سامحني على ما حدث في الأمس. آموندين تحبك كثيراً.

أمها».

عاود السير وهو يترنم بالكلمات «آموندين تحب لودو كثيراً». لم يقل له أحد ذلك البتة من قبل. ولاح حطام السفينة من بعيد وسط هالة من الضباب الاغبش. وكانت نصف سفينة شحن قطعت من الوسط حتى ان المرء ليظنها من بعيد ماتزال في طور الانتهاء من صناعتها. أحس، وهو يزداد اقتراباً منها، بروحه تنوء تحت وطأة التعاسة. كانت الشاحنة الصغيرة تستدير والعمال ينصرفون. ولكنهم سيعودون غداً ثم بعد غد واليوم الذي يليه ايه ثم سينتهي كل شيء ولن تتذكر الرمال الجرداء شيئاً على الاطلاق.

وبلغ المكان. بدت السفينة كأنها بقرة اكلتها الديدان. لقد انجز العمال عملهم بسرعة اليوم. شاهد مقدمة السفينة والصواري وقد القيت على الارض دونما نظام ومجموعة من الاسلاك المعدنية وقد تكومت الى جانب الحطام كأنها احشاء فريسة عافتها الطيور الجارحة. اطبقت رائحة المعدن والغازات على حنجرته فجال بنظره متأملاً في هذه الاكداس المهملة التي كانت ترجع صدىً اخرس. استدار الى الخلف فوقعت عيناه على منظر كاد يقضي عليه، اذ شاهد مروحة السفينة ملقاة على الحصى، رمز مجزرة شهدت تمزيق سفينته.

وظل هذه المرة أيضاً وحيداً بصحبة المحيط، وحيداً بصحبة المساء، يشعر بسعادة مشوبة بتعاسة اثيرة لديه تجعله يتماثل مع هذا الكون كما

يتماثل مع آخر مسمار معقوف في هذا البطن المحطم الذي أفرغ فيه قذارته منذ عيد الميلاد .

كم سيكون عدد الايام وكم سيكون عدد الشموس التي ستتلاشى هنا في خَدَر المغيب؟

بدا كأن شيئاً لم يتغير في الداخل. فذلك الوجه المتواري ما يزال يغطي جدران مطعم الضباط ووجه المرأة خلف الكف، المرأة اللامرئية الموشومة في جلد سفينة حكم عليها بالموت تحت نافذة النار. كان ذلك شعاره هو، بل كان هو نفسه. سحق قبضتيه على الصورة الجدارية بكل قوة. سيرحل من هنا، هذا أمر مؤكد، الا انه لن يذهب الى دار المجانين. سيصبح بحاراً. قال كويلان ان هذا الامر سهل اذ ان هناك دائماً فرصاً للعمل في اسبانيا. المشكلة الوحيدة هي الحدود والاوراق، مشكلته الوحيدة هي امه التي حرمته من الهوية على الدوام.

جال ببصره داخل مقصورته والألم يحز في نفسه فوقعت عينه على سريره المصنوع من مادة الصفر والذي سينقل الى مستودع المواد المستعملة العتيقة، على نحاس كوة السفينة المصقول جيداً، على باقات آموندين الذابلة، على الحصيات، على القواقع ورؤوس السرطانات وعلى حالات الجزر العديدة التي لن يحتفل بعد الان بالتقاط بقاياها فصعد واليأس يملأ نفسه الى سطح المركب.

استند بمرفقيه الى سياج السفينة واضطر الى ان يغمض عينيه امام البحر المتلألىء الساكن. كان ذلك عصر يوم من ايام آب الطويلة والحارة وكانت الشمس المائلة نحو الغرب تغطي الافق بحراشف وردية. وما ان

سمع ايقاع اشارة السفن البعيد حتى ارتفعت في الافق موجة عاتية بدت كأنها تحلق في السماء كالمعجزة ثم ما لبثت ان تحولت الى امواج متلاطمة عنيفة. نظر الى الشريط الساحلي المضب والى الرمال المجردة من اي لون وسمع ارغاء اشجار الصنوبر اللامتناهي. حمل السكون بعض العزاء الى نفسه وكان على وشك الهبوط الى مطعم الضباط حين عرت جسمه رجفة. لقد شاهد شخصاً ما يقترب من الساحل، عند المنعطف حيث برج الرصد ويتقدم متوجهاً نحو الساناغا. لم يكن هناك ما يشير الى إنه احد المارة المتسكعين اذ لم يمل يميناً ولا يساراً بل سار قدماً نحو هدف يعرفه جيداً. ابتعد لودو عن سطح المركب بحذر ثم هرع الى حجرة المحركات كي يراقبه من هناك دون ان يتمكن الاخر من رؤيته.

وكانت امرأة ذات ذراعين عاريتين ونظارة سوداء وشعر متطاير. بامكان لودو ان يسمي هذه الخطوات السريعة والعصبية من بين آلاف الخطوات. كلما ازدادت اقتراباً، ازدادت نبضات قلبه قوة واتخذت هذه الرؤيا التي لم يكن ليأمل فيها الا في الاحلام، قوة اللحظة الواقعية، مفجرة بذلك ماضيه كالصرخة: انها نيكول... امه.... ها هي ذي تأتي... ترد على رسالته.. هاهي ذي قد جاءت أخيراً كي تأخذه.

اقتربت من هيكل السفينة فما عاد يستطيع رؤيتها الا انه سمعها تناديه باسمه.

ضغط على صدغيه بكلتا يديه اذ لم يعد يحتمل قوة انفعاله. لابد أنها قد مدت رأسها داخل السفينة. ظلت تناديه الا انه لم يستطع مبارحة مكانه وكان يشعر بألم في قلبه. حاول ان يرد عليها الا ان كلماته خرجت أنيناً وصمّ لغط الدماء في شرايينه اذنيه عن السماع الا انه حاول قبل كل

شيء الحفاظ على توازنه. سكت الصوت فوثب لودو نحو كوة السفينة. كانت سحابات بلون الخبز تكنس السماء والمد يرتفع على امتداد هيكل السفينة والظلام يتوافد على الساحل المقفر شيئاً فشيئاً. اين ذهبت؟.. اين امه؟.. ودفعه رعبه المجنون الى الخروج والى نهب سلم مطعم الضباط.

وكانت هناك، تقف في دائرة الضوء تنظر الى الجدران دونما اكتراث. وما ان رأته حتى تشنجت عضلات وجهها.

قالت وهي تصطنع الابتسام:

«جئت مبكراً جداً، منذ نصف ساعة وأنا ابحث عنك.. مساء الخير على أية حال.. هيا يالودوفيك.. ألا تقول مساء الخير لامك؟».

كانت ترتدي ثوباً صيفياً أصفر اللون شدته بحبل في منطقة الخصر وكان يبدو شديد الشفافية عند انعكاس الضوء.

«ماكنت أتصور يوماً انني سآتي الى مثل هذا المكان..» وقصت الشمس في شعرها حزماً من القش المذهب، علقت بالذراعين العاريتين وبالكاحلين وبالقدمين المحتذيتين جلداً رقيقاً.

«آذيت نفسي وأنا أصعد، هذا ان كان ذلك يهمك، واتسخ ثوبي ايضاً.. رائع.. ان يفكر المرء في العيش هنا، انه مكان مقرف حقاً.. وهذه الرائحة الفظيعة!.. آه! ليس هناك من هو سواك يرتكب مثل هذه الحماقات».

وكانت قد فتحت باب المقصورة.

«أهذه هي حجرتك؟.. انها افضل ترتيباً من حجرتك في الدغلية.. وما هذه الفظائع؟....»

وكانت تشير الى باقات آموندين الصلعاء.

فأجاب لودو:

«انها زهور.

- زهور؟ . . . لايمكن القول انها تبدو سعيدة هنا!».

وسأل بحذر:

- «قد اتيت لأخذي!»

فنظرت اليه باستغراب:

«نعم، وكيف عرفت ذلك؟ . . اطمئن على اية حال اذ سيتم كل شيء على ما يرام . . . ».

وبعد فترة من الصمت قال بصوت أبح:

«انت أجمل عندما يكون شعرك طويلاً».

وعندئذ التقت عيناه بعيني نيكول فتبدد السراب الشمسي. كانت نظرتها نظرة احتقار وجفاء وخيبة اختبأت خلف جفنين مثقلين بالاصباغ على نحو مبالغ فيه وبدا صوتها متحالفاً مع عينيها بألف اتفاق سري يغرف المرارة من المنبع نفسه وكانت تجاعيد صغيرة تخدد المنطقة المحيطة بفمها، تحت الطلاء الأحمر.

قالت: «لم تتغير قط. عندما كنت في المخزن، كنت تحملق اليّ بعينيك الخضراوين اللتين لاتعرفان موقعهما والبلهاوين تقريباً. اتدكر؟ . . كنت ترفض الكلام وتنظر اليّ كما ينظر أسد البحر. وكنت لاتكف عن الدوران حول نفسك كي تزعجني . . . ».

خطت خطوة في اتجاهه. كانت أمام الكوة تماماً، تستقبل اشعة الشمس الحمراء في شعرها، شعرها الأحمر، ثم استأنفت كلامها

بصوت كئيب. تحدثت عن بيهاك، عن الدغلية، عن مأساة كونها أما لطفل ليس أبله فحسب بل مراءٍ ايضاً، غير قادر على الاتيان بفعل لطيف ازاءها ويخلق لها المشاكل باستمرار. . تحدثت بعصبية جعلت فمها يعوج حتى برزت اسنانها الا ان صوتها هدهد لودو الذي لم يسمع شيئاً. أحس بحزن عميق جعله ينفعل فنظر الى امه وشعر كما لو ان سراً في داخله، لايعرفه حتى الآن الا انه يعرف ان عليه ان يفصح عنه هنا، يصعد الى شفتيه، في تلك الفترة الزمنية الهشة التي قامت خلالها نيكول فجأة بالخطوة الوحيدة التي كان من شأنها ان تقرب بينهما الى الأبد.

وقال فجأة: «لماذا لم تحضري في عيد الميلاد؟»

فصعقت نيكول:

«في عيد الميلاد؟. . . رائع!. . اعلم انه كانت لديّ مشاكل اخرى اهتم بها. . ولكنك لم تفكر الا في نفسك حتماً، كالمعتاد!. . لنكف عن الثرثرة الآن اذ انني جئت كي اتحدث اليك. . كي اتحدث في سبيل مصلحتك. .».

وغمغم بهدوء:

«هل صحيح اننا سنغادر أنا وانت معاً؟

ـ نعم، نعم. . ولكن انتظر لحظة!».

راحت تحمل كل كلمة من كلماتها نفساً حاداً وهي تنظر الى الجدران والى جميع هذه الاكف وهؤلاء النسـوة المـرصوصات اللامرئيات. انه عمل مجنون حقاً. «حاولت عبثاً أن تفسد عليّ حياتي. ولكن آن الأوان كي نقيم السلام بيننا. .».

ولكن، لم يكن هناك ما يدل على السلام في تلك النظرة، ولا ما يدل

على الصفح، على الرغم من صوتها الذي حاول اكتساب نبرات امومية. لم يكن هناك اي أمل.

«شكلك المتصلب وانت توقظني في الصباح. كنت اخشى دائماً من أنك تهيء لي مكيدة سيئة. لم تكن تجيب عن الاسئلة، وكنت تشرد بفكرك.. تصور انك لم تناديني قط بكلمة ماما.. وتريدني ان ارد على رسائلك؟... من المؤكد لن افعل!».

وجبات الفطار في الدغلية والكرسي الهزاز وهي تستثيره بأوضاعها على السرير وبجواربها السود وبجملتها الازلية الصغيرة المليئة بالسموم: «قل ماما يالودو... »صحيح. لم يرد عليها قط.

واستأنفت نيكول:

«حتى وانت في مركز سان ـ پول، تمكنت من ان تفسد عليّ حياتي. رفضت ان تتغير، بل لم تحاول قط. كان يمكنك ان تشفى مع قليل من الارادة. اني اتألم كلما فكرت في كل تلك المبالغ التي بذرناها من أجل لاشيء!.. دون ان ننسى هنا قضية الحريق الشنيعة التي كلفتنا غالياً جداً...».

فدمدم لودو وقد خفض عينيه:

ـ «وانت. لم تقبليني قط ولم تلاطفيني ولم تحبيني.

ـ ماذا تقول يالودوفيك؟.. لاتعد الى الهمهمة من جديد ارجوك. ومع هذه اللحية الفظيعة، لايمكنني ان افهم شيئاً مما تقول.. يالك من عنيد!.. كانت الحياة في المنزل لاتطاق بوجودك. لاادري ان كنت تدرك أو لا انني اضطررت الى الزواج من رجل عجوز بسببك. أعرف انك كنت تحبه كثيراً، وهو الآخر كان يحبك. ولكنه رجل أناني عجوز. لك

ان تعرف الآن اننا في صدد الطلاق حاليا . . هذه ليست مشكلتك على أية حال. الانسة راكوف تحبك حباً جماً هي الاخرى وقد آلمتها بهروبك. ولأنها امرأة شديدة الطيبة فهي تريد استرجاعك كي تحاول معك من جديد فلا تخلق مشاكل أخرى، ارجوك. انني واثقة بانك سعيد في داخلك. لن تستمر في العيش هنا وكأنك بوهيمي . . ».

فانتفض لودو وقال بصوت ضائع :

«لماذا . . . ».

نظرت نيكول الى اعماق عينيه وامسكت بيده ثم وضعتها برقة على خدها وهي تحاول الابتسام.

قالت وهي تتصنع الرقة في صوتها حتى بدت كأنها تهمس :

«هيا، لننس الماضي . . لقد . . لقد عانيت الكثير بسببك . . ولكن الامور قد تغيرت الآن ولم يعد شيء كما كان في السابق. سأتزوج من جديد . . وابتداءً من الآن، نحن أصدقاء. قل ماما يالودو. . . ».

سمع لودو، ويده المرتعشة على وجه نيكول، صوته وهو يجيب بصوت خفيض : «ماما». وما لبث الصوت ان تحول الى نشيج يخرج من فمه فراح يردد بصوت اكثر فاكثر ارتفاعاً «ماما». اغمضت نيكول عينيها فشاهد لودو يده تداعب خدي هذه المرأة ووجنتيها وشفتيها وجبهتها، هذه المرأة التي طالما حرمته من ابسط علامات الحنان ومن ابسط تعابير الحب. اطلقت هذه الكلمة التي لم يسبق له ان لفظها من قبل، وهذا السر الذي لم يفصح عنه على الاطلاق وتلك الصرخة التي لم يصرخها البتة، اطلقت في داخله سراح قوى ما لبثت ان حجبت عن عينيه الرؤية فغرق رأسه في خضّم سعادة قاتلة وراح يصرخ «ماما، ماما»

بصوت اكثر فأكثر ارتفاعاً مما افزع نيكول. قالت بحدة: «دعني، انت اذن مجنون فعلاً يالودو، مجنون كأبيك، مجنون تماماً»، الا انه استمر يصرخ «ماما» كما لو كان ينادي النجدة ويبدو غير قادر على التوقف.

انشبت اظفارها فيه وصرخت الا انه دفعها بقوة نحو الجدار بين رسوماته والتصق بها وشاهد اصابعه تسحق وجه الأم وشاهد العينين الجاحظتين فزعاً تبرزان بين الأصابع والشعر الأحمر بلون الشمس. ظل يصرخ «ماما، ماما» وهو يطرق رأسها على الحديد بكل قوة. استمرت في المقاومة، فأنزل يديه الى الرقبة، كي ينزع، مأخوذاً، القناع عن صورة ذلك الوجه الذي عذبه منذ طفولته. أحس بالنشوة فاستمر يضغط ويضغط بكل ما فيه من قوة. وأخيراً، سرت الرعشة في جسمه وحررت اللذة الكبرى لودو.

نظر مأخوذاً الى الجثة تتكوم بين قدميه، الى امه التي تمزق ثوبها وتبعثر شعرها وجحظت عيناها فركع الى جانبها. شعر بالفزع وبالرعب وانقطع عنه النفس. سيأتون بلاشك الآن، سيأتون كي يأخذوا منه أمه مرة اخرى. وسيأخذونه كي يحجزوا المجنون الى الأبد. ولن يراها بعد الآن.

كان عليه ان يتصرف بسرعة. حمل لودو نيكول بين ذراعيه وضمها الى صدره ثم هبط الى حجرة المحركات. شدها اليه بقوة وبتشنج وهو يغمرها بقبلات راح يغرقها في شعرها. وظل يردد وهو منهوك القوى، ماما، ماما الا ان الكلمة وقفت بعيداً، مسمرة في مكانها.

وصل الى حيث المنفذ الى خارج السفينة دون ان يترك امه. نظر الى الامواج وهي تلطم هيكل السفينة بشيء من الرخاوة ثم ترك نفسه يسقط

في البحر معها. حرر ذراعه اليمنى كي يسبح وأمسك بها بالذراع الاخرى بقوة وكان شعرها الذي انبسط كما تنبسط زهرة مائية يداعب فمه.

اتجه نحو عرض البحر، مسرعاً، كما لو كان على موعد وهو يردد كلمات حب حنونة. كانت حالة من الخمول القوي تسيطر على البحر الصقيل وكان شريط بلون الخبز يلون الأفق بلون غامق، وكان مصباح اشارة السفن الأحمر يتراقص في جهة الشمال. وفجأة ارتفع صوت تلاطم الامواج العنيف وغطى نداءها الشاكي الذي كان يسمع. والتفت لودو.

كان الشاطىء يبتعد نحو الليل الهابط وكان الخط الذي تكونه الصنوبرات والذي يزداد سواداً يمحو حطام السفينة بتأن. ازدادت نيكول ثقلاً على ذراعه شيئاً فشيئاً. سيناماه في فراش الشمس ولن تفرق الحياة بينهما بعد الآن أبداً ولكن، هروبه هذا معها، ومعرفته بأنه لن يذهب الى دار المجانين وأنهما قد نجياهما الاثنان مجرد عبث اذ سرعان ما عادت التعاسة الى نفسه من جديد وراح يشعر بألم في قلبه وفي جميع أنحاء جسمه وأخذ يتنفس بصعوبة اكبر ويرتجف هلعاً وهو ينظر الى الامواج التي تلون الظلام أمامه باللون الابيض. قال «انني خائف» وطوق بذراعيه الاثنتين أمه ثم ترك نفسه يغوص في عمق التيار الذي يقود مباشرة الى حيث الموجة العاتية.

«انتهى»

العرس الوحشي

في عام ١٩٨٣ أصدر الكاتب الفرنسي الشاب «يان كيفيليك» روايته «الفتنة السوداء» ليعلن ولادة كاتب من شأنه ان يغني الحياة الادبية في فرنسا بأنموذج جديد في الرواية. وفي عام ١٩٨٥ نشر روايته «العرس الوحشي» فنال بها جائزة غونكور للأدب كما حظي بلقب «فوكنر الفرنسي». واليوم نقدم لكم هذه الرواية مترجمة الى اللغة العربية آملين تعريف القارىء باسلوب الرواية الفرنسية الحديثة وبواحد من ابرز الكتّاب المحدثين في فرنسا.

السعر: ١٥٠٠ فلس

دار المأمون للترجمة والنشر

تصميم الغلاف: سلمان داود شهد